

تَفْسِيرُ

الْبَحْرَيْنِ وَالْتَنْوِيرِ

تَأليف

سَمَاءُ الْإِسْمَاءِ الْأَمَلِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الطَّاهِرِ بْنِ عَاشِقٍ

الجزء الثامن

القسم الأول

الدار التونسية للنشر

جميع حقوق الطبع محفوظة للدار التونسية للنشر

تونس 1984

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قِبَلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [١١١]

جملة « ولو أننا » معطوفة على جملة « وما يشعركم » باعتبار كون جملة « وما يشعركم » عطفًا على جملة « قل إنما الآيات عند الله » ، فتكون ثلاثتها ردًا على مضمون جملة « وأقسموا بالله جهنم لئن جاءتهم آية » إلخ، وبيانًا لجملة « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » .

روي عن ابن عباس : أن المستهزئين ، الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن حنظلة ، من أهل مكة . أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في رهط من أهل مكة فقالوا : « أرينا الملائكة يشهدون لك أو ابعث لنا بعض موتانا فنسألهم : أحق ما تقول » ، وقيل : إن المشركين قالوا : « لا نؤمن لك حتى يُحشر قُصَيّ فيُخبرنا بصدقك أو اثبتنا بالله والملائكة قبيلا - أي كفيلا - » فنزل قوله تعالى « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة » للرد عليهم . وحكى الله عنهم « وقالوا لن نؤمن لك - إلى قوله - أو تأتي بالله والملائكة قبيلا » في سورة الإسراء .

وذكر ثلاثة أشياء من خوارق العادات مسابرة لمقترحاتهم ، لأنهم اقترحوا ذلك ، وقوله « وحشرنا عليهم كل شيء » يشير إلى مجموع ما سألوه وغيره .

والْحَشْر : الجمع ، ومنه « وحُشِر لسليمان جنوده » . وضمّن معنى البعث والإرسالِ فعُدّي بعلّي كما قال تعالى « بعثنا عليكم عبادا لنا » .

« وفكّل شيء » يعمّ الموجودات كلّها . لكن المقام يخصّصه بكلّ شيء ممّا سألوه ، أو من جنس خوارق العادات والآيات ، فهذا من العام المراد به الخصوص مثل قوله تعالى ، في ريح عاد « تدمر كلّ شيء بأمر ربّها » والقرينة هي ما ذكر قبله من قوله « ولو أنّنا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى » .

وقوله « قبلا » قرأه نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر - بكسر القاف وفتح الباء - ، وهو بمعنى المقابلة والمواجهة ، أي حشرنا كلّ شيء من ذلك عيانا . وقرأه الباقون - بضمّ القاف والباء - وهو لغة في قبل بمعنى المواجهة والمعانية ؛ وتأولها بعض المفسّرين بتأويلات أخرى بعيدة عن الاستعمال ، وغير مناسبة للمعنى .

« ما كانوا ليؤمنوا » هو أشدّ من (لا يؤمنون) تقوية لنفي إيمانهم ، مع ذلك كلّه ، لأنّهم معاندون مكابرون غير طالبيين للحقّ ، لأنّهم لو طلبوا الحقّ بإنصاف لكفّتهم معجزة القرآن ، إن لم يكفهم وضوح الحقّ فيما يدعّو إليه الرّسول - عليه الصلاة والسلام - . فالمعنى : الإخبار عن انتفاء إيمانهم في أجدر الاحوال بأن يؤمن لها من يؤمن ، فكيف إذا لم يكن ذلك . والمقصود انتفاء إيمانهم أبدا .

« ولو » هذه هي المسماة (لو) الصهيبية ، وسنشرح القول فيها عند قوله تعالى « ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » في سورة الأنفال .

وقوله « إلّا أن يشاء الله » استثناء من عموم الاحوال التي تضمّنها عموم نفي إيمانهم ، فالتقدير : إلّا بمشيئة الله ، أي حال أن يشاء الله تغيير قلوبهم فيؤمنوا طوعا ، أو أن يكرههم على الإيمان بأن يسلط عليهم رسوله - صلى الله

عليه وسلم ، كما أراد الله ذلك بفتح مكة وما بعده . ففي قوله « إلا أن يشاء الله » تعريض بوعده المسلمين بذلك ، وحذفت الباء مع « أن » .

ووقع إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار : لأن اسم الجلالة يوميء إلى مقام الإطلاق وهو مقام « لا يُسأل عما يفعل » ، ويوميء إلى أن ذلك جرى على حسب الحكمة لأن اسم الجلالة يتضمن جميع صفات الكمال .

والاستدراك بقوله « ولكن أكثرهم يجهلون » راجع إلى قوله « إلا أن يشاء الله » المقتضي أنهم يؤمنون إذا شاء الله إيمانهم : ذلك أنهم ما سألوا الآيات إلا لتوجيه بقائهم على دينهم ، فإنهم كانوا مصممين على نبذ دعوة الإيمان ، وإنما يتعللون بالعلل بطلب الآيات استهزاء ، فكان إيمانهم - في نظرهم - من قبيل المحال ، فبين الله لهم أنه إذا شاء إيمانهم آمنوا . فالجهل على هذا المعنى : هو ضد العلم . وفي هذا زيادة تنبيه إلى ما أشار إليه قوله « إلا أن يشاء الله » من أن ذلك سيكون ، وقد حصل إيمان كثير منهم بعد هذه الآية . وإسناد الجهل إلى أكثرهم يدل على أن منهم عقلاء يحسبون ذلك .

ويجوز أن يكون الاستدراك راجعا إلى ما تضمنته الشرط وجوابه : من انتفاء إيمانهم مع إظهار الآيات لهم ، أي لا يؤمنون ، ويزيدهم ذلك جهلا على جهلهم ، فيكون المراد بالجهل ضد الحلم ، لأنهم مستهزئون ، وإسناد الجهل إلى أكثرهم لإخراج قليل منهم وهم أهل الرأي والحلم فإنهم يرجى إيمانهم ، لو ظهرت لهم الآيات ، وبهذا التفسير يظهر موقع الاستدراك .

فضمير « يجهلون » عائد إلى المشركين لا محالة كبقية الضمائر التي قبله .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [١١٤]

اعتراض قصد منه تسليّة الرّسول - صلى الله عليه وسلم - والواو واو الاعتراض ، لأنّ الجملة بمنزلة الفذلكة ، وتكون للرّسول - صلى الله عليه وسلم - تسليّة بعد ذكر ما يحزنه من أحوال كفار قومه ، وتصلّيهم في نبذ دعوته ، فأنبأه الله : بأنّ هؤلاء أعداؤه ، وأنّ عداوة أمثالهم لمثله سنة من سنن الله تعالى في ابتلاء أنبيائه كلّهم ، فما منهم أحد إلاّ كان له أعداء ، فلم تكن عداوة هؤلاء للنبيّ - عليه الصّلاة و السّلام - بدعاً من شأن الرّسل . فمعنى الكلام : ألسنت نبينا وقد جعلنا لكلّ نبيّ عداواً - إلى آخره .

والإشارة بقوله «وكذلك» إلى الجعل المأخوذ من فعل «جعلنا» كما تقدّم في قوله تعالى «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» . فالكاف في محل نصب على أنّه مفعول مطلق لفعل «جعلنا» .

وقوله «عدواً» مفعول «جعلنا» الأوّل، وقوله «لكل نبي» المجرور مفعول ثانٍ لـ «جعلنا» وتقديمه على المفعول الأوّل للاهتمام به ، لأنّه الغرض المقصود من السّياق ، إذ المقصود الإعلام بأنّ هذه سنة الله في أنبيائه كلّهم ، فيحصل بذلك التّأسيّ والقُدوة والتّسليّة ؛ ولأنّ في تقديمه تنبيهاً - من أوّل السّمع - على أنّه خبر ، وأنّه ليس متعلّقاً بقوله «عدواً» كيلا يخال السّامع أنّ قوله «شياطين الإنس» مفعول لأنّه يُحوّل الكلام إلى قصد الإخبار عن أحوال الشّياطين ، أو عن تعيين العدوّ للأنبياء من هو ، وذلك ينافي بلاغة الكلام.

«وَشَیَاطِینَ» بدل من «عَدُوًّا» وإنَّمَا صیغ التَّریب هکذا : لِأَنَّ المقصود الأوَّل الإخبار بأنَّ المشرکین أعداء للرَّسول - صلی الله علیه وسلم - ، فمن أعزب «شیاطین» مفعولا لـ «جَعَلَ» و «لکلَّ نبی» ظرفا لغوا متعلِّقا بـ «عَدُوًّا» فقد أفسد المعنی .

«وَالْعَدُوِّ» اسم یقع علی الواحد والمتعدّد ، قال تعالی «هم العدوِّ فاحذرهم» وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالی : «فإن كان من قوم عدوِّ لكم» فی سورة النساء .

والشیطان أصله نوع من الموجودات المجردة الخفية ، وهو نوع من جنس الجنّ ، وقد تقدّم عند قوله تعالی : «واتبعوا ما تلتوا الشیاطین علی ملک سلیمان» . ویطلق الشیطان علی المضللّ الذی یفعل الخبائث من الناس علی وجه المجاز . ومنه «شیاطین العرب» لجماعة من خبائهم ، منهم : ناشب الأعرور ، وابنه سعد بن ناشب الشاعر ، وهذا علی معنی التشبیه ، وشاع ذلك فی کلامهم .

والإنس : الإنسان وهو مشتقّ من التأنّس والإلف ، لأنّ البشر یألف بالبشر ویأنس به ، فسمّاه إنسا وإنسانا .

«وَشَیَاطِینَ الْإِنسِ» استعارة للنّاس الذّین یفعلون فعل الشیاطین : من مکر وخديعة . وإضافة شیاطین إلی الإنس إضافة مجازیة علی تقدیر (من) التبعية مجازا ، بناء علی الاستعارة الّتی تقتضی کون هؤلاء الإنس شیاطین ، فهم شیاطین ، وهم بعض الإنس ، أي أنّ الإنس : لهم أفراد متعارفة ، وأفراد غیر متعارفة یطلق علیهم اسم الشیاطین ، فهي بهذا الاعتبار من إضافة الأخصّ من وجه إلی الأعمّ من وجه ، وشیاطین الجنّ حقيقة ، والإضافة حقيقة ، لأنّ الجنّ منهم شیاطین ، ومنهم غیر شیاطین ، ومنهم صالحون ، وعداوة شیاطین الجنّ لأنّ نبیاء ظاهرة ، وما جاءت الأنبياء إلّاّ للتحذیر من فعل الشیاطین ، وقد قال الله تعالی لآدم : «إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك» .

وجملة «يُوحى» في موضع الحال ، يتقيد بها الجعل المأخوذ من «جعلنا» فهذا الوحي من تمام المفعول .

والوحي : الكلام الخفي ، كالوسوسة ، وأريد به ما يشمل إلقاء الوسوسة في النفس من حديث يُزور في صورة الكلام .

والبعض الموحى : هو شياطين الجن ، يلقون خواطر المقدره على تعليم الشر إلى شياطين الإنس ، فيكونون زعماء لأهل الشر والفساد .

والزُخرف : الزينة ، وسمي الذهب زُخرفاً لأنه يتزين به حلياً ، وإضافة الزخرف إلى القول من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي القول الزُخرف : أي المُزخرف ، وهو من الوصف بالجماد الذي في معنى المشتق ، إذ كان بمعنى الزين . وأفهم وصف القول بالزُخرف أنه محتاج إلى التحسين والزخرفة ، وإنما يحتاج القول إلى ذلك إذا كان غير مشتمل على ما يكسبه القبول في حد ذاته ، وذلك أنه كان يفضي إلى ضرر يحتاج قائله إلى تزيينه وتحسينه لإخفاء ما فيه من الضرر ، خشية أن ينفر عنه من يسوله لهم ، فذلك التزيين ترويح يستهوون به النفوس ، كما تموه للصبيان اللعيب بالألوان والتذهيب .

وانتصب «زُخرف القول» على النيابة عن المفعول المطلق من فعل «يُوحى» لأن إضافة الزُخرف إلى القول ، الذي هو من نوع الوحي ، تجعل «زخرف» نائباً عن المصدر المبيّن لنوع الوحي .

والغرور : الخداع والإطماع بالنفع لقصد الإضرار ، وقد تقدم عند قوله تعالى : « لا يفرنك قلب الذين كفروا في البلاد » في سورة آل عمران .

وانتصب «غرورا» على المفعول لأجله لفعل «يُوحى» ، أي يوحون زخرف القول ليغرّوهم .

والقول في معنى المشيئة من قوله : « ولو شاء ربك ما فعلوه » كالقول في « ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله » وقوله : « ولو شاء الله ما أشركوا » والجملة معترضة بين المفعول لأجله وبين المعطوف عليه .

والضمير المنصوب في قوله « فعلوه » عائد إلى الوحي . المأخوذ من « يوحى » أو إلى الإشراف المتقدم في قوله : « ولو شاء الله ما أشركوا » أو إلى العداوة المأخوذة من قوله : « لكل نبيء عدوا » .

والضمير المرفوع عائد إلى « شياطين الإنس والجن » ، أو إلى المشركين ، أو إلى العدو ، وفرع عليه أمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بتركهم واقتراءهم ، وهو ترك إغراض عن الاهتمام بغرورهم ، والتكدي منه ، لا إغراض عن عظمهم ودعوتهم ، كما تقدم في قوله : « وأعرض عن المشركين » . والواو بمعنى مع .

« وما يفترون » موصول منصوب على المفعول معه . وما يفترونه هو أكاذيبهم الباطلة من زعمهم إلهية الأصنام ، وما يتبع ذلك من المعتقدات الباطلة .

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾ [413]

عطف قوله : « ولتصغى » على « غرورا » لأن « غرورا » في معنى ليغروهم . واللام لام كي وما بعدها في تأويل مصدر ، أي ولصغى ، أي ميل قلوبهم إلى وحيهم . فتقوم عليهم الحجة .

ومعنى « تصغى » تميل ، يقال : صَغَى بِصَغْيٍ صَغِيَا ، وَيَصْغُو صَغْوًا - بالياء وبالواو - ووردت الآية على اعتباره - بالياء - لأنه رسم في المصحف بصورة الياء. وحقيقته الميل الحسى ؛ يقال : صَغَى ، أى مال ، وأصغى أمال . وفي حديث الهرة : أنه أصغى إليها الإناء ، ومنه أطلق : أصغى بمعنى استمع ، لأن أصله أمال سمعه أو أذنه ، ثم حذفوا المفعول لكثرة الاستعمال . وهو هنا مجاز في الاتباع وقبول القول .

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ هُمُ الْمُشْرِكُونَ . وخص من صفات المشركين عدم إيمانهم بالآخرة ، فعرفوا بهذه الصلة للإيماء إلى بعض آثار وحي الشياطين لهم . وهذا الوصف أكبر ما أضربهم ، إذ كانوا بسببه لا يتوحدون فيما يصنعون خشية العقابة وطلب الخير ، بل يتبعون أهواءهم وما يزين لهم من شهواتهم ، معرضين عما في خلال ذلك من المفسد والكفر ، إذ لا يترقبون جزاء عن الخير والشر ، فلذلك تصغى عقولهم إلى غرور الشياطين . ولا تصغى إلى دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - والصالحين .

وعطف « وَلْيَرْضَوْهُ » على « وَلْيَتَصَغَى » ، وإن كان الصغى يقتضى الرضى ويسببه ، فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء وأن لا تكرر لام التعليل ، فحولف مقتضى الظاهر . للدلالة على استقلاله بالتعليل ، فعطف بالواو وأعيدت اللام لتأكيد الاستقلال . فبدل على أن صغى أفندتهم إليه ما كان يكفي لعملهم به إلا لأنهم رَضَوْهُ .

وعطف « وَلْيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ » على « وَلْيَرْضَوْهُ » كعطف « وَلْيَرْضَوْهُ » على « وَلْيَتَصَغَى » .

والاقتراف افتعال من قرف إذا كسب سيئة ، قال تعالى بعد هذه الآية : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ » فذكر هناك « لِيَكْسِبُونَ » مفعولا لأن الكسب يعم الخير والشر ، ولم يذكر هنا

لـ « يقترفون » مفعولا لأنه لا يكون إلا اكتساب الشرّ، ولم يقل : سيجزّون بما كانوا يكسبون لقصد تأكيد معنى الإثم .

يقال : قرف واقترف وقارف. وصيغة الافتعال وصيغة المفاعلة فيه للمبالغة ، وهذه المادة تؤذن بأمر ذميم . وحكوا أنه يقال : قرف فلان لعياله ، أي كسب . ولا أحسبه صحيحا .

وجيء في صلة الموصول بالجملة الاسمية في قوله « لهم مقترفون » للدلالة على تمكّنهم في ذلك الاقتراف وثباتهم فيه .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ وَمَنْزَلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَ تُكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [١١٤]

استئناف بخطاب من الله تعالى إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - بتقدير الامر بالقول بقرينة السياق كما في قوله تعالى : « لا نفرق بين أحد من رسله » أي يقولون. وقوله المتقدم آنفا « قد جاءكم بصائر من ربكم » بعد أن أخبره عن تصاريّف عناد المشركين . وتكذيبهم . وتعنّتهم في طلب الآيات الخوارق. إذ جعلوها حكما بينهم وبين الرسول - عليه الصلاة والسلام - في صدق دعوته. وبعد أن فضحهم الله بعداوتهم لرسوله - عليه الصلاة والسلام -، واقترائهم عليه . وأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالإعراض عنهم وتركهم وما يفترون، وأعلمه بأنّه ما كلّفه أن يكون وكيلا لإيمانهم : وبأنّهم سيرجعون إلى ربّهم فينبئهم بما كانوا يعملون : بعد ذلك كلّه لقن الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يخاطبهم خطابا كالجواب عن أقوالهم وتوراتهم ، فيفرّع عليها أنّه لا يطلب حاكما بينه وبينهم غير الله تعالى ، الذي إليه مرجعهم،

وَأَنَّهُمْ إِن طَمَعُوا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْهُ فَقَدْ طَمَعُوا مُنْكَرًا ، فَتَقْدِيرُ الْقَوْلِ مُتَعَيِّنٌ لِأَنَّ الْكَلَامَ لَا يَنَاسِبُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - .

والفاء لتفريع الجواب عن مجموع أقوالهم ومقترحاتهم ، فهو من عطف التلقين بالفاء ، كما جاء بالواو في قوله تعالى : « قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي » ، ومنه بالفاء قوله في سورة الزمر « قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ » . فكأنَّ المشركين دعوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى التَّحَاكُمِ فِي شَأْنِ نُبُوَّتِهِ بِحُكْمِ مَا اقْتَرَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ ، فَأَجَابَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَضَعُ دِينَ اللَّهِ لِلتَّحَاكُمِ ، وَلِذَلِكَ وَقَعَ الْإِنْكَارُ أَنْ يَحْكُمَ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى ، مَعَ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ ظَاهِرٌ بِإِنْزَالِ الْكِتَابِ مَفْصَلًا بِالْحَقِّ . وبشهادة أهل الكتاب في نفوسهم . ومن موجبات التقديم كون المقدم يتضمن جواباً لردِّ طلب طلبه المخاطب ، كما أشار إليه صاحب الكشاف في قوله تعالى : « قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا » فِي هَذِهِ السُّورَةِ .

والهمزة للاستفهام الإنكاري : أَى إِن ظَنَنْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَنَنْتُمْ مُنْكَرًا .

وتقديم « أَغْيِرَ اللَّهُ » عَلَى « أَتَبْغِي » لِأَنَّ الْمَفْعُولَ هُوَ مَحَلُّ الْإِنْكَارِ . فَهُوَ الْحَقِيقُ بِمَوَالَاةِ هَمْزَةِ الاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أَتَتَّخِذُ وَلِيًّا » فِي هَذِهِ السُّورَةِ .

وَالْحُكْمُ : الْحَاكِمُ الْمُتَخَصَّصُ بِالْحُكْمِ الَّذِي لَا يَنْقُضُ حُكْمَهُ ، فَهُوَ أَخْصَرُ مِنَ الْحَاكِمِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى : الْحَكَمُ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا : الْحَاكِمُ . وَانْتَصَبَ « حَكَمًا » عَلَى الْحَالِ .

وَالْمَعْنَى : لَا أَطْلُبُ حَكَمًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ غَيْرَ اللَّهِ الَّذِي حُكْمُ حُكْمِهِ عَلَيْكُمْ بِأَنَّكُمْ أَعْدَاءُ مُقْتَرِفُونَ .

وتقدّم الكلام على الابتغاء عند قوله تعالى : « أفغير دين الله تبغون » في سورة آل عمران .

وقوله : « وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً » من تمام القول المأمور به . والواو للحال أي لا أعدل عن التحاكم إليه . وقد فصل حكمه بإنزال القرآن إليكم لتدبروه فتعلموا منه صدقي ، وأنّ القرآن من عند الله . وقد صيغت جملة الحال على الاسميّة المعرفة الجزأين لتفسيّد القصر مع إفادة أصل الخبر . فالمعنى : والحال أنّه أنزل إليكم الكتاب ولم ينزله غيره ، ونكتة ذلك أنّ في القرآن دلالة على أنّه من عند الله بما فيه من الإعجاز ، وبأُميّة المنزل عليه . وأنّ فيه دلالة على صدق الرسول - عليه الصلّاة والسّلام - تبعاً لثبوت كونه منزلاً من عند الله ، فإنّه قد أخبر أنّه أرسل محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - للنّاس كافّة ، وفي تضايف حجج القرآن وأخباره دلالة على صدق من جاء به : فحصل بصوغ جملة الحال على صيغة القصر الدّلالة على الامرين : أنّه من عند الله ، والحكم للرسول - عليه الصلّاة والسّلام - بالصدق .

والمراد بالكتاب القرآن ، والتعريف للعهد الحضوري ، والضمير في « إليكم » خطاب للمشرّكين . فلنّ القرآن أنزل إلى النّاس كلّهم للاهتداء به ، فكما قال الله : « بما أنزل إليك أنزله بعلمه » قال : « يأيّها النّاس قد جاءكم برّهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » . وفي قوله : « إليكم » هنا تسجيل عليهم بأنّه قد بلغهم فلا يستطيعون تجاهلاً .

والمفصلّ المبين . وقد تقدّم ذكر التفصيل عند قوله تعالى : « وكذلك نفصلّ الآيات ولتستبين سبيل المجرمين » في هذه السّورة .

وجملة « واللّذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنّه مُنزل » معطوفة على القول المحذوف ، فتكون استثناءً مثله ، أو معطوفة على جملة « أفغير الله أبتغي » أو على

جملة « وهو الذي أنزل إليكم الكتاب » ، فهو عطف تلقين عطف به الكلام المنسوب الى الله على الكلام المنسوب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - تعظيذا لما اشتمل عليه الكلام المنسوب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - من كون القرآن حقاً ، وأنه من عند الله .

والمراد بالذين آتاهم الله الكتاب : أحرار اليهود ، لأن الكتاب هو التوراة المعروف عند عامة العرب . وخاصة أهل مكة ، لتردد اليهود عليها في التجارة . ولتردد أهل مكة على منازل اليهود بيثرب وقراها . ولكون المقصود بهذا الحكم أحرار اليهود خاصة قال : « آتيناهم الكتاب » ولم يقل : أهل الكتاب .

ومعنى علم الذين أوتوا الكتاب بأن القرآن منزل من الله : أنهم يجدونه مصدقاً لما في كتابهم ، وهم يعلمون أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لم يدرس كتابهم على أحد منهم ، إذ لو درسه لشاع أمره بينهم : ولأعلنوا ذلك بين الناس حين ظهور دعوته : وهم أحرص على ذلك ، ولم يدعوه . وعلمهم بذلك لا يقتضي إسلامهم لأن العناد والحسد يصدانهم عن ذلك . وقيل : المراد بالذين آتاهم الله الكتاب : من أسلموا من أحرار اليهود . مثل عبد الله بن سلام . ومُخَيَّرِيق . فيكون الموصول في قوله : « والذين آتيناهم الكتاب » للعهد . وعن عطاء : « والذين آتيناهم الكتاب » . هم رؤساء أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - : أبو بكر ، وعمر . وعثمان ، وعلي . فيكون الكتاب هو القرآن .

وضمير « أنه » عائد إلى الكتاب الذي في قوله « وهو الذي أنزل إليكم الكتاب » وهو القرآن .

والباء في قوله « بالحق » للملابسة . أي ملابساً للحق ، وهي ملابسة الدال للمدلول . لأن معانيه ، وأخباره . ووعدته . ووعيده . وكل ما اشتمل عليه ، حق .

وقرأ الجمهور « مُنْزَلٌ » - بتخفيف الزاي - . وقرأ ابن عامر وحفص - بالتشديد - والمعنى متقارب أو متحد ، كما تقدم في قوله تعالى : « نزل عليك الكتاب بالحق » في أول سورة آل عمران .

والخطاب في قوله « فلا تكوننّ من الممترين » يحتمل أن يكون خطاباً للنبي - صلى الله عليه وسلم - فيكون التفرّيع على قوله : « يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » أي فلا تكن من الممترين في أنهم يعلمون ذلك ، والمقصود تأكيد الخبر كقول القائل بعد الخبر : هذا ما لا شك فيه ، فالامتراء المنفي هو الامتراء في أن أهل الكتاب يعلمون ذلك ، لأن غريباً اجتماع علمهم وكفرهم به . ويجوز أن يكون خطاباً لغير معين ، ليعم كل من يحتاج إلى مثل هذا الخطاب ، أي فلا تكوننّ - أيها السامع - من الممترين . أي الشاكين في كون القرآن من عند الله . فيكون التفرّيع على قوله : « مُنْزَلٌ من ربك بالحق » أي فهذا أمر قد اتضح ، فلا تكن من الممترين فيه . ويحتمل أن يكون المخاطب الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، والمقصود من الكلام المشركون الممترون . على طريقة التعريض ، كما يقال : (إياك أعني واسمعي يا جاره) . ومنه قوله تعالى « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك » . وهذا الوجه هو أحسن الوجوه ، والتفرّيع فيه كما في الوجه الثاني .

وعلى كل الوجه كان حذف متعلق الامتراء لظهوره من المقام تعويلاً على القرينة . وإذ قد كانت هذه الوجوه الثلاثة غير متعارضة ، صح أن يكون جميعها مقصوداً من الآية . لتذهب أفهام السامعين إلى ما تتوصل إليه منها . وهذا - فيما أرى - من مقاصد إيجاز القرآن وهو معنى الكلام الجامع ، ويجيء مثله في آيات كثيرة ، وهو من خصائص القرآن .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [115]

هذه الجملة معطوفة على جملة : « أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا » لأنّ تلك الجملة مقولٌ قولٌ مقدرٌ ، إذ التقدير : قل أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا باعتبار ما في تلك الجملة من قوله : « وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا » فلمّا وصف الكتاب بأنّه منزلٌ من الله ، ووصف بوضوح الدلالة بقوله : « وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا » ثمّ بشهادة علماء أهل الكتاب بأنّه من عند الله بقوله : « وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَنزَلٌ مِن رَّبِّكَ » ، أعلم رسوله - عليه الصلاة والسلام - والمؤمنين بأنّ هذا الكتاب تامّ الدلالة ، ناهض الحجة ، على كلّ فريق : من مؤمن وكافر ، صادق وعدّه ووعيده ، عادل أمره ونهيه . ويجوز أن تكون معطوفة على جملة : « جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا » وما بينهما اعتراض ، كما سنبينه .

والمراد بالتمام معنى مجازي : إمّا بمعنى بلوغ الشيء إلى أحسن ما يبلغه ممّا يراد منه ، فإنّ التّمام حقيقته كون الشيء وافرا أجزاءه ، والنقصان كونه فاقدا بعض أجزائه ، فيستعار لوفرة الصفات التي تراد من نوعه ؛ وإمّا بمعنى التّحقّق فقد يطلق التّمام على حصول المتظر وتحقّقه ، يقال : تمّ ما أخبر به فلان ، ويقال : أتمّ وعده ، أي حقّقه ، ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » أي عمل بهنّ دون تقصير ولا ترخّص ، وقوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا » أي ظهر وعده لهم بقوله : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ » الآية ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : « وَاللَّهُ مَتَمِّ نُورِهِ » أي محقّق دينه ومثبتّه ، لأنّه جعل الإتمام في مقابلة الإطفاء المستعمل في الإزالة مجازا أيضا .

وقوله « كَلِمَاتٍ رَبِّكَ » قرأه الجمهور - بصيغة الجمع - وقرأه عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف : كَلِمَةً - بالإنفراد - فقليل : المراد بالكلمات أو الكلمة القرآن ، وهو قول جمهور المفسّرين

ونقل عن قتادة ، وهو الأظهر ، المناسب لجعل الجملة معطوفة على جملة : « والَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » . فأما على قراءة الأفراد في إطلاق الكلمة على القرآن باعتبار أنه كتاب من عند الله ، فهو من كلامه وقوله . والكلمة والكلام يترادفان ، ويقول العربُ : كلمة زهير ، يعنون قصيدته ، وقد أطلق في القرآن (الكلمات) على الكتب السماوية في قوله تعالى : « فَاٰمَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الْاُمِّيَّ الَّذِي يٰؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَكَلِمَاتِهِ » أي كتبه . وأما على قراءة الكلمات بالجمع في إطلاقها على القرآن باعتبار ما يشتمل عليه من الجمل والآيات ، أو باعتبار أنواع أغراضه من أمر ، ونهي ، وتبشير ، وإنذار ، ومواعظ ، وإخبار ، واحتجاج ، وإرشاد ، وغير ذلك . ومعنى تمامها أن كل غرض جاء في القرآن فقد جاء وافيا بما يتطلبه القاصد منه . واستبعد ابن عطية أن يكون المراد من « كلمات ربك » - بالجمع أو الأفراد - القرآن واستظهر أن المراد منها : قول الله ، أي نفذ قوله وحكمه . وقريب منه ما أثر عن ابن عباس أنه قال : كلمات الله وعده . وقيل : كلمات الله : أمره ونهيه ، ووعدته ، ووعيده ، وفسر به في الكشاف ، وهو قريب من كلام ابن عطية ، لكن السياق يشهد بأن تفسير الكلمات بالقرآن أظهر .

وانتصب « صدقا وعدلا » على الحال ، عند أبي علي الفارسي ، بتأويل المصدر باسم الفاعل ، أي صادقة وعادلة ، فهو حال من « كلمات » وهو المناسب لكون التمام بمعنى التحقق . وجعلهما الطبري منصوبين على التمييز ، أي تمييز النسبة ، أي تمت من جهة الصدق والعدل ، فكأنه قال : تم صدقها وعدلها ، وهو المناسب لكون التمام بمعنى بلوغ الشيء أحسن ما يطلب من نوعه . وقال ابن عطية : هذا غير صواب . وقلت : لا وجه لعدم تصويبه .

والصدق : المطابقة للواقع في الإخبار ، وتحقيق الخبر في الوعد والوعيد ، والنفوذ في الأمر والنهي ، فيشمل الصدق كل ما في كلمات الله من نوع الإخبار عن شؤون الله وشؤون الخلائق .

ويطلق الصّدق مجازاً على كون الشيء كاملاً في خصائص نوعه .
والعدل : إعطاء من يستحقّ ما يستحقّ ، ودفع الاعتداء والظلم على المظلوم ، وتدبير أمور النّاس بما فيه صلاحهم . وتقدم بيانه عند قوله تعالى : « وإذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل » في سورة النّساء .
فيشمل العدل كلّ ما في كلمات الله : من تدبير شؤون الخلائق في الدّنيا والآخرة .

فعلى التفسير الأوّل للكلمات أو الكلمة ، يكون المعنى : أن القرآن بلغ أقصى ما تبلغه الكتب : في وضوح الدلالة ، وبلاغة العبارة ؛ وأنه الصّادق في أخباره ، العادل في أحكامه ، لا يُعثر في أخباره على ما يخالف الواقع ، ولا في أحكامه على ما يخالف الحقّ ؛ فذلك ضرب من التحدّي والاحتجاج على أحقيّة القرآن . وعلى التفسيرين الثّاني والثالث ، يكون المعنى : نفذ ما قاله الله ، وما وعدّ وأوعّد ، وما أمر ونهى ، صادقاً ذلك كلّهُ ، أي غير متخلف ، وعادلاً ، أي غير جائر . وهذا تهديد للمشرّكين بأنّ سيحقّ عليهم الوعيد ، الذي توعّدهم به ، فيكون كقوله تعالى « وتمّت كلمة ربّك الحسنی على بني إسرائيل بما صبروا » أي تمّ ما وعدهم به من امتلاك مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها ، وقوله : « وكذلك حقّت كلمات ربّك على الذين كفروا أنّهم أصحاب النار » أي حقّت كلمات وعيده . ومعنى : « لا مبدّل لكلماته » نفی جنس من يبدّل كلمات الله ، أي من يبطل ما أَراده في كلماته .

والتبديل تقدّم عند قوله تعالى : « قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » من سورة البقرة ، وتقدّم هناك بيان أنّه لا يوجد له فعل مجرد ، وأنّ أصل مادّته هو التبديل . والتبديل حقيقة جعل شيء مكان شيء آخر ، فيكون في الذّوات كما قال تعالى : « يوم تُبدّل الأرض غير الأرض » . وقال النّابغة :

عهدتُ بها حيًّا كراما فبدلت خناظيل آجالِ النَّعَاجِ الجَوَافِلِ
ويكون في الصفات كقوله تعالى : « وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنا » .
ويستعمل مجازا في إبطال الشيء ونقضه ، قال تعالى : « يريدون أن
يبدلوا كلام الله » أي يخالفوه وينقضوا ما اقتضاه ، وهو قوله « قل لن
تبعوننا كذلكم قال الله من قبل » . وذلك أن النقض يستلزم الإتيان بشيء
ضدَّ الشيء المنقوض . فكان ذلك اللزوم هو علاقة المجاز . وقد تقدّم عند
قوله تعالى : « فمن بدله بعد ما سمعه » في سورة البقرة . وقد استعمل
في قوله : « لا مبدل لكلماته » مجازا في معنى المعارضة أو النقض على
الاحتمالين في معنى التمام من قوله : « وتمَّت كلمات ربك » . ونفي
المبدل كناية عن نفي التبديل .

فإن كان المراد بالكلمات القرآن . كما تقدّم . فمعنى انتفاء المبدل
لكلماته : انتفاء الإتيان بما ينقضه ويبطله أو يعارضه ، بأن يُظهر أن
فيه ما ليس بتمام . فإن جاء أحد بما ينقضه كذبا وزورا فليس ذلك
بنقض . وإنما هو مكابرة في صورة النقض ، بالنسبة إلى ألفاظ القرآن
ونظمه . وانتفاء ما يبطل معانيه وحقائق حكمته ، وانتفاء تغيير ما شرعه
وحكم به . وهذا الانتفاء الأخير كناية عن النهي عن أن يخالفه المسلمون .
وبذلك يكون التبديل مستعملا في حقيقته ومجازه وكنايته .

ويجوز أن تكون جملة : « وتمَّت كلمات ربك » عطفًا على جملة :
« جعلنا لكل نبيّ عدوا » وما بينهما اعتراضا ، فالكلمات مراد بها ما
سنّه الله وقدره : من جعل أعداء لكل نبيّ يزخرفون القول في التّضليل ،
لتضغى إليهم قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويتبعوهم ، ويقتربوا
السيئات . وأن المراد بالتمام التّحقّق . ويكون قوله : « لا مبدل لكلماته »
نفيّ أن يقدر أحد أن يغيّر سنّة الله وما قضاه وقدره ، كقوله : « فلن

تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » فتكون هذه الآية في معنى قوله : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله » . ففيها تأنيس للرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وتطمين له وللمؤمنين بحلول النصر الموعود به في إبانه .

وقوله : « وهو السميع العليم » تذييل لجملة : « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » أي : وهو المطلع على الأقوال ، العليم بما في الضمائر ، وهذا تعريض بالوعيد لمن يسعى لتبديل كلماته ، فالسميع العالم بأصوات المخلوقات ، التي منها ما توحى به شياطين الإنس والجن ، بعضهم إلى بعض ، فلا يفوته منها شيء ؛ والعالم أيضا بمن يريد أن يبدل كلمات الله ، على المعاني المتقدمة ، فلا يخفى عليه ما يخوضون فيه : من تبسيت الكيد والإبطال له .

والعليم أعم ، أي : العليم بأحوال الخلق ، والعليم بمواقع كلماته ، ومحال تمامها ، والمنظم بحكمته لتمامها ، والموقت لآجال وقوعها .

فذكر هاتين الصفتين هنا : وعيد لمن شملته آيات الذم السابقة ، ووعد لمن أُمِر بالإعراض عنهم وعن افتراءهم ، وبالتحاكم معهم إلى الله ، والذين يعلمون أن الله أنزل كتابه بالحق .

﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ يَسْبِعُونَ إِلَّا الْظَنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [116]

أُعقِب ذكرُ عناد المشركين، وعداوتهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وولايتههم للشياطين، ورضاهم بما توسوس لهم شياطين الجن والإنس، واقترافهم السيئات طاعة

لأوليائهم ، وما طمأن به قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أنه لقي سنة الأنبياء قبله من آثار عداوة شياطين الإنس والجن ، بذكر ما يهون على الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين ما يروونه من كثرة المشركين وعزتهم ، ومن قلة المسلمين وضعفهم ، مع تحذيرهم من الثقة بقولهم ، والإرشاد إلى مخالفتهم في سائر أحوالهم ، وعدم الإصغاء إلى رأيهم ، لأنهم يضلون عن سبيل الله ، وأمرهم بأن يلزموا ما يرشدهم الله إليه . فجملة : « وإن تطع » متصلة بجملة : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن » وبجملة : « أغير الله أبغي حكما » وما بعدها إلى : « وهو السميع العليم » .

والخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، والمقصود به المسلمون مثل قوله تعالى : « لئن أشركت ليحبطن عملك » .

وجيء مع فعل الشرط بحرف (إن) الذي الأصل فيه أن يكون في الشرط النادر الوقوع ، أو الممتنع إذا كان ذكره على سبيل الفرض كما يفرض المحال ، والظاهر أن المشركين لما أسوا من ارتداد المسلمين ، كما أنبأ بذلك قوله تعالى : « قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا » الآية ، جعلوا يلقبون على المسلمين الشبه والشكوك في أحكام دينهم ، كما أشار إليه قوله تعالى عقب هذا : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » . وقد روى الطبري عن ابن عباس ، وعكرمة : أن المشركين قالوا : « يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها (يريدون أكل الشاة إذا ماتت حتف أنفها دون ذبح) - قال - الله قتلها - فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الكلب والصقر حلال وما قتله الله حرام » فوقع في نفس ناس من المسلمين من ذلك شيء » وفي سنن الترمذي ، عن ابن عباس : قال : « أتى أناس النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يا رسول الله أأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله »

فأنزل الله : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » الآية . قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . فمن هذا ونحوه حذر الله المسلمين من هؤلاء ، وثبتهم على أنهم على الحق ، وإن كانوا قليلا . كما تقدم في قوله « قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

والطاعة : اسم للطَّوع الذي هو مصدر طاع يطوع ، بمعنى انقاد وفعل ما يؤمر به عن رضى دون ممانعة ، فالطاعة ضد الكره . ويقال : طاع وأطاع ، وتستعمل مجازا في قبول القول ، ومنه ما جاء في الحديث : « فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة أموالهم » ، ومنه قوله تعالى : « ولا شفيع يُطاع » أي يُقبل قوله ، وإلا فلن المشفوع إليه أرفع من الشفيع فليس المعنى أنه يمثل إليه . والطاعة هنا مستعملة في هذا المعنى المجازي وهو قبول القول .

و « أكثر من في الأرض » هم أكثر سكان الأرض .

والأرض : يطلق على جميع الكرة الأرضية التي يعيش على وجهها الإنسان والحيوان والنبات ، وهي الدنيا كلها . ويطلق الأرض على جزء من الكرة الأرضية معهود بين المخاطبين وهو إطلاق شائع كما في قوله تعالى : « وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض » يعني الأرض المقدسة ، وقوله : « أو ينقوا من الأرض » أي الأرض التي حاربوا الله فيها . والأظهر أن المراد في الآية المعنى المشهور وهو جميع الكرة الأرضية كما هو غالب استعمالها في القرآن . وقيل : أريد بها مكة لأنها الأرض المعهودة للرسول - عليه الصلاة والسلام - . وأيا ما كان فأكثر من في الأرض ضالون مضلون : أما الكرة الأرضية فلأن جمهرة سكانها أهل عقائد ضالة ، وقوانين غير عادلة .

فأهل العقائد الفاسدة : في أمر الإلهية : كالمجوس ، والمشركين ، وعبداء الأوثان ، وعبداء الكواكب ، والقائلين بتعدد الإله ؛ وفي أمر النبوة : كاليهود والنصارى ؛

وأهلُ القوانين الجائرة من الجميع . وكلّهم إذا أطيع إنّما يدعوا إلى دينه ونحلته ، فهو مُضِلٌّ عن سبيل الله ، وهم متفاوتون في هذا الضلال كثرة وقلة ، واتباع شرائعهم لا يخلو من ضلال وإن كان في بعضها بعض من الصواب . والقليل من الناس من هم أهل هدى ، وهم يومئذ المسلمون ، ومن لم تبلغهم دعوة الإسلام من الموحدين الصالحين في مشارق الأرض ومغاربها الطالبين للحق .

وسبب هذه الأثرية : أن الحق والهدى يحتاج إلى عقول سليمة ، ونفوس فاضلة ، وتأمل في الصالح والضار ، وتقديم الحق على الهوى ، والرشد على الشهوة ، ومحبة الخير للناس ؛ وهذه صفات إذا اختل واحد منها تطرّق الضلال إلى النفس بمقدار ما انثلم من هذه الصفات . واجتماعها في النفوس لا يكون إلاّ عن اعتدال تام في العقل والنفس ، وذلك بتكوين الله وتعليمه ، وهي حالة الرسل والأنبياء ، أو بإلهام إلهي كما كان أهل الحق من حكماء اليونان وغيرهم من أصحاب المكاشفات وأصحاب الحكمة الإشرافية وقد يسمونها الذوق . أو عن اقتداء بمرشد معصوم كما كان عليه أصحاب الرسل والأنبياء وخيرة أممهم ؛ فلا جرم كان أكثر من في الأرض ضالّين وكان المهتدون قلة ، فمن اتبعهم أضلّوه .

والآية لم تقتض أن أكثر أهل الأرض مُضِلّون ، لأنّ معظم أهل الأرض غير متصدّين لإضلال الناس ، بل هم في ضلالهم قانعون بأنفسهم ، مقبلون على شأنهم ؛ وإنّما اقتضت أن أكثرهم ، إن قبيل المسلم قولهم ، لم يقولوا له إلاّ ما هو تضليل ، لأنّهم لا يلقون عليه إلاّ ضلالهم . فالآية تقتضي أن أكثر أهل الأرض ضالّون بطريق الالتزام لأنّ المهتدي لا يُضِلُّ مُتَّبِعَهُ وكلّ إناء يرشح بما فيه . وفي معنى هذه الآية قوله تعالى في آية سورة العقود : « قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

واعلم أن هذا لا يشمل أهل الخطأ في الاجتهاد من المسلمين ، لأنّ المجتهد

في مسائل الخلاف يتطلب مصادفة الصواب باجتهاده ، بتبّع الأدلة الشرعية ولا يزال يبحث عن معارض اجتهاده ، وإذا استبان له الخطأ رجع عن رأيه ، فليس في طاعته ضلال عن سبيل الله لأنّ من سبيل الله طرق النظر والجدل في التفقّه في الدين .

وقوله : « يُضَلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » تمثيل لحال الدّاعي إلى الكفر والفساد مَنْ يَقْبَلُ قَوْلَهُ ، بحال من يُضَلُّ مستهديه إلى الطريق ، فينت له طريقاً غير الطريق الموصلة ، وهو تمثيل قابل لتوزيع التشبيه : بأنّ يشبه كلّ جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبّه بها ، وإضافة السبيل إلى اسم الله قرينة على الاستعارة ، وسبيل الله هو أدلة الحقّ ، أو هو الحقّ نفسه .

ثمّ بيّن الله سبب ضلالهم وإضلالهم : بأنّهم ما يعتقدون ويدينون إلاّ عقائد ضالّة ، وأدياناً سخيّة ، ظنّوها حقاً لأنّهم لم يستفرغوا مقدرة عقولهم في ترسّم أدلة الحقّ فقال « إنّ يتبعون إلاّ الظنّ » .

والاتباع : مجاز في قبول الفكر لما يقال وما يخطر للفكر : من الآراء والأدلة وتقلّد ذلك . فهذا أتمّ معنى الاتباع ، على أنّ الاتباع يطلق على عمل المرء برأيه كأنّه يتبعه .

والظنّ ، في اصطلاح القرآن ، هو الاعتقاد المخطىء عن غير دليل ، الذي يحسبه صاحبه حقاً وصحيحاً ، قال تعالى : « وما يتبع أكثرهم إلاّ ظنّاً إنّ الظنّ لا يغنى من الحقّ شيئا » ومنه قول النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - : « إناكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث » وليس هو الظنّ الذي اصطلح عليه فقهاؤنا في الأمور التشريعيّة ، فإنّهم أرادوا به العلم الرّاجح في النظر ، مع احتمال الخطأ احتمالاً مرجوحاً ، لتعسر اليقين في الأدلة التّكليفيّة ، لأنّ اليقين فيها : إنّ كان اليقين المراد للحكماء ، فهو متوقف على الدليل المنتهي إلى الضّرورة أو البرهان ، وهما لا يجريان إلاّ في أصول مسائل التّوحيد ، وإنّ

كان بمعنى الإيقان بأنّ الله أمر أو نهى ، فذلك نادر في معظم مسائل التشريع ، عدا ما علم من الدّين بالضرورة أو حصل لصاحبه بالحسّ ، وهو خاصّ بما تلقّاه بعض الصّحابة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - مباشرة ، أو حصل بالتواتر . وهو عزيز الحصول بعد عصر الصّحابة والتابعين ، كما علّم من أصول الفقه .

وجملة : « إن يتبعون إلاّ الظنّ » استئناف بياني ، نشأ عن قوله : « يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » فبيّن سبب ضلالهم : أنّهم اتّبَعُوا الشّبهة ، من غير تأمّل في مفسادها ، فالمراد بالظنّ ظنّ أسلافهم ، كما أشعر به ظاهر قوله : « يتبعون » .

وجملة « وإن هم إلاّ يخرصون » عطف على جملة : « إن يتبعون إلاّ الظنّ » . ووجود حرف العطف يمنع أن تكون هذه الجملة تأكيداً للجملة التي قبلها ، أو تفسيراً لها ، فتعيّن أنّ المراد بهذه الجملة غير المراد بجملة : « إن يتبعون إلاّ الظنّ » .

وقد تردّدت آراء المفسّرين في محمل قوله : « وإن هم إلاّ يخرصون » ؛ ف قيل : يخرصون يكذبون فيما ادّعوا أنّ ما اتّبَعُوهُ يقين ، وقيل : الظنّ ظنّهم أنّ آباءهم على الحقّ . والخرص : تقديرهم أنّفسهم على الحقّ .

والوجه : أنّ محمل الجملة الأولى على ما تلقّوه من أسلافهم ، كما أشعر به قوله « يتبعون » ، وأنّ محمل الجملة الثانية على ما يستنبطونه من الزيادات على ما ترك لهم أسلافهم وعلى شبهاتهم التي يحسبونها أدلّة مفحمة ، كقولهم : « كيف نأكل ما قتلناه وقتله الكلب والصّقر ، ولا نأكل ما قتله الله » كما تقدم آنفاً ، كما أشعر به فعل : « يخرصون » من معنى التّقدير والتأمّل .

والخرص : الظنّ الناشئ عن وجدان في النفس مستند الى تقريب ، ولا يستند الى دليل يشترك العقلاء فيه ، وهو يرادف : الحزر ، والتخمين ، ومنه خرص النخل والكرم ، اي تقدير ما فيه من الثمرة بحسب ما يجده الناظر فيما تعودهُ . وإطلاق الخرص على ظنونهم الباطلة في غاية الرشاقة لأنها ظنون لا دليل عليها غير ما حسن لظانئها . ومن المفسرين وأهل اللغة من فسّر الخرص بالكذب ، وهو تفسير قاصر ، نظر أصحابه إلى حاصل ما يفيد السياق في نحو هذه الآية ، ونحو قوله : « قتل الخراصون » ؛ وليس السياق لوصف أكثر من في الأرض بأنهم كاذبون ، بل لوصفهم بأنهم يأخذون الاعتقاد من الدلائل الوهمية ، فالخرص ما كان غير علم ، قال تعالى : « ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » ، ولو أريد وصفهم بالكذب لكان لفظ (يكذبون) أصح من لفظ (يخرصون) .

واعلم أنّ السياق اقتضى ذم الاستدلال بالخرص ، لأنّه حزر وتخمين لا ينضبط ، ويعارضه ما ورد عن عتاب بن أسيد قال : « أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يخرص العنب كما يخرص التمر » . فأخذ به مالك ، والشافعي ، وحمله على الرخصة تيسيرا على أرباب التّخيل والكروم ليتفعوا بأكل ثمارهم رطبة ، فتؤخذ الزكاة منهم على ما يقدره الخرص ، وكذلك في قسمة الثمار بين الشركاء ، وكذلك في العريّة يشترها المعري من أعراه ، وخالف أبو حنيفة في ذلك وجعل حديث عتاب منسوخا .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [١١٦]

تعليل لقوله : « وإن تطلع أكثر من في الأرض يضلّوك » لأنّ مضمونه التحذير من نزغاتهم وتوقع التضليل منهم وهو يقتضي أنّ المسلمين يريدون الاهتداء ، فليجتنبوا الضالّين ، وليهتدوا بالله الذي يهديهم . وكذلك شأن (إن) إذا جاءت في خبر لا يحتاج لردّ الشك أو الإنكار : أن تفيد تأكيد

الخبر ووصله بالذي قبله ، بحيث تغني غناء فاء التفریع ، وتفيد التعليل . ولما اشتملت الآيات المتقدمة على بيان ضلال الضالين ، وهدى المهتدين ، كان قوله : « إن ربك هو أعلم من يفضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » تذييلا لجميع تلك الأغراض .

وتعريف المسند إليه بالإضافة في قوله : « إن ربك » لتشريف المضاف إليه ، وإظهار أن هدي الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو الهدى ، وأن الذين أخبر عنهم بأنهم مضلون لا حظ لهم في الهدى لأنهم لم يتخذوا الله رباً لهم . وقد قال أبو سفيان يوم أحد : « لَنَّا الْعُزَّى وَلَا عُزَى لَكُمْ - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أجيئوه قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

و « أعلم » اسم تفضيل للدلالة على أن الله لا يعزب عن علمه أحد من الضالين ، ولا أحد من المهتدين ، وأن غير الله قد يعلم بعض المهتدين وبعض المضلين ، ويفوته علم كثير من الفريقين ، وتخفى عليه دخيلة بعض الفريقين .

والضمير في قوله : « هو أعلم » ضمير الفصل ، لإفادة قصر المسند على المسند إليه ، فالأعلمية بالضالين والمهتدين مقصورة على الله تعالى ، لا يشاركه فيها غيره ، ووجه هذا القصر أن الناس لا يشكون في أن علمهم بالضالين والمهتدين علم قاصر ، لأن كل أحد إذا علم بعض أحوال الناس تخفى عليهم أحوال كثير من الناس ، وكلهم يعلم قصور علمه ، ويتحقق أن ثمة من هو أعلم من العالم منهم ، لكن المشركين يحسبون أن الأعلمية وصف لله تعالى ولآلهتهم ، فنفي بالقصر أن يكون أحد يشارك الله في وصف الأعلمية المطلقة .

و (مَنْ) موصولة ، وإعرابها نصب بنزع الخافض وهو الباء ، كما دل عليه وجود الباء في قوله « وهو أعلم بالمهتدين » لأن أفعل التفضيل

لا ينصب بنفسه مفعولا به لضعف شبهه بالفعل ، بل إنَّما يتعدَّى إلى المفعول بالباء أو باللام أو بالياء ، ونصبه المفعول نادر ، وحقه هنا أن يعدَّى بالياء ، فحذفت الباء إيجازاً حذفت ، تعويلا على القرينة . وإنَّما حذف الحرف من الجملة الأولى ، وأظهر في الثانية ، دون العكس ، مع أن شأن القرينة أن تتقدَّم ، لأنَّ أفعال التفضيل يضاف إلى جمع يكون المفضلُّ واحدا منهم ، نحو : هو أعلم العلماء وأكرم الأسخياء ، فلما كان المنصوبان فيهما غير ظاهر عليهما الإعراب ، يلتبس المفعول بالمضاف إليه ، وذلك غير ملتبس في الجملة الأولى ، لأنَّ الصلة فيها دالة على أن المراد أن الله أعلم بهم ، فلا يتوهم أن يكون المعنى : الله أعلم الضالِّين عن سبيله ، أي أعلم عالمٍ منهم ، إذ لا يخطر ببال سماع أن يقال : فلان أعلم الجاهلين ، لأنَّه كلام متناقض ، فإنَّ الضلال جهالة ، ففساد المعنى يكون قرينة على إرادة المعنى المستقيم ، وذلك من أنواع القرينة الحالية ، بخلاف ما لو قال : وهو أعلم المهتدين ، فقد يتوهم السامع أن المراد أن الله أعلم المهتدين ، أي أقوى المهتدين علما ، لأنَّ الاهتداء من العلم . هذا ما لاح لي في نكتة تجريد قوله : « هو أعلم من يضلُّ عن سبيله » من حرف الجر الذي يتعدَّى به « أعلم » .

﴿فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْهُ مُؤْمِنِينَ﴾ [١١٨]

هذا تخلص من حاجة المشركين وبيان ضلالهم ، المذيل بقوله : « إن ربك هو أعلم من يضلُّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . انتقل الكلام من ذلك إلى تبين شرائع هدى للمهتدين ، وإبطال شرائع شرعها المضلون ، تبيينا يزيل التشابه والاختلاط . ولذلك خللت الأحكام المشروعة للمسلمين ، بأضدادها التي كان شرعها المشركون وسلفهم .

وما تُشعر به الفاء من التفريع يقضي باتصال هذه الجملة بالتّي قبلها ، ووجه ذلك : أن قوله تعالى : « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن

سبيل الله» تضمّن إبطال ما ألقاه المشركون من الشبهة على المسلمين : في تحريم الميتة ، إذ قالوا للنبيء - صلى الله عليه وسلم - « نزعنا أن ما قتلت أنت وأصحابك وما قتل الكاب والصقر حلال أكله وأن ما قتل الله حرام » وأن ذلك ممّا شمله قوله تعالى : « وإن هم إلاّ يخرون » ، فلمّا نهى الله عن اتّباعهم ، وسمّى شرائعهم خرسا ، فرّع عليه هنا الأمر بأكل ما ذكر اسم الله عليه ، أي عند قتله ، أي ما نحر أو ذبح وذكر اسم الله عليه ، والنهيّ عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه : ومنه الميتة ، فإنّ الميتة لا يذكر اسم الله عليها ، ولذلك عقبّت هذه الآية بآية : « وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنّكم لمشركون » .

فتبيّن أنّ الفاء للتفريع على معلوم من المراد من الآية السابقة .

والأمر في قوله : « فكلوا » للإباحة . ولمّا لم يكن يخطر ببال أحد أنّ ما ذكر اسم الله عليه يحرم أكله ، لأنّ هذا لم يكن معروفا عند المسلمين ، ولا عند المشركين ، علم أنّ المقصود من الإباحة ليس رفع الحرج ، ولكن بيان ما هو المباح ، وتمييزه عن ضده من الميتة وما ذبح على النصب . والخطاب للمسلمين .

وقوله : « ممّا ذكر اسم الله عليه » دلّ على أنّ الموصول صادق عن الذبيحة ، لأنّ العرب كانوا يذكرون عند الذبح أو النحر اسم المقصود بتلك الذكاة ، يجهرون بذكر اسمه ، ولذلك قيل فيه : أهّل به لغير الله ، أي أعلن . والمعنى كلوا المذكّى ولا تأكلوا الميتة . فما ذكر اسم الله عليه كناية عن المذبح لأنّ التسمية إنّما تكون عند الذبح .

وتعليق فعل الإباحة بما ذكر اسم الله عليه أفهم أنّ غير ما ذكر اسم الله عليه لا يأكله المسلمون ، وهذا الغير يساوي معناه معنى ما ذكر اسم غير الله عليه ، لأنّ عادتهم أن لا يذبحوا ذبيحة إلاّ ذكروا عليها اسم الله ، إن كانت هديا في الحجّ ، أو ذبيحة للكعبة ، وإن كانت قربانا للأصنام

أو للجنّ ذكرُوا عليها اسم المتقرّب إليه . فصار قوله : « فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه » مفيدا للنهي عن أكل ما ذكر اسم غير الله عليه ، والنهي عمّا لم يذكر عليه اسم الله ولا اسم غير الله ، لأنّ ترك ذكر اسم الله بينهم لا يكون إلّا لقصد تجنّب ذكره .

وعلم من ذلك أيضا النهي عن أكل الميتة ونحوها ، ممّا لم تقصد ذكاته ، لأنّ ذكر اسم الله أو اسم غيره إنّما يكون عند إرادة ذبح الحيوان . كما هو معروف لديهم ، فدلّت هذه الجملة على تعيين أكل ما ذكّي دون الميتة ، بناء على عرف المسلمين لأنّ النهي موجه إليهم . وممّا يؤيد ذلك : ما في الكشف ، أنّ الفقهاء تأوّلوا قوله الآتي : « ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه » بأنّه أراد به الميتة ، وبناء على فهم أن يكون قد ذكر اسم الله عليه عند ذكاته دون ما ذكر عليه اسم غير الله ، أخذنا من مقام الإباحة والاقتصار فيه على هذا دون غيره ، وليس في الآية صيغة قصر ، ولا مفهوم مخالفة ، ولكن بعضها من دلالة صريح اللفظ ، وبعضها من سياقه ، وهذه الدلالة الأخيرة من مستنبعات التراكيب المستفادة بالعقل التي لا توصف بحقيقة ولا مجاز . وبهذا يُعلم أن لا علاقة للآية بحكم نسيان التسمية عند الذبح ، فإنّ تلك مسألة أخرى لها أدلّتها وليس من شأن التشريع القرآني التعرّض للأحوال النادرة .

و (على) للاستعلاء المجازي ، تدلّ على شدة اتّصال فعل الذّكر بذات الذّبيحة ، بمعنى أن يذكر اسم الله عليها عند مباشرة الذّبح لا قبله أو بعده .

وقوله : « إن كنتم بآياته مؤمنين » تقييد للاقتصار المفهوم : من فعل الإباحة ، وتعليق المجرور به ، وهو تحريض على التزام ذلك ، وعدم التّساهل فيه ، حتّى جعل من علامات كون فاعله مؤمنا ، وذلك حيث كان شعار أهل الشّرك ذكر اسم غير الله على معظم الذّبائح .

فأما ترك التسمية : فإن كان لقصد تجنب ذكر اسم الله فهو مساوٍ لذكر اسم غير الله ، وإن كان لسهو فحكمه يعرف من أدلة غير هذه الآية، منها قوله تعالى : « ربَّنَا لا تؤاخذنا إن نسينا » وأدلة أخرى من كلام النبيء - صلى الله عليه وسلم - .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾

عطف على قوله : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » . والخطاب للمسلمين .

و (مَّا) للاستفهام . وهو مستعمل في معنى التثني : أي لا يثبت لكم عدم الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، أي كلوا مما ذكر اسم الله عليه . واللام للاختصاص . وهي ظرف مستقر خبر عن (مَّا) ، أي ما استقر لكم .

« وَأَنْ لَا تَأْكُلُوا » مجرور بـ (في) محذوفة . مع (أَنْ) . وهي متعلقة بما في الخبر من معنى الاستقرار . وتقدم بيان مثل هذا التركيب عند قوله تعالى : « قالوا ومالنا أن لا نقاتل في سبيل الله » في سورة البقرة .

ولم يفصح أحد من المفسرين عن وجه عطف هذا على ما قبله ، ولا عن الداعي إلى هذا الخطاب ، سوى ما نقله الخفاجي - في حاشية التفسير - عن لقبة علم الهدى ولعله عنى به الشريف المرتضى : أن سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتخرجون من أكل الطيبات ، نقشفاً وتزهداً آه . ولعله يريد تزهداً عن أكل اللحم . فيكون قوله تعالى : « وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » استطراداً بمناسبة قوله قبله : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » : وهذا يقتضي أن الاستفهام مستعمل في اللوم . ولا أحسب

ما قاله هذا الملقب بعلم الهدى صحيحاً ولا سند له أصلاً . قال الطبري :
 ولا نعلم أحداً من سلف هذه الأمة كفّ عن أكل ما أحلّ الله من الذبائح .
 والوجه عندي أنّ سبب نزول هذه الآية ما تقدّم آنفاً من أنّ المشركين قالوا
 للنبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - وللمسلمين ، لما حرّم الله أكل الميتة :
 « أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتلُ اللهُ » يعنون الميتة ، فوقع في أنفس
 بعض المسلمين شيء ، فأنزل الله « ومالكم أن لا تأكلوا ممّا ذكر اسم الله
 عليه » أي فأنبأهم الله بإبطال قياس المشركين الممّوءة بأنّ الميتة أولى
 بالأكل ممّا قتله الذابح بيده ، فأبدى الله للناس الفرق بين الميتة والمذكّى ،
 بأنّ المذكّى ذكر اسم الله عليه ، والميتة لا يذكر اسم الله عليها ، وهو فارق
 مؤثّر . وأعرض عن حاجة المشركين لأنّ الخطاب مسوق إلى المسلمين لإبطال
 حاجة المشركين فآل الى الرد على المشركين بطريق التعريض . وهو
 من قبيل قوله في الردّ على المشركين ، في قولهم : « إنّما البيعُ مثل الربّا » ،
 إذ قال : « وأحلّ الله البيع وحرّم الربّا » كما تقدّم هنالك ، فيقلب
 معنى الاستفهام في قوله : « ومالكم أن لا تأكلوا » إلى معنى لا يسوّل لكم
 المشركون أكل الميتة ، لأنكم تأكلون ما ذكر اسم الله عليه ، هذا ما
 قالوه وهو تأويل بعيد عن موقع الآية .

وقوله : « وقد فصل لكم ما حرّم عليكم » جملة في موضع الحال
 مبيّنة لما قبلها ، أي لا يصدّكم شيء من كلّ ما أحلّ الله لكم ، لأنّ الله
 قد فصل لكم ما حرّم عليكم فلا تعدوه إلى غيره . فظاهر هذا أنّ الله قد بيّن
 لهم ، من قبيل ، ما حرّمه عليهم من المأكولات ، ففعل ذلك كان
 بوحى غير القرآن ، ولا يصحّ أن يكون المراد ما في آخر هذه السورة من
 قوله : « قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرّماً » الآية ، لأنّ هذه السورة نزلت
 جملة واحدة على الصّحيح ، كما تقدّم في ديباجة تفسيرها ، فذلك ينادي
 أن يكون المتأخّر في التلاوة متقدّماً نزوله ، ولا أن يكون المراد ما في

سورة المائدة من قوله : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ المَيْتَةُ » لأنَّ سورة المائدة مدنيَّة بالاتِّفاق . وسورة الأنعام هذه مكِّيَّة بالاتِّفاق .

وقوله : « إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ » استثناء من عائد الموصول ، وهو الضَّمير المنصوب بـ « حَرَّمَ » ، المحذوف لكثرة الاستعمال ، و (ما) موصولة ، أي إِلَّا الَّذِي اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ ، فَإِنَّ المحرَّمات أنواع استثنى منها ما يضطرَّ إليه من أفرادها فيصير حلالا . فهو استثناء متصل من غير احتياج إلى جعل (ما) في قوله : « ما اضْطُرَّرْتُمْ » مصدرية .

وقرأ نافع ، وحزمة ، والكسائي ، وعاصم ، وأبو جعفر ، وخلف : « وقد فصلَّ » ببناء الفعل للفاعل . وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر بالبناء للمجهول . وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم ، وأبو جعفر : « ما حَرَّمَ » بالبناء للفاعل ، وقرأه الباقون : بالبناء للمجهول . والمعنى في القراءات فيهما واحد .

والاضطرار تقدم بيانه في سورة المائدة .

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيَضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [19]

تحذير من التشبه بالمشركين في تحريم بعض الأنعام على بعض أصناف الناس .

وهو عطف على جملة : « وما لكم أن لا تأكلوا ممَّا ذكر اسم الله عليه » ، ويجوز أن يكون الواو للحال ، فيكون الكلام تعريضا بالتحذر من أن يكونوا من جملة من يضلُّهم أهل الأهواء بغير علم .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ويعقوب : « لَيَضِلُّونَ » - بفتح الياء - على أنهم ضالُّون في أنفسهم ، وقرأه عاصم ،

وحمزة ، والكسائي ، وخلف : - بضم الياء - على معنى أنهم يُضِلُّون الناس ، والمعنى واحد ، لأن الضال من شأنه أن يُضِلَّ غيره ، ولأن المضل لا يكون في الغالب إلا ضالاً ، إلا إذا قصد التفرير بغيره . والمقصود التحذير منهم وذلك حاصل على القراءتين .

والباء في « بأهوائهم » للسببية على القراءتين . والباء في « بغير علم » للملابسة ، أي يضلُّون مُتَقَادِينَ للهوى ، مُلَابِسِينَ لَعَدَمِ العلم .

والمراد بالعلم : الجزم المطابق للواقع عن دليل ، وهذا كقوله تعالى : « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » . ومن هؤلاء قادة المشركين في القديم ، مثل عَمْرُو بن لُحَيٍّ ، أَوَّلٍ من سنَّ لهم عبادة الأصنام وَبَحَّرَ البحيرة وَسَيَّبَ السائبَةَ وَحَمَى الحامي ، وَمَنْ بعده مثل الَّذِينَ قالوا : (ما قتل الله أُولَى بأن نأكله ممّا قتلنا بأيدينا) .

وقوله : « إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمَعْتَدِينَ » تذييل ، وفيه إعلام للرَّسُولِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بتوَعْدِ اللهِ هؤلاء الضالِّين المضلِّين ، فالإخبار بعلم الله بهم كناية عن أخذه إِيَّاهُمْ بالعقوبة وَأَنَّهُ لَا يَفْلِتُهُمْ ، لأنَّ كونه عالماً بهم لَا يُحْتَاجُ إِلَى الإخبار به . وهو وعيد لهم أيضاً ، لأنَّهم يسمعون القرآن وَيُقْرَأُ عَلَيْهِمْ حين الدَّعوة .

وَذِكْرُ الْمُعْتَدِينَ ، عقب ذكر الضالِّين ، قرينة على أنَّهم المراد والآل لم يكن لانتظام الكلام مناسبة ، فكأنَّه قال : إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ وَهُمْ مُعْتَدُونَ ، وَسَمَّاهُمُ اللهُ مُعْتَدِينَ . والاعتداء : الظلم ، لأنَّهم قَتَلُوا الضَّالَّالَ مِنْ دُونِ حُجَّةٍ وَلَا نَظَرٍ . فكانوا مُعْتَدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَمُعْتَدِينَ عَلَى كُلِّ مَنْ دَعَاهُ إِلَى مُوَافَقَتِهِمْ .

وقد أشار هذا إلى أن كل من تكلم في الدين بما لا يعلمه ، أو دعا الناس إلى شيء لا يعلم أنه حق أو باطل ، فهو معتد ظالم لنفسه وللناس ، وكذلك كل من أفتى وليس هو بكفء للإفتاء .

﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾

جملة معترضة ، والواو اعتراضية ، والمعنى : إن أردتم الزهد والتقرب إلى الله فتقربوا إليه بترك الإثم ، لا بترك المباح . وهذا في معنى قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله » الآية .

وتقدم القول على فعل (ذر) عند قوله تعالى : « وذري الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا » . في هذه السورة . والإثم تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى : « قل فيهما إثم كبير » في سورة البقرة .

والتعريف في الإثم : تعريف الاستغراق ، لأنه في المعنى تعريف للظاهر وللباطن منه ، والمقصود من هذين الوصفين تعميم أفراد الإثم لانهيارها في هذين الوصفين ، كما يقال : المشرق والمغرب والبر والبحر ، لقصد استغراق الجهات .

وظاهر الإثم ما يراه الناس ، وباطنه ما لا يطلع عليه الناس ويقع في السر ، وقد استوعب هذا الأمر ترك جميع المعاصي . وقد كان كثير من العرب يراءون الناس بعمل الخير ، فإذا خلوا ارتكبوا الآثام ، وفي بعضهم جاء قوله تعالى : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولَّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد » .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [120]

تعليل للأمر بترك الإثم ، وإنذار وإعذار للمأمورين ، ولذلك أكد الخبر بـ (إن) ، وهي في مثل هذا المقام ، أي مقام تعقيب الأمر أو الإخبار تفيد معنى التعليل ، وتغني عن الفاء ، ومثالها المشهور قول بشار :

إنّ ذاك النّجاح في التّبكير

وإظهار لفظ الإثم في مقام إضماره إذ لم يقل : إنّ الذين يكسبون لزيادة التنديد بالإثم ، وليستقرّ في ذهن السّامع أكمل استقرار ، ولتكون الجملة مستقلة ففسير مسير الأمثال والحكم .

وحرف السّين ، الموضوع للخبر المستقبل ، مستعمل هنا في تحقيق الوقوع واستمراره :

ولمّا جاء في المذنبين فعلٌ يكسبون المتعدي إلى الإثم ، جاء في صلة جزائهم بفعل (يقترفون) ، لأنّ الاعتراف إذا أطلق فالمراد به اكتساب الإثم كما تقدّم آنفاً في قوله تعالى : « وليقترفوا ما هم مقترفون » .

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [121]

جملة : « ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه » معطوفة على جملة : « فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه » .

و (مَا) في قوله : « مَا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ » موصولة ، وما صُديق الموصول هنا : ذُكِّي ، بقرينة السابق الذي ما صدقه ذلك بقرينة المقام . ولَمَّا كانت الآية السابقة قد أفادت لإباحة أكل ما ذكر اسمُ الله عليه ، وأفهمت النهيَ عما لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وهو الميتة ، وتَمَّ الحكم في شأن أكل الميتة والفرقةُ بينها وبين ما ذُكِّيَ وذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، ففي هذه الآية أُفيدَ النهي والتحذير من أكل ما ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ . فمعنى : « لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ » : أَنَّهُ تَرِكَ ذِكْرَ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ قَصْداً وَتَجَنُّباً لَذِكْرِهِ عَلَيْهِ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِقَصْدٍ أَنْ لَا يَكُونَ الذَّبْحُ لِلَّهِ ، وَهُوَ يَسَاوِي كَوْنَهُ لِغَيْرِ اللَّهِ ، إِذْ لَا وَاسِطَةَ عِنْدَهُمْ فِي الذِّكَاةِ بَيْنَ أَنْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ أَوْ يَذْكُرُوا اسْمَ غَيْرِ اللَّهِ ، كَمَا تَقْدَمُ بَيَانُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ : « فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ » . وَمِمَّا يَرْشَحُ أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ قَوْلُهُ هُنَا : « وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » وَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الْآتِيَةِ : « أَوْ فَسَقُوا أَهْلٌ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » ، فَعَلِمَ أَنَّ الْمَوْصُوفَ بِالْفِسْقِ هُنَا : هُوَ الَّذِي وَصَفَ بِهِ هُنَالِكَ ، وَقَدْ هُنَالِكَ بِأَنَّهُ أَهْلٌ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَبِقَرِينَةِ تَعْقِيهِه يَقُولُهُ : « وَإِنْ أَطْعَمْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » لِأَنَّ الشَّرْكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِذِكْرِ أَسْمَاءِ الْأَصْنَامِ عَلَى الْمَذْكُورِ ، وَلَا يَكُونُ بِتَرْكِ التَّسْمِيَةِ .

وَرَبَّمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ فِي تَحْيِلِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي أَمْرِ الذِّكَاةِ يَقْتَتِعُونَ بِأَنْ يَسْأَلُوهُمْ تَرْكَ التَّسْمِيَةِ ، بِحَيْثُ لَا يُسَمُّونَ اللَّهَ وَلَا يُسَمُّونَ لِلْأَصْنَامِ ، فَيَكُونُ الْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ : تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا التَّرْكِ الْمَقْصُودُ بِهِ التَّمْوِيهِ ، وَأَنْ يَسْمَى عَلَى الذَّبَائِحِ غَيْرُ أَسْمَاءِ آلِهَتِهِمْ .

فَإِنْ اعْتَدَدْنَا بِالْمَقْصَدِ وَالسَّبَاقِ ، كَانَ اسْمُ الْمَوْصُولِ مُرَادَاً بِهِ شَيْءٌ مُعَيَّنٌ ، لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَكَانَ حُكْمُهَا قَاصِراً عَلَى ذَلِكَ الْمُعَيَّنِ ، وَلَا تَعَلَّقَ بِهَا مَسْأَلَةٌ وَجُوبِ التَّسْمِيَةِ فِي الذِّكَاةِ ، وَلَا كَوْنُهَا شَرْطاً أَوْ غَيْرَ شَرْطٍ بَلْهُ حُكْمُ نَسْيَانِهَا . وَإِنْ جَعَلْنَا هَذَا الْمَقْصَدَ بِمَنْزِلَةِ سَبَبٍ لِلنَّزُولِ ، وَاعْتَدَدْنَا بِالْمَوْصُولِ صَادِقاً عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، كَانَتْ الْآيَةُ مِنَ الْعَامِّ

الوارد على سبب خاص ، فلا يخص بصورة السبب ، وإلى هذا الاعتبار مال جمهور الفقهاء المختلفين في حكم التسمية على الذبيحة .

وهي مسألة مختلف فيها بين الفقهاء على أقوال أحدها : أن المسلم إن نسي التسمية على الذبح تؤكل ذبيحته ، وإن تعمد ترك التسمية استخفافا أو تجنباً لها لم تؤكل (وهذا مثل ما يفعله بعض الزنوج من المسلمين في تونس وبعض بلاد الإسلام الذين يزعمون أن الجنّ تمتلكهم ، فيتفادون من أضرارها بقرابين يذبحونها للجنّ ولا يسمّون اسم الله عليها ، لأنّهم يزعمون أن الجنّ تنفر من اسم الله تعالى خيفة منه ، وهذا متفشّ بينهم في تونس ومصر) فهذه ذبيحة لا تؤكل . ومستند هؤلاء ظاهر الآية مع تخصيصها أو تقييدها بغير النسيان ، إعمالا لقاعدة رفع حكم النسيان عن الناس . وإنّ تعمد ترك التسمية لا لقصد استخفاف أو تجنب ولكنه تشاقل عنها ، فقال مالك ، في المشهور ، وأبو حنيفة ، وجماعة ، وهو رواية عن أحمد : لا تؤكل . ولا شك أن الجهل كالنسيان . ولعلّهم استدلّوا بالأخذ بالأحوط في احتمال الآية اقتصارا على ظاهر اللفظ دون معونة السياق . الثاني : قال الشافعي ، وجماعة ، ومالك ، في رواية عنه : تؤكل ، وعندي أن دليل هذا القول أن التسمية تكملة للقربة ، والذكاة بعضها قربة وبعضها ليست بقربة ، ولا يبلغ حكم التسمية أن يكون مفسدا للإباحة . وفي الكشف أنّهم تأوّلوا ما لم يذكر اسم الله عليه بأنّه الميتة خاصّة ، وبما ذكر غير اسم الله عليه . وفي أحكام القرآن لابن العربي ، عن إمام الحرمين : ذكر الله إنّما شرع في القرب ، والذبح ليس بقربة . وظاهر أن العامد آثم وأن المستخفّ أشدّ إثمًا . وأمّا تعمد ترك التسمية لأجل إرضاء غير الله فحكمه حكم من سمّى لغير الله تعالى . وقيل : إنّ ترك التسمية عمدا يُكره أكلها ، قاله أبو الحسن بن القصّار ، وأبو بكر الأبهري من المالكية . ولا يعدّ هذا خلافا ، ولكنه بيان لقول مالك في إحدى الروايتين . وقال أشهب ، والطبري :

تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمدا . إذا لم يتركها مستخفاً . وقال عبد الله بن عمر ، وابن سيرين ، ونافع ، وأحمد بن حنبل ، وداود : لا تؤكل إذا لم يسمَ عليها عمداً أو نسياناً ، أخذاً بظاهر الآية ، دون تأمل في المقصد والسياق . وأرجح الأقوال : هو قول الشافعي . والرواية الأخرى عن مالك ، إن تعمّد ترك التسمية تؤكل ، وأن الآية لم يقصد منها إلاّ تحريم ما أهلك به لغير الله بالقرائن الكثيرة التي ذكرناها آنفاً ، وقد يكون تارك التسمية عمداً أثماً ، إلاّ أن إثمه لا يبطل ذكاته كالصلاة في الأرض المغضوبة عند غير أحمد .

وجملة : « وإنه لفسق » معطوفة على جملة « ولا تأكلوا » عطف الخبر على الإنشاء ، على رأي المحققين في جوازه . وهو الحق . لا سيما إذا كان العطف بالواو . وقد أجاز عطف الخبر على الإنشاء بالواو بعض من منعه بغير الواو ، وهو قول أبي عليّ الفارسي . واحتجّ بهذه الآية كما في مغني اللبيب . وقد جعلها الرّازي وجماعة : حالاً ممّا لم يذكر اسم الله عليه ، بناء على منع عطف الخبر على الإنشاء .

والضمير في قوله « وإنه لفسق » يعود على « ممّا لم يذكر اسم الله عليه » . والإخبار عنه بالمصدر وهو « فسق » مبالغة في وصف الفعل ، وهو ذكر اسم غير الله ، بالفسق حتّى تجاوز الفسق صفة الفعل أن صار صفة المفعول فهو من المصدر المراد به اسم المفعول : كالخلق بمعنى المخلوق ، وهذا نظير جعله فسقاً في قوله بعد « أو فسقاً أهلاً لغير الله به » .

والتأكيد بلإن : لزيادة التقرير ، وجعل في الكشف الضمير عائداً إلى الأكل المأخوذ من « لا تأكلوا » ، أي : وإن أكله لفسق .

وقوله : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » عطف على : « وإنه لفسق » ، أي : واحذروا جدل أولياء الشياطين في ذلك ، والمراد

بأولياء الشياطين : المشركون ، وهم المشار إليهم بقوله ، فيما مرّ :
« يُوحى بعضهم إلى بعض » وقد تقدّم بيانه .

والمجادلة المنازعة بالقول للإقناع بالرأي ، وتقدّم بيانها عند
قوله تعالى : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » في سورة النساء .
والمراد هنا بالمجادلة في إبطال أحكام الإسلام وتحبيب الكفر وشعائره ،
مثل قولهم : كيف نأكل ما نقتل بأيدينا ولا نأكل ما قتله الله .

وقوله « وإن أطعتموهم إنَّكم لمشركون » حذف متعلّق « أطعتموهم »
لدلالة المقام عليه ، أي : إن أطعتموهم فيما يجادلونكم فيه ، وهو الطعن
في الإسلام ، والشكّ في صحّة أحكامه . وجملة : « إنَّكم لمشركون » جواب
الشّرط . وتأكيّد الخبر بأنّ لتحقيق التحاقهم بالمشرّكين إذا أطاعوا الشياطين ،
وإن لم يدعوا لله شركاء ، لأنّ تخطئة أحكام الإسلام تساوي الشرك ، فلذلك
احتيج إلى التأكيد ، أو أراد : إنَّكم لصائرون إلى الشرك ، فإنّ الشياطين
تستدرجكم بالمجادلة حتّى يبلغوا بكم إلى الشرك ، فيكون اسم الفاعل مراداً
به الاستقبال .

وليس المعنى : إن أطعتموهم في الإشراك بالله فأشركم بالله إنَّكم
لمشركون ، لأنّه لو كان كذلك لم يكن لتأكيد الخبر سبب ، بل ولا للإخبار
بأنّهم مشركون فائدة .

وجملة : « إنَّكم لمشركون » جواب الشرط ، ولم يفتقرن بالفاء لأنّ
الشّرط إذا كان مضافاً يحسن في جوابه التجريد عن الفاء ، قاله أبو البقاء
العكبري ، وتبعه البيضاوي ، لأنّ تأثير الشّرط الماضي في جزائه ضعيف ،
فكما جاز رفع الجزاء وهو مضارع ، إذا كان شرطه ماضياً ، كذلك جاز
كونه جملة اسميّة غير مقترنة بالفاء . على أنّ كثيراً من محقّقي النحويين
يجيز حذف فاء الجواب في غير الضّرورة ، فقد أجازوه المبرّد وابن مالك

في شرحه على مشكل الجامع الصحيح . وجعل منه قوله - صلى الله عليه وسلم - : « إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة » على رواية إن - بكسر الهمزة - دون رواية - فتح الهمزة - .

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٢٢]

الواو في قوله : « أو من كان ميتا » عاطفة لجملة الاستفهام على جملة : « وإن أظعموهم إنكم لمشركون » لتضمن قوله : « وإن أظعموهم » أن المجادلة . المذكورة من قبل . مجادلة في الدين : بتحسين أحوال أهل الشرك وتقييح أحكام الإسلام التي منها : تحريم الميتة ، وتحريم ما ذكر اسم غير الله عليه . فلما حذر الله المسلمين من دسائس أولياء الشياطين ومجادلتهم بقوله : « وإن أظعموهم إنكم لمشركون » أعقب ذلك بتفطيع حال المشركين ، ووصف حسن حالة المسلمين حين فارقوا الشرك ، فجاء بتمثيلين للحالتين ، ونفى مساواة إحداهما للأخرى : تنبيها على سوء أحوال أهل الشرك وحسن حال أهل الإسلام .

والهمزة للاستفهام المستعمل في إنكار تماثل الحالتين : فالحالة الأولى حالة الذين أسلموا بعد أن كانوا مشركين ، وهي المشبهة بحال من كان ميتا مودعا في ظلمات فصار حيا في نور واضح ، وسار في الطريق الموصلة للمطلوب بين الناس : والحالة الثانية حالة المشرك وهي المشبهة بحالة من هو في الظلمات ليس بخارج منها ، لأنه في ظلمات . وفي الكلام لإيجاز حذف ، في ثلاثة مواضع ، استغناء بالمذكور عن المحذوف : فقوله : « أو من كان ميتا » معناه : أحوال من كان ميتا ، أو صفة من كان ميتا .

وقوله : « وجعلنا له نورا يمشي به في الناس » يدلّ على أنّ المشبّه به حال من كان ميتاً في ظلمات . وقوله : « كَمَنْ مثله في الظلمات » تقديره : كمن مثله مثل ميت فمصدق (مَنْ) ميت بدليل مقابلته بميت في الحالة المشبّهة، فيعلم أنّ جزء الهيئة المشبّهة هو الميت لأنّ المشبّه والمشبّه به سواء في الحالة الأصليّة وهي حالة كون الفريقين مشركين . ولفظ مثل بمعنى حالة . ونفي المشابهة هنا معناه نفي المساواة ، ونفي المساواة كناية عن تفضيل إحدى الحالتين على الأخرى تفضيلاً لا يلتبس ، فذلك معنى نفي المشابهة كقوله : « قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور - وقوله - أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون » .

والكاف في قوله : « كمن مثله في الظلمات » كاف التشبيه ، وهو تشبيه منفي بالاستفهام الإنكاري .

والكلام جار على طريقة تمثيل حال من أسلم وتخلّص من الشرك بحال من كان ميتاً فأُحيى ، وتمثيل حال من هو باق في الشرك بحال ميت باق في قبره .

فضممت جملة : « أو من كان ميتاً » إلى آخرها تمثيل الحالة الأولى ، وجملة : « كمن مثله في الظلمات » الخ تمثيل الحالة الثانية ، فهما حالتان مشبّهتان ، وحالتان مشبّه بهما ، وحصل بذكر كاف التشبيه وهمزة الاستفهام الإنكاري أنّ معنى الكلام نفي المشابهة بين من أسلم وبين من بقي في الشرك . كما حصل من مجموع الجملتين : أنّ في نظم الكلام تشبيهين مركّبين .

ولكنّ وجود كاف التشبيه في قوله : « كمن مثله » مع عدم التصريح بذكر المشبّهين في التركيبين أثاراً شُبّهة : في اعتبار هذين التشبيهين أهما من قبيل التشبيه التمثيلي ، أم من قبيل الاستعارة التمثيلية ؛ فنحا

القطب الرازي في شرح الكشاف القبيل الأول ، ونحا التفتزاني القبيل الثاني .
والأظهر ما نحا التفتزاني : أنهما استعارتان تمثيلتان ، وأما كاف التشبيه
فهو متوجه إلى المشابهة المنفية في مجموع الجملتين لا إلى مشابهة الحالين
بالحالين ، فمورد كاف التشبيه غير مورد تمثيل الحالين . وبين الاعتبارين
بون خفي .

والمراد : بـ « الظلمات » ظلمة القبر لمناسبتها للميت ، وبقرينة ظاهر
(في) من حقيقة الظرفية وظاهر حقيقة فعل الخروج .

ولقد جاء التشبيه بديعا : إذ جعل حال المسلم ، بعد أن صار إلى
الإسلام ، بحال من كان عديم الخير ، عديم الإفادة كالميت ، فإنّ الشرك
يحول دون التمييز بين الحقّ والباطل ، ويصرف صاحبه عن السعي إلى ما فيه
خيرته ونجاته ، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف ، فإذا هداه
الله إلى الإسلام تغير حاله فصار يميز بين الحقّ والباطل ، ويعلم الصالح من
الفاسد ، فصار كالحَيّ وصار يسعى إلى ما فيه الصلاح ، ويتنكبّ عن سبيل
الفساد ، فصار في نور يمشي به في الناس .

وقد تبين بهذا التمثيل تفضيل أهل استقامة العقول على أضدادهم .
وبالباء في قوله : « يمشي به » باء السببية . والناس المصرح به في
الهيئة المشبه بها هم الأحياء الذين لا يخلو عنهم المجتمع الإنساني .

والناس المقدّر في الهيئة المشبهة هم رفقاء المسلم من المسلمين . وقد
جاء المركب التمثيلي تاماً صالحاً لاعتبار تشبيه الهيئة بالهيئة ، ولاعتبار
تشبيه كلّ جزء من أجزاء الهيئة المشبهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبه
بها ، كما قد علمته وذلك أعلى التمثيل .

وجملة : « ليس بخارج منها » حال من الضمير المجرور بإضافة (مثل) ،
أي ظلمات لا يرجى للواقع فيها تنور بنور ما دام في حالة الإشراك .

وجملة : « كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » استئناف بياني، لأن التمثيل المذكور قبلها يثير في نفس السامع سؤالاً ، أن يقول : كيف رضوا لأنفسهم البقاء في هذه الضلالات ، وكيف لم يشعروا بالبون بين حالهم وحال الذين أسلموا ؛ فإذا كانوا قبل مجيء الإسلام في غفلة عن انحطاط حالهم في اعتقادهم وأعمالهم ، فكيف لما دعاهم الإسلام إلى الحق ونصب لهم الأدلة والبراهين بقوا في ضلالهم لم يقلعوا عنه وهم أهل عقول وفطنة فكان حقيقاً بأن يبين له السبب في دوامهم على الضلال ، وهو أن ما عملوه كان تزيينه لهم الشياطين ، هذا التزيين العجيب ، الذي لو أراد أحد تقريبه لم يجد ضلالاً مزيئاً أوضح منه وأعجب فلا يشبه ضلالهم إلا بنفسه على حد قولهم : (والسفاهة كاسمها) .

واسم الإشارة في قوله : « كذلك زين للكافرين » مشار به إلى التزيين المأخوذ من فعل « زين » أي مثل ذلك التزيين للكافرين العجيب كيذا ودقة زين لهؤلاء الكافرين أعمالهم على نحو ما تقدم في قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » في سورة البقرة :

وحذف فاعل التزيين فبني الفعل للمجهول : لأن المقصود وقوع التزيين لا معرفة من أوقعه . والمزين شياطينهم وأولياؤهم ، كقوله : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم » ، ولأن الشياطين من الإنس هم المباشرون للتزيين ، وشياطين الجن هم المسؤولون المزينون . والمراد بالكافرين المشركون الذين الكلام عليهم في الآيات السابقة إلى قوله : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [٤٣]

عطف على جملة : « كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » فلها حكم الاستئناف البياني لبيان سبب آخر من أسباب استمرار المشركين على ضلالهم ، وذلك هو مكر أكابر قريتهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين وصرفهم الحيل لصدّ الدهماء عن متابعة دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . والمشار إليه بقوله « وكذلك » أولياء الشياطين بتأويل « كذلك » المذكور .

والمعنى : ومثل هذا الجعل الذي جعلناه لمشركي مكة جعلنا في كل قرية مضت أكابر يصدّون عن الخير : فشبه أكابر المجرمين من أهل مكة في الشرك بأكابر المجرمين في أهل القرى في الأمم الأخرى . أي أن أمر هؤلاء ليس ببدع ولا خاص بأعداء هذا الدين ، فإنه سنة المجرمين مع الرسل الأولين .

فالجعل : بمعنى الخلق ووضع السنن الكونية : وهي سنن خلق أسباب الخير وأسباب الشر في كل مجتمع ، وبخاصة القرى .

وفي هذا تنبيه على أن أهل البداوة أقرب إلى قبول الخير من أهل القرى ، لأنهم لبساطة طباعهم من الفطرة السليمة ، فإذا سمعوا الخير قبلوه ، بخلاف أهل القرى ، فإنهم لتشبّثهم بعوائدهم وما ألفوه ، ينفرون من كل ما يغيّره عليهم ، ولهذا قال الله تعالى : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق » فجعل النفاق في الأعراب نفاقا مجردا ، والنفاق في أهل المدينة نفاقا ماردا .

وقد يكون الجعل بمعنى التصيير ، وهو تصيير خلق على صفة مخصوصة أو تصيير مخلوق إلى صفة بعد أن كان في صفة أخرى ، ثم إن تصارع الخير والشر يكون بمقدار غلبة أهل أحدهما على أهل الآخر ، فإذا غلب أهل الخير انقبض دعاة الشر والفساد ، وإذا انعكس الأمر انبسط دعاة الشر وكثروا .

ومن أجل ذلك لم يزل الحكماء الأقدمون يبذلون الجهد في إيجاد المدينة الفاضلة التي وصفها (أفلاطون) في كتابه ، والتي كادت أن تتحقق صفاتها في مدينة (أثينة) في زمن جمهوريتها ، ولكنها ما تحققت بحق إلا في مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في زمانه وزمان الخلفاء الراشدين فيها .

وقد نبّه إلى هذا المعنى قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » على قراءة تشديد ميم : « أمرنا » .

والأظهر في نظم الآية : أن : « جعلنا » بمعنى خلقنا وأوجدنا ، وهو يتعدّى إلى مفعول واحد كقوله : « وجعل الظلمات والنور » فمفعوله : « أكابر مجرميها » .

وقوله : « في كل قرية » ظرف لغو متعلق بـ « جعلنا » وإنما قدم على المفعول مع أنه دونه في التعلق بالفعل ، لأنّ كون ذلك من شأن جميع القرى هو الأهم في هذا الخبر ، ليُعلم أهل مكة أنّ حالهم جرى على سنن أهل القرى المرسل إليها .

وفي قوله : « أكابر مجرميها » إيجاز لأنّه أغنى عن أن يقول جعلنا مجرمين وأكابر لهم وأن أولياء الشياطين أكابر مجرمي أهل مكة . وقوله : « ليمكروا » متعلق بـ « جعلنا » أي ليحصل المكر ، وفيه على هذا الاحتمال تنبيه على أنّ مكرهم ليس بعظيم الشأن .

ويحتمل أن يكون « جعلنا » بمعنى صيّرنا فيتعدّى إلى مفعولين هما : « أكابر مجرميها » على أنّ « مجرميها » المفعول الأول ، و « أكابر » مفعول ثان ، أي جعلنا مجرميها أكابر . وقدم المفعول الثاني للاهتمام به لغرابته شأنه ، لأنّ مصير المجرمين أكابر وسادة أمر عجيب ، إذ ليسوا بأهل للسودد، كما قال طفيل الغنوي :

لا يصلح النَّاسُ قَوْضَىٰ لَا سَرَاةَ لَهُمْ وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهِلَ لَهُمْ سَادُوا
تُهْدَىٰ الْأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَّحَتْ فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالْأَشْرَارِ تَنْقَادُ

وتقديم قوله : « في كل قرية » للغرض المذكور في تقديمه للاحتمال الأول . وفي هذا الاحتمال إيذان بغلبة الفساد عليهم ، وتقادم ضرره ، وإشعار بضرورة خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من تلك القرية ، وإيذان باقتراب زوال سيادة المشركين إذ تولواها المجرمون لأن بقاءهم على الشرك صيرهم مجرمين بين من أسلم منهم . ولعل كلا الاحتمالين مراد من الكلام ليفرض السامعون كليهما ، وهذا من ضروب إعجاز القرآن كما تقدم عند قوله تعالى : « والتذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين » .

واللام في « ليكروا » لام التعليل ، فإن من جملة مراد الله تعالى من وضع نظام وجود الصالح والفساد ، أن يعمل الصالح للصالح ، وأن يعمل الفساد للفساد ، والمكر من جملة الفساد ، ولام التعليل لا تقتضي الحصر ، فله تعالى في إيجاد أمثالهم حكم جمّة ، منها هذه الحكمة ، فيظهر بذلك شرف الحق والصالح ويسطع نوره ، ويظهر اندحاض الباطل بين يديه بعد الصراع الطويل ، ويجوز أن تكون اللام المسماة لام العاقبة ، وهي في التحقيق استعارة اللام لمعنى فاء التصريح كالتي في قوله تعالى « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » .

ودخلت مكة في عموم : « كل قرية » وهي المقصود الأول ، لأنها القرية الحاضرة التي مكّر فيها ، فالمقصود الخصوص . والمعنى : وكذلك جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليكروا فيها كما جعلنا في كل قرية مثلهم ، وإنما عمّم الخبر لقصد تذكير المشركين في مكة بما حلّ بالقرى من قبلها ، مثل قرية الحجر وسبأ والرس ، كقوله : « تلك القرى نقص عليك من أنبيائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا » ،

ولقصد تسليّة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنّه ليس بيدع من الرّسل في تكذيب قومه إيساه ومكرهم به ووعدّه بالنّصر .

وقوله : « أكابر مجرميها » أكابر جمع أكبر . وأكبر اسم لعظيم القوم وسيّدهم ، يقال : ورثوا المجد أكبر أكبر . فليست صيغة أفعل فيه مفيدة الزيادة في الكبر لا في السنّ ولا في الجسم ، فصار بمنزلة الاسم غير المشتقّ ، ولذلك جمع إذا أخبر به عن جمع أو وُصف به الجمع ولو كان معتبرا بمنزلة الاسم المشتقّ لكان حقّه أن يلزم الإفراد والتذكير . وجمع على أكابر ، يقال : ملوك أكابر ، فوزن أكابر في الجمع فعائل مثل أفاضل جمع أفضل ، وأيامين وأشائيم جمع أيمن وأشأم للطير السوانح في عرف أهل الزجر والعيافة .

واعلم أنّ اصطلاح النّحاة في موازين الجموع في باب التّكسير وفي باب ما لا ينصرف أن ينظروا إلى صورة الكلمة من غير نظر إلى الحروف الأصلية والزائدة بخلاف اصطلاح علماء الصّرف في باب المُجرّد والمزيد . فهمزة أكبر تعتبر في الجمع كالأصلي وهي مزيدة .

وفي قوله « أكابر مجرميها » إيجاز لأنّ المعنى جعلنا في كلّ قرية مجرمين وجعلنا لهم أكابر فلمّا كان وجود أكابر يقتضي وجود من دونهم استغنى بذكر أكابر المجرمين .

والمكر : إيقاع الضّرّ بالغير خفية وتحيلًا ، وهو من الخداع ومن المذام ، ولا يغتفر إلّا في الحرب ، ويغتفر في السياسة إذا لم يمكن اتّقاء الضّرّ إلّا به وأمّا إسناده إلى الله في قوله تعالى : « ومكر الله والله خير الماكرين » فهو من المشاكلة لأنّ قبله « ومكروا » ، أي مكروا بأهل الله ورسله . والمراد بالمكر هنا تحيل زعماء المشركين على النّاس في صرفهم عن النّبي - صلى الله عليه وسلم - وعن متابعة الإسلام ، قال مجاهد : كانوا جلسوا على كلّ عقبة ينفّرون النّاس عن اتّباع النّبي - صلى الله عليه وسلم - .

وقد حذف متعلّق: « ليمكروا » لظهوره ، أى ليمكروا بالنبيء - عليه الصلاة والسلام - ظناً منهم بأنّ صدّ الناس عن متابعتة يضرّه ويحزنه ، وأنّه لا يعلم بذلك ، ولعلّ هذا العمل منهم كان لما كثُر المسلمون في آخر مدّة إقامتهم بمكة قبيل الهجرة إلى المدينة ، ولذلك قال الله تعالى : « وما يمكرون إلّا بأنفسهم » ، فالواو للحال ، أي هم في مكروهم ذلك إنّما يضرّون أنفسهم ، فأطلق المكر على مآله وهو الضرّ ، على سبيل المجاز المرسل ، فإنّ غاية المكر ومآله إضرار الممكور به ، فلمّا كان الإضرار حاصلًا للماكرين دون الممكور به أطلق المكر على الإضرار .

وجيء بصيغة القصر : لأنّ النبيء - صلّى الله عليه وسلّم - لا يلحقه أذى ولا ضرّ من صدّهم الناس عن اتّباعه ويلحق الضرّ الماكرين ، في الدنيا : بعذاب القتل والأسر ، وفي الآخرة : بعذاب النار ، إنّ لم يؤمنوا . فالضرّ انحصر فيهم على طريقة القصر الإضافي ، وهو قصر قلب .

وقوله : « وما يشعرون » جملة حال ثانية ، فهم في حالة مكروهم بالنبيء متصفون بأنّهم ما يمكرون إلّا بأنفسهم وبأنّهم ما يشعرون بلحاق عاقبة مكروهم بهم ، والشّعور : العلم .

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾

عطف على جملة : « جعلنا في كلّ قرية أكابر مجرميها » لأنّ هذا حديث عن شيء من أحوال أكابر مجرمي مكة ، وهم المقصود من التشبيه في قوله : « وكذلك جعلنا في كلّ قرية أكابر مجرميها » . ومكة هي المقصود من عموم كلّ قرية كما تقدّم ، فالضمير المنصوب في قوله : « جاءتهم » عائداً إلى « أكابر مجرميها » ، باعتبار الخاص المقصود من

العموم ، إذ ليس قولُ : « لن نؤمن حتى نوتى مثل ما أوتى رسل الله » بمنسوب إلى جميع أكابر المجرمين من جميع القرى .

والمعنى : إذا جاءتهم آية من آيات القرآن، أى تليت عليهم آية فيها دعوتهم إلى الإيمان. فعبّر بالمجيء عن الإعلام بالآية أو تلاوتها تشبيها للإعلام بمجيء الداعي أو المرسل . والمراد أنهم غير مقتنعين بمعجزة القرآن ، وأنهم يطلبون معجزات عينية مثل معجزة موسى ومعجزة عيسى ، وهذا في معنى قولهم : « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » لجهلهم بالحكمة الإلهية في تصريف المعجزات بما يناسب حال المرسل إليهم، كما حكى الله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنمّا الآيات عند الله وإنمّا أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » ؛ وقال النبيء - صلى الله عليه وسلم - : « ما من الأنبياء نبيء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنمّا كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إليّ » الحديث .

وأطلق على إظهار المعجزة لديهم بالإيتاء في حكاية كلامهم إذ قيل : « حتى نوتى مثل ما أوتى رسل الله » لأنّ المعجزة لما كانت لإقناعهم بصدق الرسول - عليه الصلّاة والسلام - أشبهت الشئ المعطى لهم .

ومعنى : « مثل ما أوتى رسل الله » مثل ما آتى الله الرسل من المعجزات التي أظهروها لأقوامهم . فمرادهم الرسل الذين بلغتهم أخبارهم .

وقيل : قائل ذلك فريق من كبراء المشركين بمكة ، قال الله تعالى : « بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة » . روى أن الوليد ابن المغيرة ، قال للنبيء - صلى الله عليه وسلم - : لو كانت النبوءة لكنت أولى بها منك لأنني أكبر منك سنّا وأكثر مالا وولدا ؛ وأنّ أبا جهل

قال : زاحمنا (يعني بني مخزوم) بنو عبد مناف في الشرف ، حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبيٌ يُوحى إليه ، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه . فكانت هذه الآية مشيرة إلى ما صدر من هذين ، وعلى هذا يكون المراد حتى يأتينا وحى كما يأتى الرسل . أو يكون المراد برسل الله جميع الرسل ، فعدلوا عن أن يقولوا مثل ما أوتى محمد - صلى الله عليه وسلم - ، لأنهم لا يؤمنون بأنه يأتيه وحى . ومعنى « نؤتى » على هذا الوجه نعطى مثل ما أعطى الرسل ، وهو الوحي . أو أرادوا برسل الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - فعبّروا عنه بصيغة الجمع تعريضا ، كما يقال : إن ناسا يقولون كذا ، والمراد شخص معين ، ومنه قوله تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين » ونحوه ، ويكون إطلاقهم عليه : « رسل الله » تهكما به - صلى الله عليه وسلم - كما حكاه الله عنهم في قوله : « وقالوا يأيها الذي أنزل عليه الذكر إنك لمجنون » وقوله : « إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون » .

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾

اعتراض للردّ على قولهم : « حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » على كلا الاحتمالين في تفسير قولهم ذلك .

فعلى الوجه الأوّل ، في معنى قولهم : « حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » يكون قوله « الله أعلم حيث يجعل رسالاته » ردّا بأن الله أعلم بالمعجزات اللاتقة بالقوم المرسل إليهم ؛ فتكون « حيث » مجازا في المكان الاعتباري للمعجزة ، وهم القوم الذين يُظهرها أحد منهم ، جعلوا كأنهم مكان لظهور المعجزة . والرسالات مطلقة على المعجزات لأنها شبيهة برسالة يرسلها الله إلى الناس ، وقريب من هذا قول علماء الكلام : وجه

دلالة المعجزة على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن المعجزة قائمة مقام قول الله « صَدَقَ هَذَا الرَّسُولُ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِّي » ، بأمانة أني أخرق العادة دليلاً على تصديقه ؛ وعلى الوجه الثاني ، في معنى قولهم : « حَتَّى نُوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلَ اللَّهِ » ، يكون قوله : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ » ردّاً عليهم بأن الرسالة لا تُعْطَى بِسْؤَالِ سَائِلِهَا ، مع التعريض بأن أمثالهم ليسوا بأهل لها ، فما صَدَقُ « حَيْثُ » الشَّخْصُ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِرِسَالَتِهِ .

و (حيث) هنا اسم دالّ على المكان مستعارة للمبعوث بالرسالة ، بناء على تشبيه الرسالة بالوديعة الموضوعة بمكان أمانة ، على طريقة الاستعارة المكنية . وإثبات المكان تخييل ، وهو استعارة أخرى مصرّحة بتشبيه الرّسل بمكان إقامة الرسالة .

وليست (حيث) هنا ظرفاً بل هي اسم للمكان مجرد عن الظرفية ، لأن (حيث) ظرف متصرف ، على رأي المحققين من النحاة ، فهي هنا في محل نصب بنزع الخافض وهو الباء ، لأن « أعلم » اسم تفضيل لا ينصب المفعول ، وذلك كقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَفْضِلُ عَنْ سَبِيلِهِ » كما تقدم آنفاً .

وجملة « يجعل رسالاته » صفة لـ « حيث » إذا كانت (حيث) مجردة عن الظرفية ، ويتعين أن يكون رابط جملة الصفة بالموصوف محذوفاً ، والتقدير : حيث يجعل فيه رسالاته .

وقد أفادت الآية : أن الرسالة ليست ممّا ينال بالأماني ولا بالشهتي ، ولكن الله يعلم من يصلح لها ومن لا يصلح ، ولو علم من يصلح لها وأراد إرساله لأرسله ، فإنّ النفوس متفاوتة في قبول الفيض الإلهي والاستعداد له والطاقة على الاضطلاع بحمله ، فلا تصلح للرسالة إلاّ نفس خلقت قريبة من النفوس الملكية ، بعيدة عن رذائل الحيوانية ، سليمة من الأدواء القلبية .

فَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ يُخَلِّقُ خَلْقَةً مَنَاسِبَةً لِمَرَادِ اللَّهِ مِنْ إِرْسَالِهِ ، وَاللَّهُ حِينَ خَلَقَهُ عَالِمٌ بِأَنَّهُ سَيَّرْسِلُهُ . وَقَدْ يَخْلُقُ اللَّهُ نَفُوسًا صَالِحَةً لِلرَّسَالَةِ وَلَا تَكُونُ حَكِيمَةً فِي إِرْسَالِ أَرْبَابِهَا ، فَالاستعداد مهَيِّءٌ لِاصْطِفَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَيْسَ مُوجِبًا لَهُ ، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ : إِنَّ الاستعداد الذَّاتِي لَيْسَ بِمُوجِبٍ لِلرَّسَالَةِ خِلَافًا لِلْفَلَاسِفَةِ ، وَلَعَلَّ مَرَادَ الْفَلَاسِفَةِ لَا يَبْعُدُ عَنْ مَرَادِ الْمُتَكَلِّمِينَ . وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ سِينَا فِي الْإِشَارَاتِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا فِي النَّمَطِ التَّاسِعِ .

وَفِي قَوْلِهِ : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ » بَيَانٌ لِعَظِيمِ مَقْدَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَتَنْبِيهُ لَانْحِطَاطِ نَفُوسِ سَادَةِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ نَوَالِ مَرْتَبَةِ النَّبَوَّةِ وَانْعِدَامِ اسْتِعْدَادِهِمْ ، كَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ « لَيْسَ بِعُشْكَ فَاذْرُجِي » .
وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ : « رِسَالَاتِهِ » - بِالْجَمْعِ - وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَحَفْصُ عَنْ عَاصِمٍ - بِالْإِفْرَادِ - وَلَمَّا كَانَ الْمَرَادُ الْجِنْسَ اسْتَوَى الْجَمْعُ وَالْمَفْرَدُ .

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [124]

اسْتِثْنَاءٌ نَاشِئٌ عَنْ قَوْلِهِ : « لِيَمْكُرُوا فِيهَا » وَهُوَ وَعِيدٌ لَهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ : « لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُوتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ » .

فَالْمَرَادُ بِالَّذِينَ أَجْرَمُوا أَكْبَارَ الْمُجْرِمِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ : « بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ » فَإِنَّ صِفَةَ الْمَكْرِ أَثْبَتَتْ لِأَكْبَارِ الْمُجْرِمِينَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ، وَذِكْرُهُمْ بِـ « الَّذِينَ أَجْرَمُوا » إِظْهَارٌ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِأَنَّ مَقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَقَالَ : سَيُصِيبُهُمْ صَغَارٌ ، وَإِنَّمَا خُولِفَ مَقْتَضَى الظَّاهِرِ

للإتيان بالموصول حتى يوميء إلى علّة بناء الخبر على الصلّة، أي إنّما أصابهم صغار وعذاب لإجرامهم .

والصَّغَار - بفتح الصّاد - الذلّ ، وهو مشتقّ من الصَّغَر، وهو القماء ونقصان الشيء عن مقدار أمثاله .

وقد جعل الله عقابهم ذلّاً وعذاباً : ليناسب كيبرهم وعُتُوهم وعصيانهم الله تعالى . والصَّغَار والعذاب يحصلان لهم في الدّنيا بالهزيمة وزوال السّيادة وعذاب القتل والأسر والخوف ، قال تعالى « قُلْ هلْ تربصون بنا إلّا لإحدى الحسنيين ونحن نتربّص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا » وقد حصل الأمران يوم بدر ويوم أحد ، فهلكت سادة المشركين . وفي الآخرة بلهانتهم بين أهل المحشر ، وعذابهم في جهنّم .

ومعنى « عند الله » أنّه صغار مقدّر عند الله، فهو صغار ثابت محقّق ، لأنّ الشّيء الذي يجعله الله تعالى يحصل أثره عند الناس كلّهم ، لأنّه تكوين لا يفارق صاحبه ، كما ورد في الحديث : « إنّ الله إذا أحبّ عبداً أمر جبريل فأحبّه ثمّ أمر الملائكة فأحبّوه ثمّ يوضع له القبول عند أهل الأرض » ، فلا حاجة إلى تقدير (مين) في قوله : « عند الله » ، ولا إلى جعل العندية بمعنى الحصول في الآخرة كما درج عليه كثير من المفسّرين .

والباء في : « بما كانوا يَمَكُرُونَ » سببيّة . و (ما) مصدرية : أي بسبب مكروهم ، أي فعلهم المكر ، أو موصولة : أي بسبب الذي كانوا يَمَكُرُونه ، على أنّ المراد بالمكر الاسم ، فيقدر عائداً منصوباً هو مفعول به محذوف .

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ وَلِإِسْلَامٍ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [125]

الفاء مُرتبة الجملة التي بعدها على مضمون ما قبلها من قوله «أو من كان ميتاً فأحييناه» وما ترتب عليه من التفاريع والاعتراض. وهذا التفريع إبطال لتعللاتهم بعلّة «حتى نوتى مثل أوتى رسل الله»، وأنّ الله منعهم ما علقوا إيمانهم على حصوله، فتفرّع على ذلك بيان السبب المؤثر بالحقيقة إيمان المؤمن وكفر الكافر، وهو: هداية الله المؤمن، وإضلاله الكافر، فذلك حقيقة التأثير: دون الأسباب الظاهرة، فيعرف من ذلك أنّ أكابر المجرمين لو أوتوا ما سألوا لما آمنوا، حتى يريد الله هدايتهم إلى الإسلام، كما قال تعالى: «إنّ الذين حقّت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كلّ آية حتى يسروا العذاب الأليم - وكما قال - ولو أنّنا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كلّ شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلّا أن يشاء الله».

والهدى إنّما يتعلّق بالأمور النافعة: لأنّ حقيقته إصابة الطريق الموصّل للمكان المقصود، ومجازة رشاد العقل. فلذلك لم يحتج إلى ذكر متعلّقه هنا لظهور أنّه الهدى للإسلام، مع قرينة قوله: «يشرح صدره للإسلام»، وأمّا قوله: «فاهدوهم إلى صراط الجحيم» فهو تهكم. والضلال إنّما يكون في أحوال مضرّة لأنّ حقيقته خطأ الطريق المطلوب، فلذلك كان مُشعراً بالضرّة وإن لم يذكر متعلّقه، فهو هنا الاتّصاف بالكفر لأنّ فيه إضاعة خير الإسلام، فهو كالضلال عن المطلوب، وإن كان الضالّ غير طالب للإسلام، لكنه بحيث لو استقبل من أمره ما استدبر لطلبه.

والشَّرْحُ حقيقته شقّ اللحم ، والشَّرِيحة القطعة من اللحم تشقّ حتى ترقق ليقع شَيْهًا . واستعمل الشَّرْحُ في كلامهم مجازًا في البيان والكشف ، واستعمل أيضًا مجازًا في انجلاء الأمر ، ويقين النفس به ، وسكون البال للأمر ، بحيث لا يتردّد فيه ولا يغتمّ منه ، وهو أظهر التفسيرين في قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » .

والصِّدْرُ مراد به الباطن ، مجازًا في الفهم والعقل بعلاقة الحلول ، فمعنى « يشرح صدره » يجعل لنفسه وعقله استعدادًا وقبولًا لتحصيل الإسلام ، ويؤنّس له ذلك حتى يسكن إليه ويرضى به ، فلذلك يشبّه بالشرح والحاصل للنفس يسمّى انشراحًا ، يقال : لم تنشرح نفسي لكذا ، وانشرحتُ لكذا . وإذا حلّ نور التوفيق في القلب كان القلب كالمتّسع ، لأنّ الأنوار توسّع مناظر الأشياء . روى الطَّبْرِي وغيره ، عن ابن مسعود : أنّ ناسًا قالوا : يا رسول الله كيف يشرحُ الله صدره للإسلام - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يدخل فيه النور فينفّس - قالوا - وهل لذلك من علامة يعرف بها - قال - الإنابة إلى دار الخلود ، والتّنحي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الفوت .

ومعنى : « ومن يريد أن يُضِلّه » من يُردّ دوام ضلاله بالكفر ، أو من يُردّ أن يضلّه عن الاهتداء إلى الإسلام ، فالمراد ضلال مستقبل ، إمّا بمعنى دوام الضلال الماضي ، وإمّا بمعنى ضلال عن قبول الإسلام ، وليس المراد أن يضلّه بكفره القديم ، لأنّ ذلك قد مضى وتقرّر .

والضَيِّقُ - بتشديد الياء بوزن فَيَعِيل - مبالغة في وصف الشَّيء بالضيق ، يقال ضاق ضيقًا - بكسر الضاد - وضيقًا - بفتحها - والأشهر كسر الضاد في المصدر والأقيس الفتح ؛ ويقال بتخفيف الياء بوزن فَعَل ، وذلك مثل مَيِّت ومَيِّت ، وهما وإن اختلفت زنتهما ، وكانت زنة فَيَعِيل في الأصل تفيد من المبالغة في حصول الفعل مالا تفيده زنة فَعَل ، فإنّ الاستعمال سوى

بينهما على الأصح . والأظهر أن أصل ضيَّق : بالتخفيف وصف بالمصدر ،
 فلذلك استويا في إفادة المبالغة بالوصف . وقرئ بهما في هذه الآية ،
 فقرأها الجمهور : بتشديد الباء ، وابن كثير : بتخفيفها . وقد استعير الضيَّق
 لصدِّ ما استعير له الشرح فأريد به الذي لا يستعدُّ لقبول الإيمان ولا تسكن
 نفسه إليه ، بحيث يكون مضطرب البال إذا عُرِض عليه الإسلام ، وهذا كقوله
 تعالى : « حصرت صدورهم » وتقدّم في سورة النساء .

والحرج - بكسر الراء - صفة مشبهة من قولهم : حرج الشيء حرجا ،
 من باب فرح ، بمعنى ضاق ضيقا شديدا ، فهو كقولهم : دَنَفَ ، وقَمِنَ ،
 وفرَّقَ ، وحذَر ، وكذلك قرأه نافع ، وعاصم في رواية أبي بكر ، وأبو
 جعفر ، وأما الباكون فقرأوه - بفتح الراء - على صيغة المصدر ، فهو من
 الوصف بالمصدر للمبالغة ، فهو كقولهم : رجل دَنَفَ - بفتح النون -
 وفرَّدَ - بفتح الراء - .

وإثباع الضيَّق بالحرج : لتأكيد معنى الضيق ، لأنَّ في الحرج من معنى
 شدة الضيَّق ما ليس في ضيق .

والمعنى يجعل صدره غير متسع لقبول الإسلام ، بقرينة مقابلته بقوله :
 « يشرح صدره للإسلام » .

وزاد حالة المضللَّ عن الإسلام تبينا بالتمثيل ، فقال : « كأنما
 يَصْعَدُ في السماء » .

قرأه الجمهور : « يَصْعَدُ » - بتشديد الصاد وتشديد العين -
 على أنه يَتَفَعَّلُ من الصعود ، أي بتكلف الصعود ، فقلبت تاء التفعّل صادًا لأنَّ
 التاء شبيهة بحروف الإطباق ، فلذلك قلب طاء بعد حروف الإطباق في
 الافتعال قلبا مطردا ثم تدغم تارة في مماثلها أو مقاربها ، وقد قلب
 فيما يشابه الافتعال إذا أريد التخفيف بالإدغام ، فتدغم في أحد أحرف

الإطباق ، كما هنا ، فإنه أريد تخفيف أحد الحروف الثلاثة المتحركة المتوالية من (يتصعد) ، فسكنت التاء ثم أدغمت في الصاد إدغام المقارب للتخفيف .

وقراه ابن كثير : « يَصْعَد » - بسكون الصاد وفتح العين ، مخففاً .
وقراه أبو بكر ، عن عاصم : « يَصَاعِد » - بتشديد الصاد بعدها ألف - وأصله يتصاعد .

وجملة : « كأنما يصعد » في موضع الحال من ضمير : « صدره » أو من صدره ، مثل حال المشرك حين يدعى إلى الإسلام أو حين يخلو بنفسه ، فيتأمل في دعوة الإسلام ، بحال الصاعد ، فإن الصاعد يضيق نفسه في الصعود ، وهذا تمثيل هيئة معقولة بهيئة متخيَّلة ، لأن الصعود في السماء غير واقع .

والسماء يجوز أن يكون بمعناه المتعارف ، ويجوز أن يكون السماء أطلق على الجو الذي يعلو الأرض . قال أبو علي الفارسي : « لا يكون السماء المظلة للأرض ، ولكن كما قال سيبويه (1) القيدود الطويل في غير سماء - أي في غير ارتفاع صعدا » أراد أبو علي الاستظهار بكلام سيبويه على أن اسم السماء يقال للفضاء الذاهب في ارتفاع (وليست عبارة سيبويه تفسيرا للآية) .

وحرف (في) يجوز أن يكون بمعنى (إلى) ، ويجوز أن يكون بمعنى الطرفية : إما بمعنى كأنه بلغ السماء وأخذ يصعد في منازلها ، فتكون هيئة تخيلية ، وإما على تأويل السماء بمعنى الجو .

وجملة : « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » تذييل للتي قبلها ، فلذلك فصلت .

(1) في باب ما قلب فيه الواو ياء من كتاب سيبويه ، أي كما أطلق سيبويه في كلامه السماء على الارتفاع .

والرجس : الخبث والفساد، ويطلق على الخبث المعنوي والنفسي. والمراد هنا خبث النفس وهو رجس الشرك، كما قال تعالى : « وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا على رجسهم » أي مرضا في قلوبهم زائدا على مرض قلوبهم السابق ، أي أرسخت المرض في قلوبهم ، وتقدم في سورة المائدة : « إنَّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان » فالرجس يعمّ سائر الخبائث النفسية ، الشاملة لضيق الصدر وحرجه ، وبهذا العموم كان تذييلا ، فليس خاصا بضيق الصدر حتى يكون من وضع المظهر موضع المضمّر .

وقوله : « كذلك » نائب عن المفعول المطلق المراد به التشبيه والمعنى : يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون جعلًا كهذا الضيق والخرج الشديد الذي جعله في صدور الذين لا يؤمنون .

و (على) في قوله : « على الذين لا يؤمنون » تفيد تمكّن الرجس من الكافرين ، فالعلاوة مجاز في التمكّن ، مثل : « أولئك على هدى من ربهم » والمراد تمكّنه من قلوبهم وظهور آثاره عليهم .

وجيء بالمضارع في (يَجْعَل) لإفادة التجدد في المستقبل ، أي هذه سنة الله في كل من ينصرف عن الإيمان ، ويُعرض عنه .

(وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) موصول يؤول إلى علّة الخبر ، أي يجعل الله الرجس متمكّنا منهم لأنّهم يعرضون عن تلقّيه بإنصاف ، فيجعل الله قلوبهم متزائدة بالقساوة . والموصول يعمّ كل من يُعرض عن الإيمان ، فيشمل المشركين المخبر عنهم ، ويشمل غيرهم من كل من يُدعى إلى الإسلام فيعرض عنه ، مثل يهود المدينة والمنافقين وغيرهم .

وبهذا العموم صارت الجملة تذييلا ، وصار الإتيان بالموصول جاريا على مقتضى الظاهر ، وليس هو من الإظهار في مقام الإضمار .

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَذْكُرُونَ﴾ [١٤٥]

عطف على جملة : « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً » إلى آخرها، لأنّ هذا تمثيل لحال هدي القرآن بالصراط المستقيم الذي لا يجهد متبعه ، فهذا ضدّ لحال التمثيل في قوله : « كأنما يصعد في السماء ». وتمثيل الإسلام بالصراط المستقيم يتضمّن تمثيل المسلم بالسالك صراطاً مستقيماً ، فيفيد توضيحاً لقوله : « يشرح صدره للإسلام ». وعطفت هذه الجملة مع أنها بمنزلة بيان الجملة التي قبلها لتكون بالعطف مقصودة بالإخبار . وهو اقبال على النبي - صلى الله عليه وسلم - بالخطاب .

والإشارة بـ (هَذَا) إلى حاضر في ذهن وهو دين الاسلام . والمناسبة قوله « يشرح صدره للإسلام ». والصراط حقيقته الطريق ، وهو هنا مستعار للعمل الموصل الى رضى الله تعالى . وإضافته إلى الربّ لتعظيم شأن المضاف ، فيعلم أنّه خير صراط . وإضافة الربّ إلى ضمير الرسول تشریف للمضاف إليه ، وترضية للرسول - صلى الله عليه وسلم - بما في هذا السنن من بقاء بعض الناس غير متبعين دينه .

والمستقيم حقيقته السالم من العوج ، وهو مستعار للصواب لسلامته من الخطأ، أي سنن الله الموافق للحكمة والذي لا يتخلف ولا يعطله شيء.

ويجوز أن تكون الإشارة إلى حاضر في الحسّ وهو القرآن ، لأنّه مسموع كقوله : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك »، فيكون الصراط المستقيم مستعاراً لما يُبلّغ إلى المقصود النافع، كقوله : « وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ». ومستقيماً حال من «صراط» مؤكّدة لمعنى إضافته إلى الله .

وجملة : « قد فصلنا الآيات » استئناف وفذلكة لما تقدم . والمراد بالآيات آيات القرآن . ومن رشاقة لفظ (الآيات) هنا أن فيه تورية بآيات الطريق التي يهتدي بها السائر .

واللآم في : « لقوم يذكرون » للعة ، أي فصلنا الآيات لأجلهم لأنهم الذين ينتفعون بتفصيلها .

والمراد بالقوم المسلمون ، لأنهم الذين أفادتهم الآيات وتذكروا بها .

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [127]

الضمير في : « لهم دار السلام » عائد إلى « قوم يذكرون » .

والجملة إما مستأنفة استئنافا بيانيا : لأن الثناء عليهم بأنهم فصلت لهم الآيات ويتذكرون بها يثير سؤال من يسأل عن أثر تبين الآيات لهم وتذكُرهم بها ، ف قيل : « لهم دار السلام » .

وإما صفة : « لقوم يذكرون » .

وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص للقوم الذين يذكرون لا لغيرهم .

والدَّارُ : مكان الحلول والإقامة ، ترادف أو تقارب المحل من الحلول ، وهو مؤنث تقديرًا فيصغر على دويرة . والدَّار مشتقة من فعل دار يدور لكثرة دوران أهلها ، ويقال لها : دارة ، ولكن المشهور في الدارة أنها الأرض الواسعة بين جبال .

والسلام : الأمان ، والمراد به هنا الأمان الكامل الذي لا يعتري صاحبه شيء مما يُخاف من الموجودات جواهرها وأعراضها ، فيجوز أن يراد

بدار السلام الجنة سميت دار السلام لأن السلامة الحق فيها . لأنها قرار آمن من كل مكروه للنفس ، فتمحضت للنعيم الملائم ، وقيل : السلام ، اسم من أسماء الله تعالى . أي دار الله تعظيماً لها كما يقال للكعبة : بيت الله ، ويجوز أن يراد مكانة الأمان عند الله . أي حالة الأمان من غضبه وعذابه ، كقول النابغة :
كم قد أحلّ بدار الفقر بعد غنى عمرو وكم راش عمرو بعد إقتار

و(عند) مستعارة للقرب الاعتباري، أريد به تشريف الرتبة كما دلّ عليه قوله عقبه : « وهو وليّهم » ، ويجوز أن تكون مستعارة للحفاظ لأنّ الشيء التّقيس يجعل في مكان قريب من صاحبه ليحفظه ، فيكون المعنى تحقيق ذلك لهم . وأنّه وعد كالشيء المحفوظ المدّخر. كما يقال : إن فعلت كذا فلك عندي كذا تحقيقاً للوعد .

والعدول عن إضافة (عند) لضمير المتكلّم إلى إضافته للاسم الظاهر : لقصد تشريفهم بأنّ هذه عطية من هو مولاهم . فهي مناسبة لفضله وبرّه بهم ورضاه عنهم كعكسه المتقدّم آنفاً في قوله تعالى : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله » .

وعطف على جملة : « لهم دار السلام » جملة : « وهو وليّهم » تعميماً لولاية الله إيّاهم في جميع شؤونهم، لأنها من تمام المنّة . والوليّ يطلق بمعنى الناصر وبمعنى الموالي .

وقوله : « بما كانوا يعملون » يجوز أن يتعلّق بما في معنى الخبر في قوله : « لهم دار السلام » ، من مفهوم الفعل، أي ثبت لهم ذلك بما كانوا يعملون ، فتكون الباء سببية ، أي بسبب أعمالهم الحاصلة بالإسلام ، أو الباء للعوض : أي لهم ذلك جزاء بأعمالهم ، وتكون جملة : « وهو وليّهم » معترضة بين الخبر ومتعلّقه ، ويجوز أن يكون : « بما كانوا يعملون » متعلّقاً بثوليّتهم : أي وهو ناصرهم ، والباء للسببية : أي بسبب أعمالهم

تولاهم ، أو الباء للملابسة ، ويكون : « بما كانوا يعملون » مراداً به جزاء أعمالهم ، على حذف مضاف دلّ عليه السياق .

وتعريف المسند بالإضافة في قوله : « وليّهم » أفاد الإعلام بأنّ الله وليّ القوم المتذكّرين ، ليعلموا عظم هذه المنّة فيشكروها ، وليعلم المشركون ذلك فيغيظهم . وذلك أنّ تعريف المسند بالإضافة يخالف طريقة تعريفه بغير الإضافة ، من طرق التعريف ، لأنّ التعريف بالإضافة أضعف مراتب التعريف ، حتّى أنّه قد يقرب من التّكثير على ما ذكره المحقّقون : من أنّ أصل وضع الإضافة على اعتبار تعريف العهد ، فلا يُقال : غلام زيد ، إلّا لغلام معهود بين المتكلّم والمخاطب بتلك النسبة ، ولكن الإضافة قد تخرج عن ذلك في الاستعمال فتجيء بمنزلة النكرة المخصوصة بالوصف ، فتقول : أتاني غلامٌ زيد بكتاب منه ، وأنت تريد غلاماً له غير معيّن عند المخاطب ، فيصير المعرفّ بالإضافة حينئذ كالعرف بلام الجنس ، أي يفيد تعريفاً يميّز الجنس من بين سائر الأجناس ، فالتعريف بالإضافة يأتي لما يأتي له التعريف باللام . ولهذا لم يكن في قوله : « وهو وليّهم » قصر ولا إفادة حكم معلوم على شيء معلوم . وممّا يزيدك يقيناً بهذا قوله تعالى : « ذلك بأنّ الله مولىّ الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم » فلنّ عطف : « وأنّ الكافرين لا مولى لهم » على قوله : « بأنّ الله مولىّ الذين آمنوا » أفاد أنّ المراد بالأوّل إفادة ولاية الله للذين آمنوا لا الإعلام بأنّ من عرف بأنّه مولىّ الذين آمنوا هو الله .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَلْمَعُشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [148]

لَمَّا ذَكَرَ ثَوَابَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ بِالْآيَاتِ ، وَهُوَ ثَوَابُ دَارِ السَّلَامِ ، نَاسِبٌ أَنْ يَعْطَفَ عَلَيْهِ ذِكْرُ جِزَاءِ الَّذِينَ لَا يَتَذَكَّرُونَ ، وَهُوَ جِزَاءُ الْآخِرَةِ أَيْضًا ، فَجُمِلَتْ : « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ » الْخُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ : « لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ » . وَالْمَعْنَى : وَلِلْآخِرِينَ النَّارُ مِثْوَاهُمْ خَالِدِينَ فِيهَا . وَقَدْ صُوِّرَ هَذَا الْخَبَرُ فِي صُورَةٍ مَا يَقَعُ فِي حِسَابِهِمْ يَوْمَ الْحِشْرِ ، ثُمَّ أُفْضِيَ إِلَى غَايَةِ ذَلِكَ الْحِسَابِ ، وَهُوَ خُلُودُهُمْ فِي النَّارِ .

وَانْتَصَبَ : « يَوْمَ » عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ لِفَعْلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ : اذْكُرْ ، عَلَى طَرِيقَةِ نَظَائِرِهِ فِي الْقُرْآنِ ، أَوْ اِنْتَصَبَ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ لِفَعْلٍ الْقَوْلِ الْمَقْدَرِ .

وَالضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ بِـ « نَحْشُرُهُمْ » عَائِدٌ إِلَى « الَّذِينَ أَجْرَمُوا » الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ : « سَيَصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ » ، أَوْ إِلَى « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » فِي قَوْلِهِ : « كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » . وَهَؤُلَاءِ هُمْ مُقَابِلُ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ : فَإِنَّ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ يُعْتَبَرُونَ مَخَاطِبِينَ لِأَنَّهُمْ فَرِيقٌ وَاحِدٌ مَعَ الرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَيُعْتَبَرُ الْمُشْرِكُونَ فَرِيقًا مِبَائِنًا لَهُمْ بَعِيدًا عَنْهُمْ ، فَيَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ بِضَمِيرِ الْغَيْبَةِ ، فَالْمُرَادُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الشِّرْكِ وَأُكِّدَ بِـ « جَمِيعًا » لِيَعْمَ كُلُّ الْمُشْرِكِينَ ، وَسَادَتِهِمْ ، وَشَيَاطِينِهِمْ ، وَسَائِرُ عُلُقَتِهِمْ . وَيَجُوزُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ إِلَى الشَّيَاطِينِ وَأَوَّلِيائِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ » الْخُ .

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ : « نَحْشُرُهُمْ » - بِنُونِ الْعِظَمَةِ - عَلَى الْاِلْتِفَاتِ . وَقَرَأَهُ حَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ ، وَرَوَّحٌ عَنْ يَعْقُوبَ - بِيَاءِ الْغَيْبَةِ - .

وَلَمَّا أَسْنَدَ الْحِشْرَ إِلَى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ تَعَيَّنَ أَنَّ النِّدَاءَ فِي قَوْلِهِ : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ » مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى . فَتَعَيَّنَ لِذَلِكَ إِضْمَارُ قَوْلِ صَادِرٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ ، أَيْ نَقُولُ : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ، لِأَنَّ النِّدَاءَ لَا يَكُونُ إِلَّا قَوْلًا .

وجملة : « يا معشر الجن » إلخ مقول قول محذوف يدلّ عليه أسلوب الكلام . والتقدير : نقول أو قائلين .

والمعشر : الجماعة الذين أمرهم وشأنهم واحد ، بحيث تجمعهم صفة أو عمل ، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه . وهو يُجمع على معاشر أيضا ، وهو بمعناه ، وهو مشتق من العاشرة والمخالطة .

والأكثر أن يضاف المعشر إلى اسم يبين الصفة التي اجتمع مسمّاه فيها ، وهي هنا صفة كونهم جنّا ، ولذلك إذا عُطف على ما يضاف إليه كان على تقدير تثنية معشرا وجمعه : فالتثنية نحو : « يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا » الآية ، أي يا معشر الجنّ ويا معشر الإنس ، والجمع نحو قولك : يا معاشر العرب والعجم والبربر .

والجنّ تقدّم في قوله : « وجعلوا لله شركاء الجنّ » في هذه السّورة . والمراد بالجنّ الشياطين وأعدائهم من بني جنسهم الجنّ . والإنس تقدّم عند قوله : « شياطين الإنس والجنّ » في هذه السّورة .

والاستكثار : شدة الإكثار . فالسّين والتاء فيه للمبالغة مثل الاستسلام والاستخذاع والاستكبار ، ويتعدى بمن البيانية إلى الشيء المتخذ كثيره ، يقال : استكثر من النّعم أو من المال ، أي أكثر من جمعها ، واستكثر الأمير من الجند ، ولا يتعدى بنفسه تفرقة بين هذا المعنى وبين استكثر الذي بمعنى عدّ الشيء كثيرا ، كقوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » .

وقوله : « استكثرتم من الإنس » على حذف مضاف ، تقديره : من إضلال الإنس ، أو من إغوائهم ، فمعنى « استكثرتم من الإنس » أكثرتم من اتّخاذهم ، أي من جعلهم أتباعا لكم ، أي تجاوزتم الحدّ في استهوائهم واستغوائهم ، فطوّعتم منهم كثيرا جدا .

والكلام تبويخ للجن وإنكار ، أي كان أكثر الإنس طوعا لكم . والجنّ يشمل الشياطين ، وهم يغوون الناس ويطوعونهم : بالسوسة ، والتخيل ، والإرهاب . والمسّ ، ونحو ذلك ، حتّى توهّم الناس مقدرتهم وأنّهم محتاجون إليهم . فتوسّلوا إليهم بالإرضاء وترك اسم الله على ذبائهم وفي شؤونهم ، وحتّى أصبح المسافر إذا نزل واديا قال : « أعوذ بسيّد هذا الوادي . أو بربّ هذا الوادي ، يعني به كبير الجنّ ، أو قال : يا ربّ الوادي إنّي أستجير بك » يعني سيّد الجنّ . وكان العرب يعتقدون أنّ الفياضي والأودية المتسعة بين الجبال معمورة بالجنّ ، ويتخيّلون أصوات الرياح زجل الجنّ . قال الأعشى :

وبلدةٍ مثل ظهَرِ الثُّرسِ موحِشةٍ للجنّ بالليل في حافّاتها زجل

وفي الكلام تعريض بتبويخ الإنس الذين اتّبعوهم ، وأطاعوهم ، وأفرطوا في مرضاتهم ، ولم يسمّوا من يدعوهم إلى نبذ متابعتهم ، كما يدلّ عليه قوله الآتي : « يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسل منكم » فإنّه تدرّج في التبويخ وقطع المَعذرة .

والمراد بأوليائهم أولياء الجنّ : أي الموالون لهم ، والمنقطعون إلى التعلّق بأحوالهم . وأولياء الشياطين هم المشركون الذين وافوا المحشر على الشّرك . وقيل : أريد به الكفّار والعصاة من المسلمين ، وهذا باطل لأنّ العاصي وإن كان قد أطاع الشياطين فليس وليّاً لها « الله وليّ الذين آمنوا » ولأنّ الله تعالى قال في آخر الآية : « ألم يأتكم رسل منكم » - وقال : « وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين » .

ومِن الإنس بيان للأولياء .

وقد اقتصر على حكاية جواب الإنس لأنّ الناس المشركين هم المقصود من الموعظة بهذه الآية .

ومعنى : « استمتع بعضنا ببعض » انتفع وحصل شهوته وملائمته : أي استمتع الجنّ بالإنس ، وانتفع الإنس بالجنّ ، فكلّ بعض مراد به أحد الفريقين لأنّه بعض مجموع الفريقين . وإنّما قالوا : استمتع بعضنا ببعض ، ولم يكن الإنس هم المخاطبين بالتوبيخ . لأنّهم أرادوا الاعتذار عن أوليائهم من الجنّ ودفع التوبيخ عنهم ، بأنّ الجنّ لم يكونوا هم المستأثرين بالانتفاع بتطويع الإنس ، بل نال كلّ من الفريقين انتفاعا بصاحبه ، وهؤلاء المعتذرون يحتمل أنّهم أرادوا مشاطرة الجناية إقرارا بالحقّ ، وإخلاصا لأوليائهم ، أو أرادوا الاعتذار عن أنفسهم لما علموا من أن توبيخ الجنّ المغوين يُعرض بتوبيخ المغوين - بفتح الواو - . فأقروا واعتذروا بأنّ ما فعلوه لم يكن تمرّدا على الله ، ولا استخفافا بأمره ، ولكنّه كان لإرضاء الشهوات من الجانبين . وهي المراد بالاستمتاع .

ولكونهم ليسوا بمخاطبين ابتداء . وكون كلامهم دخيلا في المخاطبة ، لم تفصل جملة قولهم كما تفصل جمل المحاوراة في السّؤال والجواب ، بل عطفت على جملة القول المقدّر لأنّها قول آخر عرّض في ذلك اليوم .

وجيء في حكاية قولهم بفعل « وقال أوليائهم » مع أنّه مستقبل من أجلّ قوله : « نحشرهم » تنبيها على تحقيق وقوعه ، فيعلم من ذلك التّنبيه على تحقيق الخبر كلّّه ، وأنّه واقع لا محالة ، إذ لا يكون بعضه محققا وبعضه دون ذلك .

واستمتع الإنس بالجنّ هو انتفاعهم في العاجل : بتيسير شهواتهم ، وفتح أبواب اللذات والأهواء لهم ، وسلامتهم من بطشتهم . واستمتع الجنّ بالإنس : هو انتفاع الجنّ بتكثير أربابهم من أهل الضلالة ، وإعانتهم على إضلال النّاس ، والوقوف في وجه دعاة الخير ، وقطع سبيل الصّلاح ، فكلّ من الفريقين أعان الآخر على تحقيق ما في نفسه ممّا فيه ملائم طبعه وارتياحه لقضاء وطوره .

وقوله : « وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا » . استسلام لله ، أي : انقضى زمن الإمهال ، وبلغنا الأجل الذي أجلت لنا للوقوع في قبضتك ، فسدت الآن دوننا المسالكُ فلا نجد مفرًا . وفي الكلام تحسر وندامة . عند ظهور عدم إغناء أوليائهم عنهم شيئاً ، وانقضاء زمن طغيانهم وعتوهم ، ومحين حين أن يلقوا جزاء أعمالهم كقوله : « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » .

وقد أفادت الآية : أن الجنّ المخاطبين قد أُفحموا ، فلم يجدوا جواباً ، فتركوا أولياءهم يناضلون عنهم ، وذلك مظهر من مظاهر عدم إغناء المتبوعين عن أتباعهم يومئذ « إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا » .
وجملة « قال النار مثواكم » فصلت عن التي قبلها على طريقة القول في المحاوراة ، كما تقدم عند قوله تعالى : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها » في سورة البقرة .

وضمير الخطاب في قوله : « النار مثواكم » موجه إلى الإنس فلأنهم المقصود من الآية ، كما في قوله تعالى : « بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون - وقوله - وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

ومجيء القول بصيغة الماضي : للتنبيه على تحقيق وقوعه وهو مستقبل بقريضة قوله : « نحشرهم » كما تقدم . وإسناده إلى الغائب نظراً لما وقع في كلام الأولياء : « ربنا استمتع » الخ .

والمشوى : اسم مكان من ثوى بالمكان إذا أقام به إقامة سكنى أو إطالة مكث ، وقد بين الثواء بالخلود بقوله : « خالدين فيها » .

وقوله : « خالدين فيها » هو من تمام ما يقال لهم في الحشر لا محالة ، لأنه منصوب على الحال من ضمير مثواكم ، فلا بد أن يتعلق بما قبله .

وأما قوله : « إلا ما شاء الله » فظاهر النظم أنه من تمام ما يقال لهم . لأن الأصل في الاستثناء أن يكون إخراجا مما قبله من الكلام .

ويجوز أن يكون من مخاطبة الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وقع اعتراضا بين ما قصه عليه من حال المشركين وأوليائهم يوم الحشر ، وبين قوله له : « إن ربك حكيم عليم » ويكون الوقف على قوله : « خالدين فيها » .

والاستثناء في قوله : « إلا ما شاء الله » على التأويلين استثناء إمّا من عموم الأزمنة التي دلّ عليها قوله : « خالدين فيها » إذ الخلود هو إقامة الأبد والأبد بعمّ الأزمان كليهما ، ف(ما) ظرفية مصدرية فلذلك يكون الفعل بعدها في تأويل مصدر، أي إلا وقت مشيئة الله إزالة خلودكم، وإمّا من عموم الخالدين الذي في ضمير « خالدين » أي إلا فريقا شاء الله أن لا يخلدوا في النار .

وبهذا صار معنى الآية موضع إشكال عند جميع المفسرين ، من حيث ما تقرّر في الكتاب والسنة وإجماع الأمة أن المشركين لا يخفف لهم وأنهم مخلّدون في النار بدون استثناء فريق ولا زمان .

وقد أحصيت لهم عشرة تأويلات ، بعضها لا يتم ، وبعضها بعيد إذا جعل قوله : « إلا ما شاء الله » من تمام ما يقال للمشركين وأوليائهم في الحشر ، ولا يستقيم منها إلا واحد ، إذا جعل الاستثناء معترضا بين حكاية ما يقال للمشركين في الحشر وبين ما خوطب به النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فيكون هذا الاعتراض خطابا للمشركين الأحياء الذين يسمعون التهديد ، إعدارا لهم أن يسلموا ، فتكون (ما) مصدرية غير ظرفية : أي إلا مشيئة الله عدم خلودهم ، أي حال مشيئته . وهي حال توفيقه بعض المشركين للإسلام في حياتهم ، ويكون هذا بيانا وتحقيقا للمنقول عن ابن عباس : استثنى الله قوما سبق في علمه أنهم يسلمون . وعنه أيضا : هذه الآية توجب الوقف في جميع

الكفار ، وإذا صح ما نقل عنه وجب تأويله بأنه صدر منه قبل علمه بإجماع أهل العلم على أن المشركين لا يغفر لهم .

ولك أن تجعل (ما) على هذا الوجه موصولة، فإنها قد تستعمل للعاقل بكثرة . وإذا جعل قوله : « خالدين » من جملة المقول في الحشر كان تأويل الآية : أن الاستثناء لا يقصد به إخراج أوقات ولا حالة ، وإنما هو كناية ، يقصد منه أن هذا الخلود قدره الله تعالى ، مختاراً لا مكره له عليه ، إظهاراً لتمام القدرة ومحض الإرادة ، كأنه يقول : لو شئت لأبطلت ذلك . وقد يعضد هذا بأن الله ذكر نظيره في نعيم أهل الجنة في قوله : « فأمّا الذين شَقُّوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السمّوات والأرض إلّا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد وأمّا الذين سعّدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السمّوات والأرض إلّا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » فانظر كيف عقب قوله : « إلّا ما شاء ربك » في عقاب أهل الشقاوة بقوله : « إن ربك فعّال لما يريد » وكيف عقب قوله : « إلّا ما شاء ربك » في نعيم أهل السعادة بقوله : « عطاء غير مجذوذ » فأبطل ظاهر الاستثناء بقوله : « عطاء غير مجذوذ » فهذا معنى الكناية بالاستثناء ، ثمّ المصير بعد ذلك إلى الأدلة الدالة على أن خلود المشركين غير مخصوص بزمن ولا بحال .

ويكونُ هذا الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده .

وقوله : « إن ربك حكيم عليم » تذييل ، والخطاب للنبيء - صلى الله عليه وسلم - فإن كان قوله : « خالدين فيها إلّا ما شاء الله » من بقية المقول لأولياء الجنّ في الحشر كان قوله : « إن ربك حكيم عليم » جملة معترضة بين الجمل المقولة ، لبيان أن ما رتبّه الله على الشّرك من الخلود رتبّه بحكمته وعلمه ، وإن كان قوله : « خالدين » إلخ كلاماً مستقلاً معترضاً كان قوله : « إن ربك حكيم عليم » تذييلاً للاعتراض ، وتأكيذاً للمقصود

من المشيئة من جعل استحقاق الخلود في العذاب منوطا بالموافاة على الشرك . وجعل النجاة من ذلك الخلود منوطا بالإيمان .

والحكيم : هو الذي يضع الأشياء في مناسباتها : والأسباب لمسبباتها .
والعليم : الذي يعلم ما انطوى عليه جميع خلقه من الأحوال المستحقة للثواب والعقاب .

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّيْ بَعْضَ الظَّالِمِيْنَ بَعْضًا بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ ﴾ [١٢٩]

هو من تمام الاعتراض : أو من تمام التذييل : على ما تقدم من الاحتمالين .
الواو للحال : اعتراضية : كما تقدم : أو للعطف على قوله : « إِنَّ رَبَّكَ حكيم عليم » .

والإشارة إلى التولية المأخوذة من : « نُؤَلِّيْ » : وجاء اسم الإشارة بالتذكير لأن تأنيث التولية لفظي لا حقيقي ، فيجوز في إشارته ما جاز في فعله الرافع للظاهر : والمعنى : وكما ولينا ما بين هؤلاء المشركين وبين أوليائهم نُؤَلِّي بين الظالمين كلهم بعضهم مع بعض .

والتولية يجيء من الولاء ومن الولاية : لأن كليهما يقال في فعله المتعدى : وُلِّيَ ، بمعنى جعل وليا ، فهو من باب أعطى يتعدى إلى مفعولين ، كذا فسروه ، وظاهر كلامهم أنه يقال : وَلَّيْتُ ضَبَّةً تَمِيماً إِذَا حَالَفْتَ بَيْنَهُمْ ، وذلك أنه يقال : تَوَلَّيْتُ ضَبَّةً تَمِيماً بِمَعْنَى حَالَفْتُهُمْ ، فإذا عدتِ الفعل بالتضعيف قيل : وَلَّيْتُ ضَبَّةً تَمِيماً . فهو من قبيل قوله : « نُؤَلِّيْهَ مَا تَوَلَّيْ » أي نلزمه ما ألزم نفسه فيكون معنى : « نُؤَلِّيْ بَعْضَ الظَّالِمِيْنَ بَعْضًا » نجعل بعضهم أولياء بعض . ويكون ناظرا إلى قوله : « وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ » . وجعل الفريقين ظالمين لأن الذي يتولى قوما يصير منهم .

فإذا جعل الله فريقا أولياء للظالمين فقد جعلهم ظالمين بالأخارة ، قال تعالى : « ولا تَرَكُونَا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُم النَّارُ » وقال : « بعضهم أولياء بعض وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

ويقال : وَلَيَّ ، بمعنى جعل واليا ، فيتعدى إلى مفعولين من باب أعطى أيضا، يقال : وَلَيَّ عُمَرُ أبا عبيدة الشَّام ، كما يقال : أولاه ، لَأَنَّهُ يقال : وَلَيَّ أَبُو عبيدة الشَّام ، ولذلك قال المفسرون : يجوز أن يكون معنى : « نولِّي بعضَ الظَّالِمِينَ بعضا » نجعل بعضهم ولاية على بعض ، أي نسلط بعضهم على بعض ، والمعنى أَنَّهُ جعل الجنَّ وهم ظالمون مسلطين على المشركين ، والمشركون ظالمون ، فكلَّ يظلم بمقدار سلطانه . والمراد : بـ « الظالمين » في الآية المشركون ، كما هو مقتضى التشبيه في قوله : « وكذلك » .

وقد تشمل الآية بطريق الإشارة كلَّ ظالم ، فتدلَّ على أَنَّ اللَّهَ سلَّطَ على الظالم من يظلمه ، وقد تأولها على ذلك عبد الله بن الزُّبَيْرِ أَيَّامَ دَعَوْتِهِ بِمَكَّةَ فَإِنَّهُ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ قَتَلَ عَمْرًا بْنَ سَعِيدِ الْأَشْدَقِ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ عَمْرُو عَلَيْهِ ، صَعِدَ الْمَنْبَرِ فَقَالَ : « أَلَا إِنَّ ابْنَ الزَّرْقَاءِ - يَعْنِي عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ لِأَنَّ مَرْوَانَ كَانَ يَلْقَبُ بِالْأَزْرَقِ وَبِالزَّرْقَاءِ لِأَنَّهُ أَزْرَقُ الْعَيْنَيْنِ - قَدْ قَتَلَ لَطِيمَ الشَّيْطَانِ (1) » وكذلك نولِّي بعضَ الظَّالِمِينَ بعضا بما كانوا يكسبون » . ومن أجل ذلك قيل : إِنَّ لَمْ يُقْلَعِ الظَّالِمُ عَنْ ظُلْمِهِ سُلِّطَ عَلَيْهِ ظَالِمٌ آخَرٌ . قال الفخر : إِنَّ أَرَادَ الرَّعِيَّةُ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ أَمِيرٍ ظَالِمٍ فَلْيَتَرَكُوا الظُّلْمَ . وقد قيل :

وَمَا ظَالِمٌ إِلَّا سَيِّئُ بَطَالِمٍ

وقوله : « بما كانوا يكسبون » الباء للسببية ، أي جزاء على استمرار شركهم .

(1) كلمة يُنْبِزُ بِهَا عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ لِعَوْجِاجِهِ فِي شِدْقِهِ فَلَقَّبُوهُ الْأَشْدَقَ ، وقالوا : لَطَمَهُ الشَّيْطَانُ .

والمقصود من الآية الاعتبار والموعظة ، والتحذير من الاغترار بولاية الظالمين . وتوخي الأتباع صلاح المتبوعين ، وبيان سنة من سنن الله في العالمين .

﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [430]

هذا من جملة المقابلة التي تجري يوم الحشر ، وفصلت الجملة لأنها في مقام تعداد جرائمهم التي استحقوا بها الخلود . إبطالا لمعذرتهم ، وإعلانا بأنهم محقوقون بما جزوا به . فأعاد نداءهم كما ينادى المندد عليه الموبخ فيزداد روعا .

والهمزة في « ألم يأتكم » للاستفهام التقريري . وإنما جعل السؤال عن نفى إتيان الرسل إليهم لأن المقرر إذا كان حاله في ملابسة المقرر عليه حال من يُظن به أن يجب بالنفي . يؤتى بتقريره داخلا على نفى الأمر الذي المراد إقراره بإثباته . حتى إذا أقر بإثباته كان إقراره أقطع لعذره في المؤاخذه به . كما يقال لاجاني : أَلَسْتُ الفاعل كذا وكذا ، وألست القائل كذا . وقد يسلك ذلك في مقام اختبار مقدار تمكن المسؤول المقرر من اليقين في المقرر عليه . فيؤتى بالاستفهام داخلا على نفى الشيء المقرر عليه . حتى إذا كانت له شبهة فيه ارتبك وتلعثم ، ومنه قوله تعالى : « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم » . ولما كان حال هؤلاء الجن والإنس في التمرد على الله . وبذ العمل الصالح ظهريا ، والإعراض عن الإيمان ، حال من لم يطرق سمعه أمر بمعروف ولا نهى عن منكر ، جيء

في تقريرهم على بعثة الرّسل إليهم بصيغة الاستفهام عن نفي مجيء الرّسل إليهم : حتّى إذا لم يجدوا الإنكار مجيء الرّسل مساعا ، واعترفوا بمجيئهم : كان ذلك أحرى لأخذهم بالعقاب .

والرّسل : ظاهره أنّه جمع رسول بالمعنى المشهور في اصطلاح الشّرع ، أي مرسل من الله إلى العباد بما يرشدهم إلى ما يجب عليهم : من اعتقاد وعمل ، ويجوز أن يكون جمع رسول بالمعنى اللّغوي وهو من أرسله غيره كقوله تعالى : « إذ جاءها المرسلون » وهم رسل الحواريين بعد عيسى .

فوصف الرّسل بقوله : « منكم » لزيادة إقامة الحجّة، أي رسل تعرفونهم وتسمعونهم ، فيجوز أن يكون (من) اتّصالية مثل التي في قولهم : لستُ منك ولستَ مِنّي ، وليست للتبعض ، فليست مثل التي في قوله : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم » وذلك أن رسل الله لا يكونون إلّا من الإنس ، لأنّ مقام الرّسالة عن الله لا يليق أن يجعل إلّا في أشرف الأجناس من الملائكة والبشر ، وجنس الجنّ أحطّ من البشر لأنّهم خلقوا من نار .

وتكون (من) تبعية ، ويكون المراد بضمير : « منكم » خصوص الإنس على طريقة التغليب . أو عود الضمير إلى بعض المذكور قبله كما في قوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من البحر الملح . فأما مؤاخذه الجنّ بمخالفة الرّسل فقد يخلق الله في الجنّ إلهاما بوجوب الاستماع إلى دعوة الرّسل والعمل بها . كما يدلّ عليه قوله تعالى في سورة الجنّ : « قل أوحى إليّ أنّه استمع نقر من الجنّ - فقالوا - إنّنا سمعنا قرآنا عجبا » الآية ، وقال في سورة الأحقاف : « قالوا يا قومنا إنّنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجرّكم من عذاب أليم » ذلك أن الظواهر تقتضي أن الجنّ لهم اتّصال بهذا العالم . واطّلاع على أحوال أهله : « إنّ يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » .

فضعف قول من قال بوجود رسل من الجنّ إلى جنسهم ، ونُسب إلى الضحاك ، ولذلك فقلوه : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ » مصروف عن ظاهره من شموله الإنس والجنّ ، ولم يرد عن النبيّ - صلى الله عليه وسلّم - ما يثبت به أنّ الله أرسل رسلا من الجنّ إلى جنسهم ، ويجوز أن يكون رسل الجنّ طوائف منهم يستمعون إلى الأنبياء ويفهمون ما يدعون إليه ويبلغون ذلك إلى أقوامهم ، كما تقتضيه الآية في سورة الأحقاف : فمؤاخذه الجنّ على الإشراك بالله يقتضيها بلوغ توحيد الله إلى علمهم لأنّ أدلّة الواحدانية عقلية لا تحتاج إلّا إلى ما يُحرّك النَّظَر : فلما خلق الله للجنّ علما بما تجيء به رسل الله من الدّعاء إلى النَّظَر في التوحيد فقد توجّهت عليهم المؤاخذه بترك الإيمان بوحدانية الله تعالى فاستحقّوا العذاب على الإشراك دون توقّف على توجيه الرّسل دعوتهم إليهم •

ومن حسن عبارات أيمتنا أنّهم يقولون : الإيمان واجب على من بلغته الدّعوة ، دون أن يقولوا : على من وُجّهت إليه الدّعوة . وطرق بلوغ الدّعوة عديدة ، ولم يثبت في القرآن ولا في صحيح الآثار أنّ النبيّ محمّدا - صلى الله عليه وسلّم - ، ولا غيره من الرّسل ، بُعث إلى الجنّ لانتفاء الحكمة من ذلك ، ولعدم المناسبة بين الجنسين ، وتعدّر تخالطهما . وعن الكلبي أنّ محمّدا - صلى الله عليه وسلّم - بعث إلى الإنس والجنّ ، وقاله ابن حزم ، واختاره أبو عمّار ابن عبد البر ، وحكى الاتفاق عليه : فيكون من خصائص النبيّ محمّد - صلى الله عليه وسلّم - تشريفا لقدره . والخوض في هذا ينبغي للعالم أن يربأ بنفسه عنه لأنّه خوض في أحوال عالم لا يدخل تحت مدّركاتنا فإنّ الله أنبأنا بأنّ العوالم كلّها خاضعة لسلطانه . حقيق عليها طاعته ، إذا كانت مدركة صالحة للتكليف . والمقصود من الآية التي نتكلّم عليها إعلامُ المشركين بأنّهم مأمورون بالتوحيد والإسلام وأنّ أولياءهم من شياطين الإنس والجنّ غير مفلتين من المؤاخذه على نبذ الإسلام . بلهـ أتباعهم ودهمائهم . فذكر الجنّ مع الإنس في قوله « يا معشر الجنّ والإنس » يوم القيامة لتبكيّت المشركين وتحسيرهم على ما فرط منهم في الدّنيا من عبادة الجنّ أو الالتجاء إليهم ،

على حدّ قوله تعالى : « ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء » وقوله : « وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » .

والقصّ كالقصص : الإخبار ، ومنه القصّة للخبر ، والمعنى : يخبرونكم الأخبار الدالّة على وحدانيّة الله وأمره ونهيه ووعدته ووعدته ، فسمّي ذلك قصّاً لأنّ أكثره أخبار عن صفات الله تعالى وعن الرّسل وأمهم وما حلّ بهم وعن الجزاء بالنّعيم أو العذاب . فالمراد من الآيات آيات القرآن والأقوال التي تتلى فيفهمها الجنّ بإلهام ، كما تقدّم آنفاً ، ويفهمها الإنس ممّن يعرف العربيّة مباشرة ومن لا يعرف العربيّة بالترجمة .

والإنذار : الإخبار بما يُخيف ويُكره ، وهو ضدّ البشارة ، وتقدّم عند قوله تعالى : « إنّنا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً » في سورة البقرة ، وهو يتعدّى إلى مفعول بنفسه وهو الملقى إليه الخبر ، ويتعدّى إلى الشّيء المخبر عنه : بالباء ، وبنفسه ، يقال : أنذرتك بكذا وأنذرتك كذاً ، قال تعالى : « فأنذرتكم نارا تلظّي - فقلّ أنذرتكم صاعقة - وتُنذِر يومَ الجمع » ولما كان اللّقاء يوم الحشر يتضمّن خيراً لأهل الخير وشرّاً لأهل الشرّ ، وكان هؤلاء المخاطبون قد تمحضوا للشرّ ، جُعِل إخبار الرّسل إليّهم بقاء ذلك اليوم إنذاراً لأنّه الطّرف الّذي تحقّق فيهم من جملة إخبار الرّسل إليّهم ما في ذلك اليوم وشرّه . ووصف اليوم باسم الإشارة في قوله : « يومكم هذا » لتهويل أمر ذلك بما يشاهد فيه ، بحيث لا تحيط العبارة بوصفه ، فيعدل عنها إلى الإشارة كقوله : « هذه النار التي كنتم بها تكذّبون » .

ومعنى قولهم : « شهدنا على أنفسنا » الإقرار بما تضمّنه الاستفهام من إتيان الرّسل إليهم ، وذلك دليل على أنّ دخول حرف النّفي في جملة الاستفهام ليس المقصود منه إلّا قطع المعذرة وأنّه أمر لا يسع المسؤول نفيه ، فلذلك أجملوا الجواب : « فقالوا شهدنا على أنفسنا » ، أي أقررنا بإتيان الرّسل إلينا .

واستعملت الشهادة في معنى الإقرار لأن أصل الشهادة الإخبار عن أمر تحققه المخبر وبيّنه، ومنه : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » . وشهد عليه . أخبر عنه خبر المثبت المتحقق ، فلذلك قالوا : « شهدنا على أنفسنا » أي أقررنا بإتيان الرسل إلينا . ولا تنافي بين هذا الإقرار وبين إنكارهم الشرك في قوله : « إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » لاختلاف المخبر عنه في الآيتين .

وفُصِّلَت جملة : « قالوا » لأنها جارية في طريقة المحاوراة .

وجملة « وغرتهم الحياة الدنيا » معطوفة على جملة : « قالوا شهدنا » باعتبار كون الأولى خبرا عن تبين الحقيقة لهم . وعلمهم حينئذ أنهم عصوا الرسل ومن أرسلهم . وأعرضوا عن لقاء بومهم ذلك . فعلموا وعلم السامع لخبرهم أنهم ما وقعوا في هذه الرتبة إلا لأنهم غرتهم الحياة الدنيا . ولولا ذلك الغرور لما كان عملهم مما يرضاه العاقل لنفسه .

والمراد بالحياة أحوالها الحاصلة لهم : من اللهو . والتفاخر ، والكبر ، والعناد . والاستخفاف بالحقائق . والاعتزاز بما لا ينفع في العاجل والآجل .

والمقصود من هذا الخبر عنهم كشف حالهم . وتحذير السامعين من دوام التورط في مثله . فإن حالهم سواء .

وجملة : « وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » معطوفة على جملة : « وغرتهم الحياة الدنيا » وهو خبر مستعمل في التعجيب من حالهم ، وتخطئة رأيهم في الدنيا . وسوء نظرهم في الآيات . وإعراضهم عن التدبر في العواقب : وقد رتب هذا الخبر على الخبر الذي قبله ، وهو اغترارهم بالحياة الدنيا ، لأن ذلك الاغترار كان السبب في وقوعهم في هذه الحال حتى استسلموا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا كافرين بالله ، فأما الإنس فلا أنهم أشركوا به وعبدوا الجن ، وأما الجن فلا أنهم أغروا

الإنس بعبادتهم ووضعوا أنفسهم شركاء لله تعالى . فكيلا الفريقين من هؤلاء كافر ، وهذا مثل ما أخبر الله عنهم أو عن أمثالهم بمثل هذا الخبر التعجيبى في قوله : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم » . فانظر كيف فرّع على قولهم أنّهم اعترفوا بذنبهم ، مع أنّ قولهم هو عين الاعتراف . فلا يفرّع الشيء عن نفسه . ولكن أريد من الخبر التعجيب من حالهم . والتسميع بهم . حين ألجئوا إلى الاعتراف في عاقبة الأمر .

وشهادتهم على أنفسهم بالكفر كانت بعد التمهيد والإجلاء . فلا تنافي أنّهم أنكروا الكفر في أول أمر الحساب . إذ قالوا : « والله ربنا ما كنا مشركين » . قال سعيد بن جبير : قال رجل لابن عباس : « إنني أجد أشياء تختلف عليّ » قال الله : « ولا يكتُمون الله حديثا » . وقال : « إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » . فقد كَتَمُوا . فقال ابن عباس : إنّ الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فقال المشركون : تعالوا نقل : ما كنا مشركين ، فختم الله على أفواههم فتنطق أيديهم » .

﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [131]

استئناف ابتدائي ، تهديد وموعظة ، وعبرة بتفريط أهل الضلالة في فائدة دعوة الرسل ، وتنبيه لجدوى إرسال الرسل إلى الأمم ليعيد المشركون نظرا في أمرهم . ما داموا في هذه الدار . قبل يوم الحشر ، ويعلموا أنّ عاقبة الإعراض عن دعوة الرسول — صلى الله عليه وسلم — خسرى ، فيتداركوا أمرهم خشية الفوات . وإنذار باقترب نزول العذاب بهم ، وإيقاظ المشركين بأنّ حالهم كحال المتحدّث عنهم إذا ماتوا على شركهم .

والإشارة بقوله : « ذلك » إلى مذكور في الكلام السّابق ، وهو أقرب مذكور ، كما هو شأن الإشارة إلى غير محسوس ، فالشار إليه هو المذكور

قبلُ ، أو هو إتيان الرّسل الذي جرى الكلام عليه في حكاية تقرير المشركين في يوم الحشر عن إتيان رسلهم إليهم . وهو المصدر المأخوذ من قوله : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ » فإنه لما حكى ذلك القول للناس السّامعين ، صار ذلك القول المحكي كالحاضر ، فصَحَّ أن يشار إلى شيء يؤخذ منه .

واسم الإشارة إمّا مبتدأ أو خبر لمحذوف تقديره : ذلك الأمر أو الامر ذلك ، كما يدلّ عليه ضمير الشأن المقدّر بعد (أن) .

و (أن) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، كما هو استعمالها عند التخفيف ، وذلك لأنّ هذا الخبر له شأن يجدر أن يُعرَف . والجملة خبر « أن » ، وحذفت لام التعليل الداخلة على « أن » : لأنّ حذف جازٍ « أن » كثير شائع ، والتقدير : ذلك الأمر ، أو الأمر ذلك ، لأنّه - أي الشأن - لم يكن ربك مهلك القرى ؛

وجملة : « لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » هو شأن عظيم من شؤون الله تعالى ، وهو شأن عدله ورحمته : ورضاه لعباده الخير والصّلاح ، وكرهيته سوء أعمالهم . وإظهاره أثر ربوبيته إياهم بهدایتهم إلى سبل الخير ، وعدم مباغتتهم بالهلاك قبل التقدّم إليهم بالإنذار والتنبيه .

وفي الكلام إيجاز إذ علّم منه : أنّ الله يهلك القرى المسترسل أهلها على الشّرك إذا أعرضوا عن دعوة الرّسل ، وأنّه لا يهلكهم إلّا بعد أن يرسل إليهم رسلا منذرين . وأنّه أراد حمل تبعّة هلاكهم عليهم ، حتّى لا يبقى في نفوسهم أن يقولوا : لولا رحمنا ربّنا فأنبأنا وأعذر إلينا : كما قال تعالى : « ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله (أي قبل محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - أو قبل القرآن) لقالوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولا فلتتبع آياتك

من قبل أن نَذِلَّ وَنَخْزِيَّ « فاقْتَصِرْ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى عَلَى مَعْنَى أَنَّ عِلَّةَ الْإِرْسَالِ هِيَ عَدَمُ إِهْلَاكِ الْقَرْىِ عَلَى غَفْلَةٍ ، فَدَلَّ عَلَى الْمَعْنَى الْمَحْذُوفِ .

والإهلاك : إعدام ذات الموجود وإماتةُ الحيِّ . قال تعالى : « لِيَهْلِكَ مِنْ هَلِكٍ عَنْ بَيْتَةٍ وَيَحْيِيَّ مِنْ حَيِّبٍ عَنْ بَيْتَةٍ » فإهلاك القرى إبادة أهلها وتخريبها ، وإحياءها إعادةُ عُمرانها بالسكان والبناء ، قال تعالى : « أَنْتَ بُحِّيْ هَذِهِ (أَيِ الْقَرْيَةِ) اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا . » وإهلاك الناس : إبادتهم ، وإحياءهم إبقاؤهم ، فمعنى إهلاك القرى هنا شامل لإبادة سكانها . لأنَّ الإهلاك تعلق بذات القرى ، فلا حاجة إلى التمجِّز في إطلاق القرى على أهل القرى (كما في : « واسألُ القرية ») لصحة الحقيقة هنا ، ولأنَّه يمنع منه قوله : « وأهلُّها غافلون » . ألا ترى إلى قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميراً » فجعل إهلاكها تدميرها ، وإلى قوله : « ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها » .

والباء في : « بظلم » للسببية ، والظلم : الشَّرْك ، أي مهلكهم بسبب شرك يقع فيها فيهلكها ويهلك أهلها الذين أوقعوه ، ولذلك لم يقل : بظلم أهلها ، لأنَّه أريد أن وجود الظلم فيها سببُ هلاكها ، وهلاك أهلها بالأحرى لأنَّهم المقصود بالهلاك .

وجملة : « وأهلُّها غافلون » حال من « القرى » . وصرح هنا بـ « أهلها » تنبيها على أنَّ هلاك القرى من جراء أفعال سكانها « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [432]

احتراز على قوله : « ذلك أن لم يكن ربك مُهلك القرى بظلم »
 لتنبه على أن الصالحين من أهل القرى الغالب على أهلها الشرك والظلم
 لا يُحرمون جزاء صلاحهم .

والتنوين في : « ولكل » عوض عن المضاف إليه : أي ولكلهم ،
 أي كل أهل القرى المهلكة درجات . بعني أن أهلها تتفاوت أحوالهم
 في الآخرة . فالمؤمنون منهم لا يضاع إيمانهم . والكافرون يحشرون
 إلى العذاب في الآخرة . بعد أن عذبوا في الدنيا . فالله قد ينجي
 المؤمنين من أهل القرى قبل نزول العذاب . فتلك درجة نالوها في الدنيا ،
 وهي درجة إظهار عناية الله بهم . وتُرفع درجاتهم في الآخرة : والكافرون
 يحيق بهم عذاب الإهلاك ثم يصيرون إلى عذاب الآخرة . وقد تهلك
 القرية بمؤمنيها ثم يصيرون إلى النعيم فيظهر تفاوت درجاتهم في الآخرة ،
 وهذه حالة أخرى وهي المراد بقوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيب
 الذين ظلموا منكم خاصة » روى البخاري . ومسلم . عن ابن عمر ، قال
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذاب
 من كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم » . وفي حديث عائشة - رضي الله عنها -
 عند البيهقي في الشعب مرفوعا - أن الله تعالى إذا أنزل سطوته بأهل نعمته
 وفيهم الصالحون . قبضوا معهم ثم بُعثوا على نياتهم وأعمالهم ، صححه
 ابن حبان . وفي صحيح البخاري : من حديث زينب بنت جحش أم المؤمنين
 رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ويل للعرب
 من شرّ قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج هكذا وعقد تسعين
 (أي عقد اصبعين بعلامة تسعين في الحساب المعبر عنه بالعُمْد - بضم العين وفتح
 القاف -) - قيل : أنهلك وفيما الصالحون ، قال : نعم إذا كثر الخبيث » .

والدرجات هي ما يرتقى عليه من أسفل إلى أعلى : في سلم أو بناء ،
 وإن قصد بها النزول إلى محل منخفض من جب أو نحوه فهي دركات ،

ولذلك قال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات - وقال - إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » ولما كان لفظ (كل) مراداً به جميع أهل القرية ، وأتى بلفظ (الدرجات) كان إيحاء إلى تغليب حال المؤمنين لتطمئن نفوس المسلمين من أهل مكة بأنهم لا بأس عليهم من عذاب مشركيها ، ففيه إيحاء إلى أن الله منجيهم من العذاب : في الدنيا بالهجرة ، وفي الآخرة بحشرهم على أعمالهم ونياتهم لأنهم لم يقصروا في الإنكار على المشركين ، ففي هذه الآية إيدان بأنهم سيخرجون من القرية التي حقّ على أهلها العذاب ، فإن الله أصاب أهل مكة بالجوع والخوف ثم بالغزو بعد أن أنجى رسوله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين . وقد علم من الدرجات أن أسافلها دركات فغلب درجات لنكتة الإشعار ببشارة المؤمنين بعد نذارة المشركين .

و(من) في قوله «مما عملوا» تعليلية ، أي من أعمالهم أي بسبب تفاوت أعمالهم.

وقوله : « وما ربك بغافل عما يعملون » خطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وقرأ الجمهور : « يعملون » - بياء الغيبة - فيعود الضمير إلى أهل القرى ، والمقصود مشركو مكة ، فهو للتسليّة والتطمين لثلاث يستبطنها وعد الله بالنصر ، وهو تعريض بالوعيد للمشركين من باب : واسمعي يا جارة . وقرأه ابن عامر - بقاء الخطاب - ، فالخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من المسلمين ، فهو وعد بالجزاء على صالح أعمالهم ، ترشيحاً للتعبير بالدرجات حسبما قدمناه ، ليكون سلاً لهم من وعيد أهل القرى أصحاب الظلم ، وكلتا القراءتين مراد لله تعالى فيما أحسب .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾

عُظِفَتْ جُمْلَةٌ : « وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ » عَلَى جُمْلَةٍ : « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » إِبْخَارًا عَنْ عِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ عَلَى الْخَبَرِ عَنْ عَمَلِهِ ، وَفِي كِلْتَا الْجُمْلَتَيْنِ وَعِيدٌ وَوَعْدٌ . وَفِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ كُنَايَةٌ عَنْ غِنَاهُ تَعَالَى عَنْ إِيمَانِ الْمُشْرِكِينَ وَمَوَالِيهِمْ كَمَا فِي قَوْلِهِ : « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ » ، وَكُنَايَةٌ عَنْ رَحْمَتِهِ إِذْ أَمْهَلَ الْمُشْرِكِينَ وَلَمْ يَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ . كَمَا قَالَ : « وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ » فِي سُورَةِ الْكَهْفِ .

وقوله : « وَرَبُّكَ » إظهار ، فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ ، وَمَقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ : وَهُوَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ، فَخُولِفَ مَقْتَضَى الظَّاهِرِ لَمَّا فِي اسْمِ الرَّبِّ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى الْعُنَايَةِ بِصَلَاحِ الْمَرْبُوبِ ، وَلِتَكُونَ الْجُمْلَةُ مُسْتَقْلِلَةً بِنَفْسِهَا فَتُسِيرُ مَسِيرَ الْأَمْثَالِ وَالْحِكَمِ ، وَلِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِ النَّبِيِّ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — .

والغنيّ : هُوَ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَالْغِنَى الْحَقِيقِيُّ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ بِحَالٍ ، وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ الْكَلَامِ : إِنَّ صِفَةَ الْغِنَى الثَّابِتَةَ لِلَّهِ تَعَالَى يَشْمَلُ مَعْنَاهَا وَجُوبُ الْوُجُودِ . لِأَنَّ اقْتِنَارَ الْمُمْكِنِ إِلَى الْمَوْجُودِ الْمُخْتَارِ ، الَّذِي يَرْجِعُ طَرَفُ وَجُودِهِ عَلَى طَرَفِ عَدَمِهِ ، هُوَ أَشَدُّ الْاِقْتِنَارِ . وَأَحْسَبُ أَنَّ مَعْنَى الْغِنَى لَا يَثْبُتُ فِي اللُّغَةِ لِلشَّيْءِ إِلَّا بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ مَوْجُودٌ فَلَا يَشْمَلُ مَعْنَى الْغِنَى صِفَةُ الْوُجُودِ فِي مَتَعَارِفِ اللُّغَةِ . إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اصْطِلَاحًا لِلْمُتَكَلِّمِينَ خَاصًّا بِمَعْنَى الْغِنَى الْمُطْلَقِ . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَا قُلْتُهُ أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى الْمَغْنَى ، وَلَمْ يُعْتَبَرِ فِي مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَوْجُودٌ الْمَوْجُودَاتِ . وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَعْنَى الْغِنَى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا » فِي سُورَةِ النَّسَاءِ .

وتعريف المسند باللام مقتضى تخصيصه بالمسند إليه ، أي قصر الغنى على الله ، وهو قصرٌ ادّعائيٌ باعتبار أن غنى غير الله تعالى لَمَّا كَانَ غَنَى نَاقِصًا نَزَلَ مَنْزِلَةُ الْعَدَمِ ، أَي رَبُّكَ الْغَنِيُّ لَا غَيْرَهُ . وَغِنَاهُ تَعَالَى حَقِيقِيٌّ . وَذَكَرَ وَصَفَ الْغِنَى هُنَا تَمْهِيدًا لِلْحُكْمِ الدَّوَارِ عَقِبَهُ . وَهُوَ : « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ » فَهُوَ مِنْ تَقْدِيمِ الدَّلِيلِ بَيْنَ يَدَيِ الدَّعْوَى . تَذَكِيرًا بِتَقْرِيبِ حُصُولِ الْجَزْمِ بِالدَّعْوَى .

و « ذو الرحمة » خبر ثان .

وعدل عن أن يوصف بوصف الرحيم إلى وصفه بأنه : « ذو الرحمة » :
لأن الغني وصف ذاتي لله لا ينتفع الخلائق إلاّ بلوازم ذلك الوصف ، وهي
جوده عليهم ، لأنه لا ينقص شيئا من غناه . بخلاف صفة الرحمة فإن
تعلقها ينتفع الخلائق . فأوثررت بكلمة (ذو) لأن (ذو) كلمة يتوصل بها
إلى الوصف بالأجناس . ومعناها صاحب . وهي تشعر بقوة أو وفرة ما
تضاف إليه ، فلا يقال ذو إنصاف إلاّ لمن كان قوي الإنصاف ، ولا يقال ذو
مال لمن عنده مال قليل ، والمقصود من الوصف بذى الرحمة ، هنا ، تهديد
لمعنى الإمهال الذي في قوله : « إن يشأ يذهبكم » ، أي فلا يقولن أحد لماذا
لم يذهب هؤلاء المكذّبين . أي أنه لرحمته أمهلهم إعدارا لهم .

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَ كُمْ
مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ [433]

استئناف لتهديد المشركين الذين كانوا يكذبون الإنذار بعذاب الإهلاك ،
فيقولون : « متى هذا الفتح إن كنتم صادقين » وذلك ما يؤذن به قوله
عقبه : « إنّا توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين » .

فالخطاب يجوز أن يكون للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمقصود منه
التعريض بمن يفضل عن ذلك من المشركين ، ويجوز أن يكون إقبالا على خطاب
المشركين فيكون تهديدا صريحا .

والمعنى : إن يشأ الله يعجل بإفنائكم ويستخلف من بعدكم ما يشأ ممّن
يؤمن به كما قال : « وإن تتولّوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا
أمثالكم » : أي فما إمهاله إياكم إلاّ لأنه الغني ذو الرحمة .

وجملة الشرط وجوابه خبر ثالث عن المبتدأ . ومفعول : « يشاء » محذوف على طريقته المألوفة في حذف مفعول المشيئة .

والإذهاب مجاز في الإعدام كقوله : « وإنّا على ذهاب به لقادرون » .

والاستخلاف : جعل الخلف عن الشيء . والخلف : العوض عن شيء فائت ، فالسّين والتاء فيه للتأكيد ، و « ما » موصولة عامة ، أي : ما يشاء من مؤمنين أو كافرين على ما تقتضيه حكمته . وهذا تعريض بالاستئصال لأنّ ظاهر الضمير يفيد العموم .

والتشبيه في قوله : « كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » تشبيه في إنشاء موجودات بعد موجودات أخرى ، لا في كون المنشآت مُخرجة من بقايا المعدومات ، ويجوز أن يكون التشبيه في إنشاء موجودات من بقايا معدومات كما أنشأ البشر نشأة ثانية من ذرية من أنجاهم الله في السفينة مع نوح - عليه السلام - ، فيكون الكلام تعريضا بإهلاك المشركين ونجاة المؤمنين من العذاب .

وكاف التشبيه في محلّ نصب نيابة عن المفعول المطلق ، لأنّها وصف لمحذوف تقديره : استخلفا كما أنشأكم . فإنّ الإنشاء يصف كيفية الاستخلاف . « ومِن » ابتدائية . ومعنى الذرية واشتقاقها تقدّم عند قوله تعالى « قال ومن ذريتي » في سورة البقرة .

ووصف « قوم » بـ « آخرين » للدلالة على المغايرة ، أي قوم ليسوا من قبائل العرب ، وذلك تنبيه على عظيم قدرة الله تعالى أن ينشئ أقواما من أقوام يخالفونهم في اللغة والعوائد والمواطن ، وهذا كناية عن تباعد العصور ، وتسلسل المنشآت لأنّ الاختلاف بين الأصول والفروع لا يحدث إلاّ في أزمنة بعيدة ، فشتان بين أحوال قوم نوح وبين أحوال العرب المخاطبين ، وبين ذلك قرون مختلفة متباعدة .

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [134]

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة : « إن يشأ يذهبكم » فإن المشيئة تشتمل على حالين : حال ترك إهلاكهم ، وحال إيقاعه ، فأفادت هذه الجملة أن مشيئة الله تعلقت بإيقاع ما أوعدهم به من الإذهاب ، ولك أن تجعل الجملة استئنافا بيانيا : جوابا عن أن يقول سائل من المشركين ، متوركا بالوعيد : إذا كنا قد أمهلنا وأخرّ عنا الاستئصال فقد أفلتنا من الوعيد ، ولعله يلقاه أقوام بعدنا ، فورد قوله : « إن ما توعدون لآت » مورد الجواب عن هذا السؤال الناشئ عن الكلام السابق بتحقيق أن ما أوعده به المشركون واقع لا محالة وإن تأخر .

والتأكيد بـ « لأن » مناسب لمقام المتردد الطالب ، وزيادة التأكيد بلام الابتداء لأنهم متوغلون في إنكار تحقق ما أوعدوا به من حصول الوعيد واستسخارهم به ، فإنهم قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » إفحاما للرسول - صلى الله عليه وسلم - وإظهارا لتخلف وعيده .

وبناء « توعدون » للمجهول يصحح أن يكون الفعل مضارع وعد يعيد ، أو مضارع أوعد ، يُوعد والمتبادر هو الأول . ومن بديع الفصاحة اختيار بنائه للمجهول ، ليصلح لفظه لحال المؤمنين والمشركين ، ولو بني للمعلوم لتعين فيه أحد الأمرين : بأن يقال : إن ما نعدكم ، أو إن ما نؤعدكم ، وهذا من بديع التوجيه المقصود منه أن يأخذ منه كل فريق من السامعين ما يليق بحاله ، ومعلوم أن وعيد المشركين يستلزم وعدا للمؤمنين ، والمقصود الأهم هو وعيد المشركين ، فلذلك عقب الكلام بقوله : « وما أنتم بمُعْجِزِينَ » فذلك كالتشريح لأحد المحتملين من الكلام الموجه .

والإتيان مستعار للحصول تشبيهاً للشيء الموعود به المنتظر وقوعه بالشخص الغائب المنتظر إتيانه . كما تقدم في قوله تعالى : « قل أرأيتمكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة » في هذه السورة .

وحقيقة المعجز هو الذي يجعل طالب شيء عاجزاً عن نواله ، أي غير قادرين ، ويستعمل مجازاً في معنى الإفلات من تناول طالبه كما قال إياس بن قبيصة الطائي :

ألم تر أن الأرض رخب فسيحة فهل تُعجزني بقعة من بقاعها
أي فلا تفلت مني بقعة منها لا يصل إليها العدو الذي يطالبني .

فالمعنى : وما أنتم بمعجزين أي : بمفعلتين من وعيدي ، أو بخارجين عن قدرتي ، وهو صالح للاحتمالين .

ومجيء الجملة اسمية في قوله : « وما أنتم بمعجزين » لإفادة الثبات والدوام ، في نسبة المسند للمسند إليه . وهي نسبة نفيه عن المسند إليه ، لأن الخصوصيات التي تعتبر في حالة الإثبات تعتبر في حالة النفي إذ النفي إنما هو كيفية للنسبة . والخصوصيات مقتضيات أحوال التركيب ، وليس يختلف النفي عن الإثبات إلا في اعتبار القيود الزائدة على أصل التركيب ، فإن النفي يعتبر متوجّهاً إليها خاصة وهي قيود مفاهيم المخالفة . وإلا لبطلت خصوصيات كثيرة مفروضة مع الإثبات . إذا صار الكلام المشتمل عليها منفيًا . مثل إفادة التجدد في المسند الفعلي في قول جؤية بن النضر :

لا يَألفُ الدرهمُ المضروبَ صرّتنا . لكن يمرّ عليها وهو منطق

إذ لا فرق في إفادة التجدد بين هذا المصراع . وبين أن تقول : أَلِفَ الدرهم صرّتنا . وكذلك قوله تعالى « لَأَهُنَّ حِلَّ لَهِمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » فإن الأول يفيد أن نفي حِلَّ لَهِمْ ثابت لا يختلف ، والثاني يفيد أن نفي حِلَّ لَهِمْ لَهُنَّ حكم متجدد لا ينسخ : فهما اعتباران . وقد أشرت إلى بعض هذا عند تفسير قوله تعالى : « والله لا يحب كل كفار أثيم » في سورة البقرة .

﴿قُلْ يَاقَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ اِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَنْ تَكُونُ لَهُ وَعَاقِبَةُ الدَّارِ اِنَّهُ وَلَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [135]

استئناف ابتدائي بعد قوله : « إِنَّمَا تَوْعِدُونَ لَاتِ » فإنَّ المقصود الأول منه هو وعيد المشركين ، كما مرَّ ، فأعقبه بما تمخَّض لوعيدهم : وهو الأمر المستعمل في الإنذار والتهديد ، لِيُؤْمِلِيَ لَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ إِمْلَاءً يشعر ، في متعارف التخاطب ، بأنَّ المأمور به ممَّا يزيد المأمور استحقاقا للعقوبة ، واقتربا منها . أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يُناديهم ويُهَدِّدَهُمْ . وأمر أن يبتدئ خطابهم بالنداء للاهتمام بما سيقال لهم ، لأنَّ النداء يسترعي إسماع المناديين ، وكان المنادى عنوان القوم لما يشعر به من أنَّه قد رُقَّ لحالهم حين توعدهم بقوله : « إِنَّمَا تَوْعِدُونَ لَاتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » لأنَّ الشأن أنَّه يحبَّ لقومه ما يحبَّ لنفسه .

والنداء : للقوم المعاندين بقريضة المقام ، الدالَّة على أنَّ الأمر للتهديد ، وأنَّ عملهم مخالف لعمله ، لقوله : « اعملوا - مع قوله - إِنِّي عَامِلٌ » .

فالأمر في قوله : « اعملوا » للتسوية والتخلية لإظهار اليأس من امثالهم للتصح بحيث يغيَّر ناصِحهم نُصَحهم إلى الإطلاق لهم فيما يحبُّون أن يفعلوا ، كقوله تعالى : « اعملوا ما شئتم » وهذا الاستعمال استعارة إذ يشبَّه المغضوب عليه المأيوس من ارعوائه بالمأمور بأن يفعل ما كان يُنهي عنه ، فكانَ ذلك المنهي صار واجبا ، وهذا تهكُّم .

والمكانة : المكان ، جاء على التأنيث مثل ما جاء المقامة للمقام ، والدائرة اسما للدار ، والماء للماء الذي يُنزل حوله ، يقال : أهل الماء وأهل الماءة .

والمكانة هنا مستعارة للحالة التي تلبَّس بها المرء ، تشبَّه الحالة في إحاطتها وتلبَّس صاحبها بها بالمكان الذي يحوي الشيء ، كما تقدَّم

اطلاق الدّار آنفا في قوله تعالى : « لهم دار السّلام » . أو تكون المكانة كناية عن الحالة لأنّ أحوال المرء تظهر في مكانه ومقرّه ، فلذلك يقال : « يا فلان على مكانتك » أي أثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه .

ومفعول « اعملوا » محذوف لأنّ الفعل نزل منزلة اللازم ، أي اعملوا عملكم المألوف الذي هو دأبكم . وهو الإعراض والتكذيب بالحق .

و (علّي) مستعملة في التمكن على وجه الاستعارة التبعيّة ، وهي مناسبة لاستعارة المكانة للحالة . لأنّ العلاوة تناسب المكان . فهي ترشيح للاستعارة ، مستعار من ملائم المشبه به لملائم المشبه . والمعنى : الزموا حالكم فلا مطّمع لي في اتّباعكم .

وقرأ الجمهور : « على مكانتكم » — بالإفراد — . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « مكاناتكم » جمع مكانة ، والجمع باعتبار جمع المضاف إليه .

وجملة : « إنّي عامل » تعليل لمفاد التسوية من الأمر في قوله : « اعملوا » أي لا يضرتني تصميمكم على ما أنتم عليه ، لكنني مستمرّ على عملي ، أي أنني غير تارك لما أنا عليه من الإيمان والدّعاء إلى الله .

وحذف متعلّق : « إنّي عامل » للتعميم مع الاختصار ، وسيأتي تفصيله في نظيره من سورة الزمر .

ورُتّب على عملهم وعمَلِهِ الإنذارُ بالوعيد « فسوف تعلمون » بفناء التّفريع للدلالة على أنّ هذا الوعيد متفرّع على ذلك التهديد .

وحرف التّفيس مراد منه تأكيد الوقوع لأنّ حرفي التّفيس يؤكّدان المستقبل كما تؤكّد (قدّ) الماضي ، ولذلك قال سيبويه في الكلام على (لن) : إنّها لنفي سيفعل . فأخذ منه الزمخشري إفادتها تأكيد النفي .

وهذا صريح في التهديد ، لأنّ إخبارهم بأنّهم سيُعلمون يفيد أنّه يعلم وقوع ذلك لا محالة ، وتصميمه على أنّه عامل على مكانته ومخالف لعملهم يدلّ على أنّه موقن بحسن عقباه وسوء عقباهم ، ولولا ذلك لعمِل عملهم ، لأنّ العاقل لا يرضى الضرّ لنفسه ، فدلّ قوله : « فسوف تعلمون » على أنّ علمهم يقع في المستقبل ، وأمّا هو فعالم من الآن ، ففيه كناية عن وثوقه بأنّه مُحقّق ، وأنّهم مبطون ، وسيجيء نظير هذه الآية في قصّة شعيب من سورة هود.

وقوله : « من تكون له عاقبة الدار » استفهام ، وهو يُعلّق فعل العلم عن العمل ، فلا يعطى مفعولين استغناء بمُفاد الاستفهام ؛ إذ التقدير : تعلمون أحدنا تكون له عاقبة الدار . وموضع : « من » رفع على الابتداء ، وجملة : « تكون له عاقبة الدار » خبره .

والعاقبة ، في اللّغة : آخر الأمر ، وأثر عمل العامل ، فعاقبة كلّ شيء هي ما ينجلي عنه الشيء ويظهر في آخره من أثر ونتيجة ، وتأتي على تأويل الحالة فلا يقال : عاقب الأمر ، ولكن عاقبة وعُقُوبى .

وقد خصّص الاستعمال لفظ العاقبة بآخرة الأمر الحسنة ، قال الراغب : « العاقبة والعقبى يختصّان بالثواب نحو « والعاقبة للمتقين » ، وبالإضافة قد يستعمل في العقوبة نحو « ثمّ كان عاقبة الذين أساءوا السّوأى » وقلّ من نبه على هذا ، وهو من تدقيقه وشواهدُه في القرآن كثيرة .

والدار الموضع الذي يحلّ به الناس من أرض أو بناء ، وتقدّم آنفا عند قوله تعالى : « لهم دار السّلام » ، وتعريف الدار هنا تعريف الجنس .

فيجوز أن يكون لفظ « الدار » مطلقا ، على المعنى الحقيقي ، فإضافة « عاقبة » إلى « الدار » لإضافة حقيقية ، أي حُسن الأخارة الحاصل في الدار ، وهي الفوز بالدار ، والفالج في النزاع عليها ، تشبيها بما كان العرب يتنازعون على المنازل والمراعي ، وبذلك يكون قوله : « من تكون له عاقبة الدار »

استعارة تمثيلية مكنية ، شُبِّهَتْ حالة المؤمنين الفائزين في عملهم ، مع حالة المشركين ، بحالة الغالب على امتلاك دار عدوّه ، وطُوي المركَّب الدالّ على الهيئة المشبّه بها ، ورُمز إليه بذكر ما هو من رَوادفه ، وهو « عاقبة الدار » ، فإنّ التَّمثيلية تكون مصرّحة ، وتكون مكنية ، وإن لم يُقسَّمُوها إليهما ، لكنّه تقسيم لا محيص منه .

ويجوز أن تكون « الدار » مستعارة للحالة التي استقرّ فيها أحد ، تشبيها للحالة بالمكان في الاحتواء ، فتكون إضافة عاقبة إلى الدار إضافة بيانية ، أي العاقبة الحسنی التي هي حاله ، فيكون الكلام استعارة مصرّحة .

ومن محاسنها هنا : أنّها بنت على استعارة المكانة للحالة في قوله : « اعملوا على مكانتكم » فصار المعنى : اعملوا في داركم ما أنتم عاملون فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار .

وفي الكلام مع ذلك إيماء إلى أنّ عاقبة تلك الدار ، أي بلد مكة ، أن تكون للمسلمين ، كقوله تعالى : « أنّ الأرض يرثها عبادي الصّالحون » وقد فسّر قوله : « من تكون له عاقبة الدار » بغير هذا المعنى .

وقرأ الجمهور : « مَنْ تكون » - بناء فوقية - وقرأ حمزة ، والكسائي ، بتحتية ، لأنّ تأنيث عاقبة غير حقيقي ، فلمّا وقع فاعلا ظاهرا فيجوز فيه أن يقرن بعلامة التأنيث وبدونها .

وجملة : « إنّّه لا يفلح الظّالمون » تذييل للوعيد يتنزّل منزلة التعليل ، أي لأنّه لا يفلح الظّالمون ، ستكون عقبي الدار للمسلمين ، لا لكم ، لأنكم ظالمون .

والتعريف في « الظّالمون » للاستغراق ، فيشمل هؤلاء الظّالمين ابتداء . والضمير المفعول اسم (إنّ) ضمير الشأن تنبيها على الاهتمام بهذا الخبر وأنه أمر عظيم .

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [436]

عطف على نظائره مما حكت فيه أقوالهم وأعمالهم : من قوله : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » وقوله : « وجعلوا لله شركاء الجن » وقوله : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها » وقوله : « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » وما تخلل ذلك فهو إبطال لأقوالهم ، ورد لمذاهبهم ، وتمثيلات ونظائر ، فضمير الجماعة يعود على المشركين الذين هم غرض الكلام من أول السورة من قوله : « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » . وهذا ابتداء بيان تشريعاتهم الباطلة ، وأولها ما جعلوه حقاً عليهم في أموالهم للأصنام : مما يشبه الصدقات الواجبة ، وإنما كانوا يوجبونها على أنفسهم بالالتزام مثل التذوق ، أو بتعيين من الذين يشرعون لهم كما صيأتي .

والجعل هنا معناه الصِّرف والتقسيم ، كما في قول عمر في قضية : ما أفاء الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - المختصم فيها العباس وعلي - رضي الله عنهم - « فيجعلهُ رسولُ الله مجعل مالِ الله » أي يضعه ويصرفه ، وحقيقة معنى الجعل هو التصيير ، فكما جاء صير لمعان مجازية ، كذلك جاء (جعل) ، فمعنى « جعلوا لله » : صرفوا ووضعوا لله ، أي عيّنوا له نصيباً ، لأن في التعيين تصبيراً تقديريةً ونقلًا . وكذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديث أبي طلحة : « أرى أن تجعلها في الأقربين » أي أن تصرفها إليهم ، و(جعل) هذا يتعدى إلى مفعول واحد ، وهذه التعدية هي أكثر أحوال تعديته ، حتى أن تعديته إلى مفعولين إنما ما في الحقيقة مفعول وحال منه .

ومعنى : « ذرأ » أنشأ شيئاً وكثره . فأطلق على الإنماء لأنّ إنشاء شيء تكثير وإنماء .

« ومما ذرأ » متعلق : بـ « جعلوا » . و « من » تبعيضية ، فهو في معنى المفعول ، و « ما » موصولة . والإتيان بالموصول لأجل دلالة صلته على تسفيه آرائهم . إذ ملكوا الله بعض ملكه . لأنّ ما ذرأه هو ملكه ، وهو حقيق به بلا جعل منهم .

واختيار فعل : « ذرأ » هنا لأنه الذي يدلّ على المعنى المراد . إذ المقصود بيان شرائعهم الفاسدة في نتائج أموالهم . ثمّ سيبيّن شرعهم في أصول أموالهم في قوله : « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر » الآية .

و « من الحرث والأنعام » بيان « ما » الموصولة .

والحرثُ مراد به الزرع والشجر . وهو في الأصل من إطلاق المصدر على اسم المفعول . ثمّ شاع ذلك الإطلاق حتّى صار الحرث حقيقة عرفية في الجنّات والمزارع . قال تعالى : « أنْ اغْدُواْ عَلَىْ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ » .

والنصيب : الحظ والقِسْم وتقدّم في قوله تعالى : « أولئك لهم نصيب مما كسبوا » في سورة البقرة . والتقدير : جعلوا لله نصيباً وبغيره نصيباً آخر ، وفهم من السياق أنّ النصيب الآخر لآلهتهم . وقد أفصح عنه في التفرّيع بقوله « فقالوا هذا لله بزرعهم وهذا لشركائنا » .

والإشارتان إلى النصيب المعيّن لله والنصيب المعيّن للشركاء ، واسما الإشارة مشار بكلّ واحد منهما إلى أحد النصيبين على الإجمال إذ لا غرض في المقام في تعيين ما جعلوه لله وما جعلوه لشركائهم .

والزرع : الاعتقاد الفاسد . أو القريب من الخطأ ، كما تقدّم عند قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل

من قبلك» في سورة النساء ، وهو مثلث الزاي ، والمشهور فيه فتح الزاي ، ومثله الرّغم بالرّاء مثلث الراء .

وقرأ الجمهور - بفتح الزاي - وقرأه الكسائي - بضمّ الزاي - ويتعلّق قولهم : « بزعمهم » بـ « قالوا » وجُعِلَ قوله : « بزعمهم » موابيا لبعض مقول القول ليكون متصلا بما جعلوه لله فيرتبّ التعجيب من حكمهم بأنّ ما كان لله يصل إلى شركائهم : أي ما اكتفوا بزعمهم الباطل حتى نكلوا عنه وأشركوا شركاءهم فيما جعلوه لله بزعمهم .

والباء الداخلة على « زعمهم » إمّا بمعنى « من » أي ، قالوا ذلك بألستهم ، وأعلنوا به قولاً ناشئا عن الزعم ، أي الاعتقاد الباطل ، وإمّا للسببية ، أي قالوا ذلك بسبب أنّهم زعموا .

ومحلّ الزعم هو ما اقتضته القسمة بين الله وبين الآلهة ، وإلاّ فإنّ القول بأنّه ملك لله قول حقّ . لكنّهم لما قالوه على معنى تعيين حقّ الله في ذلك النصيب دون نصيب آخر . كان قولهم زعما باطلا .

والشركاء هنا جمع شريك . أي شريك الله سبحانه في الإلهية ، ولما شاع ذلك عندهم صار كالعلم بالغلبة ، فلذلك استغني عن الإضافة إلى ما فيه المعنى المشتقّ منه أعني الشّركة ثمّ لأجل غلبته في هذا المعنى صار بمنزلة اللقب ، فلذلك أضافوه إلى ضميرهم . فقالوا : لشركائنا ، إضافة معنوية لا لفظية ، أي للشركاء الذين يُعرفون بنا . قال ابن عباس وأصحابه : كان المشركون يجعلون لله من حروثهم (يعني زرعهم وشجرهم) وأنعامهم نصيبا وللأوثان نصيبا فما كان للأصنام أنفقوه عليها وما كان لله أطعموه الضيفان والمساكين ولا يأكلون منه البتة .

وكانوا يجعلون البَحيرة والسائبة والوصيلة والحامي للأصنام . وذكر ابن اسحاق: أنّ (خولان) كان لهم صنم اسمه (عمّ أنس) يقسمون له من

أنعامهم وحروثهم قِسَمًا بينه وبين الله ، فما دخل في حقّ (عَمَّ أنس) من حقّ الله الَّذِي سَمَّوْهُ له تركوه للصنم وما دخل في حقّ الله من حقّ (عَمَّ أنس) ردّوه عليه ، ومنهم بطن يقال لهم (الأديم) قال : وفيهم نزل قوله تعالى : « وجعلوا لله ممّا ذرأ » الآية .

وقوله : « فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » . قال ابن عباس وقتادة : كانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الريح فحملت من الذي لله إلى الذي لشركائهم أقروّوه وقالوا : إنّ الله غنيّ عنه ، وإذا حملت من الذي لشركائهم إلى الذي لله ردّوه ، وإذا هلك ما لأصنامهم بقحط أخذوا بدله ممّا لله ، ولا يفعلون ذلك فيما لله ، وإذا انفجر من سقي ما جعلوه لله فساح إلى ما للذي للأصنام تركوه وإذا انفجر من سقي ما للأصنام فدخل في زرع الذي لله سدّوه . وكانوا إذا أصابتهم سنة استعانوا بما جعلوه لله فأنفقوه على أنفسهم وأقربّوا ما جعلوه لشركائهم للشركاء ، وإذا هلك الذي جعلوه للأصنام وكثر الذي جعلوه لله قالوا : ليس لآلهتنا بدّ من نفقة وأخذوا الذي جعلوه لله فأنفقوه عليها ، وإذا أجذب الذي لله وكثر الذي لآلهتهم قالوا : لو شاء الله أزكى الذي له فلا يردّون على ما جعلوه لله شيئاً ممّا لآلهتهم ، فقلوه : « فلا يصل إلى الله » مبالغة في صونه من أن يعطى لما لله لأنّه إذا كان لا يصل فهو لا يُترك إذا وصل بالأولى .

وعديّ « يصل » إلى اسم الجلالة وإلى اسم شركائهم . والمراد لا يصل إلى النصيب المجعول لله أو إلى لشركائهم لأنّهم لما جعلوا نصيباً لله ونصيباً لشركائهم فقد استشعروا ذلك النصيب محوزاً لمن جعل إليه وفي حوزة فكأنّه وصل إلى ذاته .

وجملة : « ساء ما يحكمون » استئناف لإنشاء ذمّ شرائعهم . وساء هنا بمعنى بِشْس : و « ممّا » هي فاعل « ساء » وهي موصولة وصلتها « يحكمون » ، وحذف العائد المنصوب ، وحذف المخصوص بالذمّ للدلالة : « جعلوا »

عليه ، أي : ساء ما يحكمون جعلهم ، وسمّاه حكما تهكما ، لأنهم نصبوا أنفسهم لتعيين الحقوق ، ففصلوا بحكمهم حق الله من حق الأصنام ، ثم أباحوا أن تأخذ الأصنام حق الله ولا يأخذ الله حق الأصنام ، فكان حكما باطلا كقوله : « أفحكم الجاهلية يغنون » .

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [137]

عطف على جملة : « وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، والتقدير : جعلوا وزين لهم شركاؤهم قتل أولادهم فقتلوا أولادهم ، فهذه حكاية نوع من أنواع تشريعاتهم الباطلة ، وهي راجعة إلى تصرفهم في ذريّاتهم بعد أن ذكر تصرفاتهم في نتائج أموالهم . ولقد أعظم الله هذا التزيين العجيب في الفساد الذي حسن أقبح الأشياء وهو قتلهم أحب الناس إليهم وهم أبناؤهم ، فشبهه بنفس التزيين للدلالة على أنه لو شاء أحد أن يمثله بشيء في الفظاعة والشناعة لم يسعه إلا أن يشبهه بنفسه لأنّه لا يبلغ شيء مبلغ أن يكون أظهر منه في بابه ، فيلجأ إلى تشبيهه بنفسه ، على حدّ قولهم « والسفاهة كاسمها » . والتقدير : وزين شركاء المشركين لكثير فيهم تزيينا مثل ذلك التزيين الذي زينوه لهم ، وهو هو نفسه ، وقد تقدّم تفصيل ذلك عند قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » في سورة البقرة .

ومعنى التزيين التحسين ، وتقدّم عند قوله تعالى : « كذلك زيننا لكل أمة عملهم » في هذه السورة .

ومعنى تزوين ذلك دنا أَنَّهُمْ خَيَّلُوا لَهُمْ فَوَائِدَ وَقُرْبًا فِي هَذَا الْقَتْلِ ،
بأن يُلْقُوا إِلَيْهِمْ مَضْرَّةَ الاسْتِجْدَاءِ وَالْعَارِ فِي النِّسَاءِ ، وَأَنَّ النِّسَاءَ لَا يَرْجَى
مِنْهُنَّ نَفْعَ لَلْقَبِيلَةِ . وَأَتَّهَنَ يُجَبِّنَ الْآبَاءَ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ ، وَيُؤْثِرْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ عَلَى آبَائِهِنَّ ، فَيَقْتُلُهُنَّ أَصْلَحُ وَأَنْفَعُ مِنْ اسْتِيقَائِهِنَّ ، وَنَحْوَ هَذَا
مِنَ الشَّبَهِ وَالتَّمْثِيلَاتِ ، فَيَأْتُونَهُمْ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي تَرُوجُ عَنْهُمْ ، فَإِنَّ
الْعَرَبَ كَانُوا مُفْرَطِينَ فِي الْغِيَرَةِ ، وَالْجَمُوحَ مِنَ الْغَلْبِ وَالْعَارِ كَمَا قَالَ
النَّبَاغَةُ :

حِذَارًا عَلَى أَنْ لَا تُنْأَلَ مَقَادَتِي وَلَا نَسُوتِي حَتَّى يَمُتْنَ حَرَائِرَا

وإنَّما قَالَ : « لكثير من المشركين » لأنَّ قَتْلَ الْأَوْلَادِ لَمْ يَكُنْ يَأْتِيهِ
جَمِيعُ الْقَبَائِلِ ، وَكَانَ فِي رُبْعَةٍ وَمَضْرُ ، وَهَمَا جَمَهْرَةُ الْعَرَبِ . وَلَيْسَ كُلُّ
الْآبَاءِ مِنْ هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ يَفْعَلُهُ .

وَأَسْنَدَ التَّزْوِينَ إِلَى الشَّرْكَاءِ : إِمَّا لِإِرَادَةِ الشَّيَاطِينِ الشَّرْكَاءِ ، فَالتَّزْوِينَ
تَزْوِينَ الشَّيَاطِينِ بِالسُّوسَةِ ، فَيَكُونُ الْإِسْنَادُ حَقِيقَةً عَقْلِيَّةً ، وَإِمَّا لِأَنَّ التَّزْوِينَ
نَشَأَ لَهُمْ عَنْ إِشَاعَةِ كِبَرَانِهِمْ فِيهِمْ ، أَوْ بِشَرْعٍ وَضَعَهُ لَهُمْ مَنْ وَضَعَ عِبَادَةَ
الْأَصْنَامِ وَفَرَضَ لَهَا حَقُوقًا فِي أَمْوَالِهِمْ مِثْلَ عَمْرُو بْنِ لُحَيٍّ ، فَيَكُونُ إِسْنَادُ
التَّزْوِينَ إِلَى الشَّرْكَاءِ مَجَازًا عَقْلِيًّا لِأَنَّ الْأَصْنَامَ سَبَبُ ذَلِكَ بِوَاسِطَةِ أَوْ بِوَاسِطَتَيْنِ ،
وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » .

وَالْمَعْنَى بِقَتْلِ الْأَوْلَادِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَحْوِهَا هُوَ الْوَأْدُ ، وَهُوَ دَفْنُ
الْبَنَاتِ الصَّغِيرَاتِ أَحْيَاءَ فَيَمْتَنُ بِغَمَّةِ التَّرَابِ ، كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ خَشْيَةً
الْفَقْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ » ، وَخَشْيَةً أَنْ
تَفْتَضَحَ الْأَنْثَى بِالْحَاجَةِ إِذَا هَلَكَ أَبُوهَا ، أَوْ مَخَافَةَ السَّيِّئِ . وَذَكَرَ فِي
الرُّوضِ الْأَنْثَى عَنِ النَّقَّاشِ فِي تَفْسِيرِهِ : أَنَّهُمْ كَانُوا يَشُدُّونَ مِنَ الْبَنَاتِ مَنْ

كانت زرقاء أو برشاء ، أو شَيْمَاء ، أو رَسْحَاء ، تشاؤما بهنّ - وهذا من خَوَر أوْهَامِهِمْ - وأنّ ذلك قوله تعالى : « وإذا الموءودة سئلت بأيّ ذنب قتلت » . وقيل : كانوا يفعلون ذلك من شدّة الغيرة خشية أن يأتين ما يَتَعَيَّرُ منه أهلهنّ . وقد ذكر المبرّد في الكامل ، عن أبي عبيدة : أنّ تميما منعت النعمان بن المنذر الإتاوة فوجّه إليهم أخاه الريان بن المنذر فاستاق النعم وسبى الذّراري ، فوفدت إليه بنو تميم فأنابوا وسألوه النساء فقال النعمان : كلّ امرأة اختارت أباهّا رُدّت إليه وإن اختارت صاحبها (أي الذي صارت إليه بالسبي) تُركت عليه فكُلّهنّ اختارت أباهّا إلّا ابنة لقيس بن عاصم اختارت صاحبها عمرو بن المشميرج ، فنذر قيس أن لا تولد له ابنة إلّا قتلها فهذا شيء يَعْتَلّ به من وأدوا ، يقولون : فعلناه أنفة ، وقد أكذب الله ذلك في القرآن، أي بقوله : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها » .

وذكر البخاري : أنّ أسماء بنت أبي بكر ، قالت : كان زيد بن عمرو بن نُثَيْل يُحْيِي الموءودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها . والمعروف أنّهم كانوا يثدّون البنت وقت ولادتها قبل أن تراها أمّها، قال الله تعالى : « وإذا بشر أحدكم بالأنثى ظلّ وجهه مُسْوَدًا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشرّ به أيمسكه على هُون أم يدسه في التراب ألاّ ساء ما يحكمون » . وكان صعصعة بن معاوية من مجاشع ، وهو جدّ الفرزدق ، يفدي الموءودة، يفعل مثل فعل زيد بن عمرو بن نفيل . وقد افتخر الفرزدق بذلك في شعره في قوله :
ومنا الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم توءد

وقد أدرك جدّه الإسلام فأسلم . ولا يعرف في تاريخ العرب في الجاهليّة قتل أولادهم غير هذا الوأد إلّا ما ورد من نذر عبد المطلب الذي

سندكره ، ولا ندري هل كان مثل ذلك يقع في الجاهلية قبل عبد المطلب أو أنه هو الذي ابتكر ذلك ولم يتابع عليه . ولا شك أن الواد طريقة سنّها أئمة الشّرك لقومهم ، إذ لم يكونوا يصدرون إلّا عن رأيهم ، فهي ضلالة ابتدعوها لقومهم بعلّة التخلّص من عوائق غزوهم أعداءهم ، ومن معرّة الفاقة والسبّاء ، وربّما كان سدنة الأصنام يحرضونهم على إنجاز أمر الموءودة إذا رأوا من بعضهم ثقافلا ، كما أشار إليه الكشّاف إذ قال : « والمعنى أن شركاءهم من الشّياطين أو من سدنة الأصنام زيّنوا لهم قتل أولادهم بالواد أو بالنحر » . وقال ابن عطية : والشركاء على هذه القراءة هم الذين يتناولون وأد بنات الغير فهم القاتلون .

وفي قصّة عبد المطلب ما يشهد لذلك فإنّه نذر إن رزقه الله عشرة أولاد ذكور ، ثمّ بلغوا معه أن يمنعوه من عدوّه ، لينحرن أحدهم عند الكعبة ، فلمّا بلغ بنوه عشرة بهذا المبلغ دعاهم إلى الوفاء بنذره فأطاعوه واستقسم بالأزلام عند (هبل) الصّنم وكان (هبل) في جوف الكعبة ، فخرج الزلم على ابنه عبد الله فأخذه ليذبحه بين (إساف) و (نائلة) فقالت له قريش : لا تذبحه حتّى تُعذر فيه ، فإن كان له فداء فديناه ، وأشاروا عليه باستفتاء عرّافة بخيبر فركبوا إليها فسألوها وقصّوا عليها الخبر فقالت : قرّبوا صاحبكم وقرّبوا عشرا من الإبل ثمّ اضربوا عليها وعليه بالقِداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتّى يرضى ربّكم ، وكذلك فعلوا فخرج القِديح على عبد الله فلم يزل عبد المطلب يزيد عشرا من الإبل ويضرب عليها بالقِداح ويخرج القِديح على عبد الله حتّى بلغت الإبل مائة فضرب عليها فخرج القِديح على الإبل فنحرها . ولعلّ سدنة الأصنام كانوا يخطّطون أمر الموءودة بقصد التقرب إلى أصنام بعض القبائل (كما كانت سنة موروثة في الكنعانيين من نبط الشّام يقربون صبيانهم إلى الصنم ملوك ، فتكون إضافة القتل إلى الشّركاء مستعملة في حقيقتها ومجازها .

وقرأ الجمهور : « زَيْنَ » - بفتح الزاي - ونصب : « قَتَلَ » على المفعولية لـ « زَيْنَ » ، ورفع « شركاؤهم » على أنه فاعل : « زَيْنَ » ، وجر « أولادهم » بإضافة قَتَلَ إليه من إضافة المصدر إلى مفعوله .

وقراه ابن عامر : « زَيْنَ لكثير من المشركين قَتَلَ أولادهم شركائهم » ببناء فعل « زَيْنَ » للنائب ، ورفع « قَتَلَ » على أنه نائب الفاعل ، ونصب « أولادهم » على أنه مفعول « قَتَلَ » ، وجر « شركائهم » على إضافة « قتل » إليه من إضافة المصدر إلى فاعله ، وكذلك رسمت كلمة « شركائهم » في المصحف العثماني الذي ببلاد الشام ، وذلك دليل على أن الذين رسموا تلك الكلمة راعوا قراءة « شركائهم » بالكسر وهم من أهل الفصاحة والتثبت في سند قراءات القرآن ، إذ كتب كلمة « شركائهم » بصورة الياء بعد الألف ، وذلك يدل على أن الهمزة مكسورة ، والمعنى ، على هذه القراءة : أن مزيّنًا زَيْنَ لكثير من المشركين أن يَقْتُلَ شركاؤهم أولادهم ، فإسناد القتل إلى الشركاء على طريقة المجاز العقلي إمّا لأنّ الشركاء سبب القتل إذا كان القتل قربانا للأصنام ، وإمّا لأنّ الذين شرعوا لهم القتل هم القائمون بديانة الشرك مثل عمرو بن لُحي ومن بعده ، وإذا كان المراد بالقتل الوأد ، فالشركاء سبب وإن كان الوأد قربانا للأصنام وإن لم يكن قربانا لهم (وهو المعروف) فالشركاء سبب السبب ، لأنه من شرائع الشرك .

وهذه القراءة ليس فيها ما يناكد فصاحة الكلام لأنّ الإعراب يُبين معاني الكلمات ومواقعها ، وإعرابها مختلف من رفع ونصب وجر بحيث لا لبس فيه ، وكلماتها ظاهرٌ إعرابها عليها ، فلا يعدّ ترتيب كلماتها على هذا الوصف من التعقيد المخلّ بالفصاحة ، مثل التعقيد الذي في قول الفرزدق : وما مثله في الناس إلا مُملّكا أبُو أمّه حيّ أبوه يقاربه - لأنّه ضمّ إلى خلل ترتيب الكلام أنّه خلل في أركان الجملة وما حفّ به من تعدّد الضمائر المتشابهة - وليس في الآية ممّا يخالف متعارف الاستعمال إلاّ الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، والخطب فيه

سهل : لأنّ المفعول ليس أجنبيا عن المضاف والمضاف إليه ، وجاء الزمخشري في ذلك بالتهويل . والضّجيج والعويل ، كيف يفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وزاد ظنبور الإنكار نغمة . فقال : « والذي حمّله على ذلك أنّه رأى في بعض المصاحف : « شركائهم » مكتوبا بالياء ، وهذا جري على عادة الزمخشري في توهين القراءات المتواترة ، إذا خالفت ما دُوّن عليه علم النحو ، لتوهّمه أنّ القراءات اختيارات وأقيسة من القراء ، وإنّما هي روايات صحيحة متواترة وفي الإعراب دلالة على المقصود لا تناكد الفصاحة . ومُدوّناتُ النحو ما قصد بها إلّا ضبط قواعد العربيّة الغالبة ليجري عليها الناشئون في اللّغة العربيّة ، وليست حاصرة لاستعمال فصحاء العرب ، والقراءُ حجّة على النّحاة دون العكس ، وقواعد النحو لا تمنع إلّا قياس المولّدين على ما ورد نادرا في الكلام الفصيح ، والندرة لا تنافي الفصاحة ، وهل يظنّ بمثل ابن عامر أنّه يقرأ القرآن متابعة لصورة حروف التهجي في الكتابة . ومثل هذا لا يروج على المبتدئين في علم العربيّة ، وهلاّ كان رسم المصحف على ذلك الشكل هاديا للزمخشري أن يتفطن إلى سبب ذلك الرسم . أمّا ابن عطية فقال : « هي قراءة ضعيفة في استعمال العرب » يريد أنّ ذلك الفصل نادر . وهذا لا يُثبت ضعف القراءة لأنّ الندور لا ينافي الفصاحة .

وبعدّ ابن عطية هذه القراءة بعدم مناسبتها للتعليل بقوله : « ليردّوهم » وتبعيد ابن عطية لها توهّم : إذ لا منافاة بين أن يُزيّنوا لهم قتل أولادهم وبين التعليل فإنّ التعليل يستعمل في العاقبة مجازا مثل قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا » . ومن العجيب قول الطبري : والقراءة التي لا أستجيز غيرها - بفتح الزاي ونصب : « القتل » وخفض : « أولادهم » ورفع : « شركاؤهم » . وذلك على عادته في نصب نفسه حكما في الترجيح بين القراءات .

واللّام في : « لِيُرَدُّوهُمْ » لام العاقبة إن كان المراد بالشركاء الأصنام ، أي زينوا لهم ذلك قصدا لنفغهم ، فانكشف عن أضرار جهلوهما . وإن كان المراد بالشركاء الجن ، أي الشياطين فاللّام للتعليل : لأن الإيقاع في الشر من طبيعة الوسواس لأنه يستحسن الشر وينساق إليه انسياق العقرب لللسع من غير قصد إلى كون ما يدعونهم إليه مرديا ومُذْهِبًا فيأنهم أولياؤهم لا يقصدون إضرارهم ولكنهم لما دعوهم إلى أشياء هي في نفس الأمر مضارة كان تزيينهم مُعْتَلًا بالإرداء والإلباس وإن لم يفقهوه بخلاف من دعا لسبب فتبين خلافه ، والضمير للشركاء . والتعليل للتزيين .

والإرداء : الإيقاع في الردى ، والردى : الموت ، ويستعمل في الضر الشديد مجازا أو استعارة وذلك المراد هنا .

ولبس عليه أوقعه في اللبس ، وهو الخلط والاشتباه ، وقد تقدم في قوله تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل » في سورة البقرة ، وفي قوله : « وللبسنا عليهم ما يلبسون » في هذه السورة . أي أن يخلطوا عليهم دينهم فيوهموهم الضلال رشدًا وأنه مراد الله منهم ، فهم يتقربون إلى الله وإلى الأصنام لتقربهم إلى الله ، ولا يفرقون بين ما يرضاه الله وما لا يرضاه ، ويخيلون إليهم أن وأد البنات مصلحة . ومن أقوالهم : « دفن البناء من المكرمات » (البناء . والمكرماه . بالهاء ساكنة في آخرهما . وأصلها ناء جمع المؤنث غيرت لتخفيف المثل) وهكذا شأن الشبه والأدلة الموهومة التي لا تستند إلى دليل . فمعنى : « وليلبسوا عليهم دينهم » أنهم يحدثون لهم دينًا مختلطًا من أصناف الباطل ، كما يقال : وسّع الجبة ، أي اجعلها واسعة ، وقيل : المراد ليدخلوا عليهم اللبس في الدين الذي كانوا عليه وهو دين إسماعيل - عليه السلام - ، أي الحنيفية ، فيجعلوا فيه أشياء من الباطل تختلط مع الحق .

والقول في معنى : « ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون » كالقول في قوله آنفا : « ولو شاء ربك ما فعلوه » وضمير الرقع في :

« فعلوه » يعود إلى المشركين ، أي : لو شاء الله لعصمهم من تزيين شركائهم ، أو يعود إلى الشركاء ، أي : لو شاء الله لصدّهم عن إغواء أتباعهم ، وضمير النصب يعود إلى القتل أو إلى التزيين على التوزيع ، على الوجهين في ضمير الرفع .

والمراد : « بما يفترون » ما يفترونه على الله بنسبة أنه أمرهم بما اقترفوه ، وكان افتراؤهم أتباعا لافتراء شركائهم ، فسمّاه افتراء لأنهم تقلّدوه عن غير نظر ولا استدلال ، فكأنّهم شاركوا الذين افتروه من الشياطين ، أو سدنة الأصنام ، وقادة دين الشرك ، وقد كانوا يموّهون على الناس أن هذا ممّا أمر الله به كما دلّ عليه قوله في الآية بعد هذه : « افتراء عليه » وقوله في آخر السورة : « قل هلمّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرّم هذا » .

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَأَنعَمٌ وَحَرِثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَّشَأَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [١٣٨]

عطف على جملة : « وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » وهذا ضرب آخر من دينهم الباطل ، وهو راجع إلى تحجير التصرف على أنفسهم في بعض أموالهم ، وتعيين مصارفه ، وفي هذا العطف إيحاء إلى أن ما قالوه هو من تلقين شركائهم وسدنة أصنامهم كما قلنا في معنى زيّن لهم شركائهم .

والإشارة بهذه وهذه إلى حاضر في ذهن المتكلّمين عند صدور ذلك القول : وذلك أن يقول أحدهم هذه الأصناف مصرفها كذا ، وهذه مصرفها كذا ، فالإشارة من محكيّ قولهم حين يشرعون في بيان أحكام

دينهم ، كما يقول القاسم : هذا لفلان ، وهذا للآخر . وأجمل ذلك هنا إذ لا غرض في بيانه لأن الغرض التعجيب من فساد شرعهم ، كما تقدم في قوله تعالى : « فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا » وقد صنفوا ذلك ثلاثة أصناف :

صنف محجّر على مالكة انتفاعه به ، وإنّما ينتفع به من يعينه المالك . والذي يؤخذ ممّا روي عن جابر بن زيد وغيره : أنّهم كانوا يعينون من أنعامهم وزرعهم وثمارهم شيئاً يحجّرون على أنفسهم الانتفاع به ، ويعينونه لمن يشاءون من سدنة بيوت الأصنام ، وخدمتها ، فتحرّ أو تذبح عندما يرى من عُيِّنَ له ذلك ، فتكون لحاجة الناس والوافدين على بيوت الأصنام وإضافتهم ، وكذلك الزرع والثمار تدفع إلى من عُيِّنَ له ، يصرفها حيث يتعين . ومن هذا الصنف أشياء معيّنة بالاسم ، لها حكم منضبط مثل البحيرة : فإنّها لا تُنحر ولا تُؤكل إلّا إذا ماتت حتف أنفها ، فيحلّ أكلها للرجال دون النساء ، وإذا كان لها درّ لا يشربه إلّا سدنة الأصنام وضيوفهم ، وكذلك السائبة يتنفع بدرّها أبناء السبيل والسدنة ، فإذا ماتت فأكلها كالبحيرة ، وكذلك الحامي ، كما تقدّم في سورة المائدة .

فمعنى « لا يطعمها » لا يأكل لحمها ، أي يحرم أكل لحمها . ونون الجماعة في « نشاء » مراد بها القائلون ، أي يقولون لا يطعمها إلّا من نشاء ، أي من نُعيِّن أن يطعمها ، قال في الكشف : يعنون خدّم الأوثان والرجال دون النساء .

والحرث أصله شق الأرض بآلة حديدية ليزرع فيها أو يغرس ، ويطلق هذا المصدر على المكان المحروث وعلى الأرض المزروعة والمغروسة وإن لم يكن بها حرث ومنه قوله تعالى : « أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » فسماه حرثاً في وقت جذاذ الثمار .

والحِجْرُ : اسم للمحجّر الممنوع ، مثل ذبيح للمذبوح ، فمنع الأنعام منع أكل لحومها ، ومنع الحرث منع أكل الحب والتمر والثمار ، ولذلك قال : « لا يطعمها إلاّ من نشاء » .

وقوله : « بزعمهم » معترض بين « لا يطعمها إلاّ من نشاء » وبين : « وأنعام حرّمت ظهورها » .

والباء في : « بزعمهم » بمعنى (عن) ، أو للملابسة ، أي يقولون ذلك باعتقادهم الباطل ، لأنّهم لمّا قالوا : « لا يطعمها » لم يريدوا أنّهم منعوا النّاس أكلها إلاّ من شاءوه ، لأنّ ذلك من فعلهم وليس من زعمهم . وإنّما أرادوا بالنّفي نفي الإباحة ، أي لا يحلّ أن يطعمها إلاّ من نشاء ، فالمعنى : اعتقدوها حراما لغير من عيّنوه ، حتّى أنفسهم ، وما هي بحرام ، فهذا موقع قوله : « بزعمهم » . وتقدّم القول على الباء من قوله : « بزعمهم » أنّنا عند قوله تعالى : « فقالوا هذا لله بزعمهم » .

والصّنف الثّاني : أنعام حرّمت ظهورها ، أي حرّم ركوبها ، منها الحامى : لا يركبه أحد ، وله ضابط متبع كما تقدّم في سورة المائدة ، ومنها أنعام يحرمون ظهورها ، بالتّدبر ، يقول أحدهم : إذا فعلت النّاقة كذا من نسلٍ أو مواصلة بين عدّة من إناث ، وإذا فعل الفحل كذا وكذا ، حرّم ظهره . وهذا أشار إليه أبو نواس في قوله مادحا الأمين :
وإذا المطيُّ بنا بلغنّ محمدا فظهرهن على الرجال حرام

فقوله : « وأنعام حرّمت ظهورها » معطوف على : « أنعام وحرث حجر » فهو كخبر عن اسم الإشارة . وعلم أنّه عطف صنف لوروده بعد استيفاء الأوصاف التي أجريت على خبر اسم الإشارة والمعطوف عليه عقبه . والتقدير : وقالوا هذه أنعام وحرث حجر وهذه أنعام حرّمت ظهورها .

وبُني فعل : « حُرِّمَتْ » للمجهول : لظهور الفاعل ، أي حرّم الله ظهورها بقرينة قوله : « افترأ عليه » .

والصّنف الثالث : أنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، أي لا يذكرون اسم الله عند نحرها أو ذبحها ، يزعمون أن ما أهدى للجنّ أو للأصنام يُذكر عليه اسم ما قُرّب له ، ويزعمون أن الله أمر بذلك لتكون خالصة القربان لما عيّنت له ، فلاجل هذا الزعم قال تعالى : « افترأ عليه » إذ لا يعقل أن ينسب إلى الله تحريم ذكر اسمه على ما يقرب لغيره لولا أنهم يزعمون أن ذلك من القربان الذي يرضي الله تعالى ، لأنّه لشركائه ، كما كانوا يقولون : « لبيّك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » .

وعن جماعة من المفسرين ، منهم أبو وائل (١) : الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها كانت لهم سنة في بعض الأنعام أن لا يُحجّ عليها ، فكانت تُركب في كل وجه إلا الحجّ ، وأنها المراد بقوله : « وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها » لأنّ الحجّ لا يخلو من ذكر الله حين الكون على الرّاحلة من تلبية وتكبير ، فيكون : « لا يذكرون اسم الله عليها » كناية عن منع الحجّ عليها ، والظاهر أن هذه هي الحامي والبحيرة والسّابة ، لأنّهم لما جعلوا نفعها للأصنام لم يجيزوا أن تستعمل في غير خدمة الأصنام .

وقوله : « وأنعامٌ لا يذكرون اسم الله عليها » معطوف على قوله :

(١) الأظهر أنّه شقيق بن سلمة الأسدي الكوفي من أصحاب ابن مسعود توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ويحتمل أنّه عبد الله بن بحير — بموحدة مفتوحة فحاء مهملة مكسورة — المرادي الصنعاني القاص ، وثقّه ابن معين .

« وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا » وهو عطف صنف على صنف ، بقرينة استيفاء أوصاف المعطوف عليه ، كما تقدم في نظيره .

وانتصب : « افتراء عليه » على المفعولية المطلقة لـ « قالوا » ، أي قالوا ذلك قول افتراء ، لأنّ الافتراء بعض أنواع القول ، فصَحَّ أن ينتصب على المفعول المطلق المبين لنوع القول ، والافتراء الكذب الذي لا شبهة لقائله فيه وتقدم عند قوله تعالى : « فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون » في سورة آل عمران ، وعند قوله : « ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب » في سورة العقود . وإنّما كان قولهم افتراء : لأنّهم استندوا فيه لشيء ليس واردا لهم من جانب الله ، بل هو من ضلال كبرائهم .

وجملة : « سيجزيهم بما كانوا يفترون » استئناف بياني ، لأنّ الافتراء على الخالق أمر شنيع عند جميع الخلق ، فالإخبار به يثير سؤال من يسأل عمّا سيلقونه من جزاء افتراءهم ، فأجيب بأنّ الله سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقد أبهم الجزاء للتهويل لتذهب النفوس كلّ مذهب ممكن في أنواع الجزاء على الإثم ، والباء بمعنى (عن)، أو للبديهة والعوض .

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُ وَحَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [439]

عطف على قوله : « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر » . وأعيد فعل : « قالوا » لاختلاف غرض المقول .

والإشارة إلى أنعام معروفة بينهم بصفاتها ، كما تقدّم ، أو إلى الأنعام المذكورة قبل . ولا يتعلّق غرض في هذه الآية بأكثر من إجمال الأشياء التي حرموها لأنّ المقصود التعجيب من فساد شرعهم كما تقدّم آنفاً ، وهذا خبر عن دينهم في أجنّة الأنعام التي حجروها أو حرّموا ظهورها ، فكانوا يقولون في أجنّة البحيرة والسّائبة : إذا خرجت أحياء يحلّ أكلها للذكور دون النساء ، وإذا خرجت ميتة حلّ أكلها للذكور والنساء . فالمراد بما في البطون الأجنّة لا محالة لقوله : « وإن يكن ميتة » وقد كانوا يقولون في ألبان البحيرة والسّائبة : يشربها الرجال دون النساء ، فظنّ بعض المفسّرين أنّ المراد بما في بطون الأنعام ألبانها ، وروي عن ابن عباس ، ولا ينبغي أن يكون هو معنى الآية ولكن محمل كلام ابن عباس أنّ ما في البطون يشمل الألبان لأنّها تابعة للأجنّة وناشئة عن ولادتها .

والخالصة : السّائغة ، أي المباحة ، أي لا شائبة حرّج فيها ، أي في أكلها ، ويقابله قوله : « ومحرّم » .

وتأنيث « خالصة » لأنّ المراد بما الموصولة « الأجنّة » فروعياً معنى (ما) وروعي لفظ (ما) في تذكير « محرّم » .

والمحرّم : الممنوع ، أي ممنوع أكله ، فإسناد الخلوص والتحريم إلى الذّوات بتأويل تحريم ما تقصد له وهو الأكل أو هو و الشرب بدلالة الاقتضاء .

والأزواج جمع زوج ، وهو وصف للشيء الثاني لغيره ، فكل واحد من شيئين اثنين هو زوج ، ولذلك سمّي حليل المرأة زوجاً وسميت المرأة حليلة الرجل زوجاً ، وهو وصف يلزم حالة واحدة فلا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع . وقد تقدّم عند قوله تعالى : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » في سورة البقرة .

وظاهر الآية أن المراد أنه محرّم على النساء المتزوجات لأنّهم سمّوهنّ أزواجاً ، وأضافوهنّ إلى ضميرهم ، فتعيّن أنّهنّ النساء المتزوجات بهنّ كما يقال : امرأة فلان . وإذا حملناه على الظاهر - وهو الأولى عندي - كان ذلك دالاً على أنّهم كانوا يتشاءمون بأكل الزوجات لشيء ذي صفة كانوا يكرهون أن تصيب نساءهم : مثل العقم ، أو سوء المعاشرة مع الأزواج ، والنشوز ، أو الفراق ، أو غير ذلك من أوهام أهل الجاهليّة وتكاذيبهم ، أو لأنّه نتاج أنعام مقدّسة ، فلا تحلّ للنساء ، لأنّ المرأة مرموقة عند القدماء قبل الإسلام بالنجاسة والخبائث ، لأجل الحيض ونحو ذلك ، فقد كانت بنو إسرائيل يمنعون النساء دخول المساجد ، وكان العرب لا يؤاكلون الحائض ، وقالت كبشة بنت معديكرب تعير قومها : ولا تشربوا إلّا فضول نساءكم إذا ارتمكت أعقابهنّ من الدّم

وقال جمهور المفسّرين : أطلق الأزواج على النساء مطلقاً ، أي فهو مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد ، فيشمل المرأة الأيتّم ولا يشمل البنات ، وقال بعضهم : أريد به البنات أي بمجاز الأوّل فلعلّهم كانوا يتشاءمون بأكل البنات منه أن يصيبهنّ عسر التزوّج ، أو ما يتعيّرون منه ، أو نحو ذلك . وكانت الأحوال الشائعة بينهم دالّة على المراد .

وأما قوله : « وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء » أي إن يولد ما في بطون الأنعام ميتاً جاز أكله للرجال والأزواج ، أو للرجال والنساء ، أو للرجال والنساء والبنات ، وذلك لأنّ خروجه ميتاً يبطل ما فيه من الشؤم على المرأة ، أو يذهب قداسه أو نحو ذلك .

وقرأ الجمهور : « وإن يكن » - بالتحتيّة ونصب « ميتة » . وقرأ ابن كثير - برفع ميتة - ، على أنّ كان تامّة ، وقد أجرى ضمير : « يَكُنْ » على التذكير : لأنّه جائز في الخبر عن اسم الموصول المفرد اعتبار التذكير

لتجريد لفظه عن علامة تأنيث ، وقد يراعى المقصود منه فيجري الإخبار على اعتباره ، وقد اجتمعا في قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك » .

وقرأ ابنُ عامر - بالفوقية - على اتباع تأنيث «خالصة» ، أي إن تكن الأجنة ، وقرأ « مَيْتة » - بالنصب - ، وقرأه أبو بكر عن عاصم - بالتأنيث والنصب - .

وجملة : « سيجزيهم وصفهم » مستأنفة استئنافا بيانيا ، كما قلتُ في جملة : « سيجزيهم بما كانوا يفترون » آنفا .

والوصف : ذكر حالات الشيء الموصوف وما يتميز به لمن يريد تمييزه في غرض ما ، وتقدم في قوله « سبحانه وتعالى عما يصفون » في هذه السورة .

والوصف ، هنا : هو ما وصفوا به الأجنة من حِلٍّ وحرمة لفريق دون فريق ، فذلك وصف في بيان الحرام والحلال منه كقوله تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام » .

وجزاؤهم عنه هو جزاء سوءٍ بقربة المقام ، لأنه سُمي مزاعمهم السابقة افتراء على الله .

وجعل الجزاء متعديا للوصف بنفسه على تقدير مضاف ، أي : سيجزيهم جزاء وصفهم . ضمن « يجزيهم » معنى يُعطيهم ، أي جزاء وفاقا له .

وجملة : « إنَّه حكيم عليم » تعليل لكون الجزاء موافقا لجرم وصفهم . وتؤذن (إن) بالربط والتعليل ، وتُغني غناء الفاء ، فالحكيم يضع الأشياء مواضعها ، والعليم يطلع على أفعال المجزيين ، فلا يضيع منها ما يستحق الجزاء .

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا
مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [140]

تذييل جعل فذلکة للکلام السابق ، المشتمل على بيان ضلالهم في قتل
أولادهم ، وتحجير بعض الحلال على بعض من أحل له .

وتحقيق الفعل بد (قد) للتنبيه على أن خسرانهم أمر ثابت ، فيفيد التحقيق
التعجيب منهم كيف عموا عما هم فيه من خسرانهم . وعن سعيد
ابن جبیر قال ابن عباس : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما
فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام « قد خسر الذين قتلوا أولادهم
سفها بغير علم - إلى - وما كانوا مهتدين » . أي من قوله تعالى « وجعلوا لله
مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا » وجعلها فوق الثلاثين ومائة تقریبا ،
وهي في العدد السادسة والثلاثون ومائة .

ووصف فعلهم بالخسران لأن حقيقة الخسران نقصان مال التاجر ،
والتاجر قاصد الربح وهو الزيادة ، فإذا خسر فقد باء بعكس ما عمل
لأجله (ولذلك كثر في القرآن استعارة الخسران لعمل الذين يعملون طلبا
لمرضاة الله وثوابه فيقعون في غضبه وعقابه ، لأنهم اتعبوا أنفسهم
فحصلوا عكس ما تعبوا لأجله) ذلك أن هؤلاء الذين قتلوا أولادهم
قد طلبوا نفع أنفسهم بالتخلص من أضرار في الدنيا مُحْتَمَلٍ لحاقها
بهم من جراء بناتهم ، فوقعوا في أضرار محققة في الدنيا وفي الآخرة ،
فإن النسل نعمة من الله على الوالدين يأنسون به ويجدون له لكفاية مهماتهم ،
ونعمة على القبيلة تكثر وتعزز ، وعلى العالم كله بكثرة من يعمره وبما
ينتفع به الناس من مواهب النسل وصنائه ، ونعمة على النسل نفسه بما يناله
من نعيم الحياة وملذاتها . ولتلك الفوائد اقتضت حكمة الله إيجاد نظام

التناسل ، حفظا للتنوع ، وتعميرا للعالم ، وإظهارا لما في الإنسان من مواهب تنفعه وتنفع قومه ، على ما في عملهم من اعتداء على حقّ البنت الذي جعله الله لها وهو حقّ الحياة إلى انقضاء الأجل المقدّر لها وهو حقّ فطري لا يملكه الأب فهو ظلم بيّن لرجاء صلاح لغير المظلوم ولا يُضَرّ بأحد ليستفيع غيره . فلما قتل بعض العرب بناتهم بالوأد كانوا قد عطلوا مصالحَ عظيمة محقّقة ، وارتكبوا به أضرارا حاصلة ، من حيث أرادوا التخلص من أضرار طفيفة غير محقّقة الوقوع ، فلا جرم أن كانوا في فعلهم كالتاجر الذي أراد الربح فباع بضائع أصل ماله ، ولأجل ذلك سمّى الله فعلهم : سفها ، لأنّ السفه هو خفة العقل واضطرابه . وفعلهم ذلك سفه محض ، وأي سفه أعظم من إضاعة مصالح جمّة وارتكاب أضرار عظيمة وجناية شنيعة ، لأجل التخلص من أضرار طفيفة قد تحصل وقد لا تحصل . وتعريف المسند إليه بالموصولية للإيماء إلى أنّ الصلّة علّة في الخبر فإنّ خسرانهم مسبّب عن قتل أولادهم .

وقوله : « سفها » منصوب على المفعول المطلق المبين لنوع القتل : أنه قتلُ سفه لا رأي لصاحبه ، بخلاف قتل العدو وقتل القاتل ، ويجوز أن ينتصب على الحال من « الذين قتلوا » . وصفوا بالمصدر لأنّهم سفهاء بالغون أقصى السفه .

والباء في قوله : « بغير علم » للملاسة ، وهي في موضع الحال إمّا من « سفها » فتكون حالا مؤكّدة ، إذ السفه لا يكون إلّا بغير علم ، وإمّا من فاعل « قتلوا » ، فإنّهم لمّا فعلوا القتل كانوا جاهلين بسفاهتهم وبشناعة فعلهم وبعاقبة ما قدّروا حصوله لهم من الضرّ ، إذ قد يحصل خلاف ماقدّروه ولو كانوا يزنون المصالح والمفاسد لما أقدموا على فعلتهم الفظيعة .

والمقصود من الإخبار عن كونه بغير علم ، بعد الإخبار عنه بأنّه

سفّه . التّنبيه على أنّهم فعلوا ذلك ظنّاً منهم أنّهم أصابوا فيما فعلوا ، وأنّهم علموا كيف يرّأبّون ما في العالم من المفساد ، وينظّمون حياتهم أحسن نظام ، وهم في ذلك مغرورون بأنفسهم : وجاهلون بأنّهم يجهلون « الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا » .

وتقدّم الكلام على الوادّ آتفا ، ويأتي في سورة الإسراء عند قوله : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » .

وقرأ الجمهور : « قتلوا أولادهم » - بتخفيف التّاء - وقرأه ابن عامر - بتشديد التّاء - ، لأنّه قتل بشدّة ، وليست قراءة الجمهور مفيدة هذا المعنى ، لأنّ تسليط فعل القتل على الأولاد يفيد أنّه قتل فظيع .

وقوله : « وحرّموا ما رزقهم الله » نعتى عليهم خسرانهم في أن حرّموا على أنفسهم بعض ما رزقهم الله ، فحرّموا الانتفاع به ، وحرّموا الناس الانتفاع به ، وهذا شامل لجميع المشركين ، بخلاف الذين قتلوا أولادهم . والموصول الذي يراد به الجماعة يصحّ في العطف على صلته أن تكون الجمل المتعاطفة مع الصّلة موزعة على طوائف تلك الجماعة كقوله تعالى : « إنّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيّين بغير حقّ ويقتلون الذين يأمرّون بالقسط من الناس فيشرّهم بعذاب أليم » .

وانتصب « افتراء » على المفعول المطلق لـ « حرّموا » : لبيان نوع التّحريم بأنّهم نسبوه لله كذبا .

وجملة « قد ضلّوا » استئناف ابتدائي لزيادة النّداء على تحقّق ضلالهم .

والضّلال : خطأ الطريق الموصّل إلى المقصود ، فهم راموا البلوغ إلى مصالح دنيوية ، والتّقرب إلى الله وإلى شركائهم ، فوقعوا في المفساد العظيم ، وأبعدهم الله بذنوبهم ، فلذلك كانوا كمن رام الوصول فسلّك طريقا آخر .

وَعَطَفَ « وما كانوا مهتدين » على « قد ضلّوا » لقصد التأكيد لمضمون جملة « ضلّوا » لأنّ مضمون هذه الجملة ينفي ضدّ الجملة الأولى فتؤول إلى تقرير معناها .

والعرب إذا أكدوا بمثل هذا قد يأتون به غير معطوف نظرا لمآل مفاد الجملتين ، وأنّهما باعتبارهما بمعنى واحد ، وذلك حقّ التأكيد كما في قوله تعالى : « أموات غيرُ أحياء » وقوله : « فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير » . وقول الأعشى :

إمّا تريننا حُفّة لا نعمال لنا

وقد يأتون به بالعطف وهو عطف صوري لأنّه اعتداد بأنّ مفهوم الجملتين مختلف ، ولا اعتداد بمآلهما كما في قوله تعالى : « وأضلّ فرعون قومه وما هدى » وقوله : « قد ضللتُ إذنّ وما أنا من المهتدين » وقول المتنبي :

والبيّن جارّ على ضُففي وما عدّلا

وكذلك جاء في هذه الآية ليفيد ، بالعطف ، أنّهما خبران عن مساوئهم . و (كَانَ) هنا في حكم الزائدة : لأنّها زائدة معنى . وإن كانت عاملة ، والمراد : وما هم بمهتدين ، فزيادة (كان) هنا لتحقيق النفي مثل موقعها مع لام الجحود ، وليس المراد أنّهم ما كانوا مهتدين قبل أن يقتلوا أولادهم ويُحرّموا رزقهم الله ، لأنّ هذا لا يتعلّق به غرض بليغ .

« وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ »

الواو في : « وهو الذي أنشأ » للعطف . فيكون عطف هذه الجملة على جملة « وحرّموا ما رزقهم الله » تذكيراً بمنّة الله تعالى على الناس بما أنشأ لهم في الأرض ممّا ينفعهم ، فبعد أن بيّن سوء تصرف المشركين فيما منّ به على الناس كلّهم مع تسفيه آرائهم في تحريم بعضها على أنفسهم ، عطف عليه المنّة بذلك استنز الابهام إلى إدراك الحقّ والرّجوع عن الغي ، ولذلك أعيد في هذه الآية غالب ما ذكر في نظيرتها المتقدمة في قوله : « وهو الذي أنزل من السّماء ماء فأخرجنا به نبات كلّ شيء فأخرجنا منه خضيراً نُخرج منه حبّاً متراكباً ومن النّخل من طلعها قنوان دانية وجنّات من أعناب والزيتون والرّمّان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويتّبعه » لأنّ المقصود من الآية الأولى الاستدلال على أنّه الصّانع ، وأنّه المنفرد بالخلق ، فكيف يشركون به غيره . ولذلك ذيلها بقوله : « إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » ، وعطف عليها قوله . « وجعلوا لله شركاء الجنّ » الآيات .

والمقصود من هذه : الامتنان وإبطال ما ينافي الامتنان ولذلك ذيلت هذه بقوله « كلّوا من ثمره إذا أثمر » .

والكلام موجّه إلى المؤمنين والمشركين ، لأنّه اعتبار وامتنان ، وللمؤمنين الحظّ العظيم من ذلك ، ولذلك أعقب بالأمر بأداء حقّ الله في ذلك بقوله : « وآتوا حقّه يوم حصّاده » إذ لا يصلح ذلك الخطاب للمشركين .

وتعريف المسند يفيد الاختصاص ، أي هو الذي أنشأ لا غيره ، والمقصود من هذا الحصر إبطال أن يكون لغيره حظّ فيها ، لإبطال ما جعلوه من الحرث والأنعام من نصيب أصنامهم مع أن الله أنشأه .

والإنشاء : الإيجاد والخلق ، قال تعالى « إنّنا أنشأناهنّ إنشاءً » أي نساء الجنّة .

والجنّات هي المكان من الأرض النَّابت فيه شجر كثير بحيث يَجْنِي أي يَسْتَر الكائن فيه ، وقد تقدّم عند قوله « كمثل جنة بَرْبُوءة » في سورة البقرة . وإنشاؤها لإنباتها وتيسير ذلك بإعطائها ما يعينها على النماء ، ودفع ما يفسدها أو يقطع نبتها ، كقوله « أأنتم تزرعونه أم نحن الزّارعون » .

والمعروشات : المرفوعات . يقال : عرش الكرمة إذا رفعها على أعمدة ليكون نماؤها في ارتفاع لا على وجه الأرض ، لأنّ ذلك أجود لعبها إذ لم يكن مُلقى على وجه الأرض . وعرش فعل مشتقّ من العرش وهو السقف ، ويقال للأعمدة التي تُرفع فوقها أغصان الشجر فتصير كالسقف يَسْتَظِلّ تحته الجالس : العريش . ومنه ما يذكر في السيرة : العريش الذي جعل للنبيء - صلتى الله عليه وسلّم - يوم بدر ، وهو الذي بني على بقعته مسجد بعد ذلك هو اليوم موجود ببدر .

ووصف الجنّات بمعروشات مجاز عقلي ، وإنّما هي معروش فيها ، والمعروش أشجارها . وغير المعروشات المبقة كرومها منبسطة على وجه الأرض وأرفع بقليل ، ومن محاسنها أنّها تزيّن وجه الأرض فيرى الراي جميعها أخضر .

وقوله : « معروشات وغير معروشات » صفة : لـ « جنّات » قصد منها تحسين الموصوف والتذكير بنعمة الله أن ألهم الإنسان إلى جعلها على صفتين ، فإنّ ذكر محاسن ما أنشأه الله يزيد في المنّة ، كقوله في شأن الأنعام « ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تسرحون » .

و« مختلنا أكله » حال من الزرع ، وهو أقرب المذكورات إلى اسم الحال ، ويعلم أنّ النخل والجنّات كذلك ، والمقصود التذكير بعجيب خلق الله ، فيفيد ذكر الحال مع أحد الأنواع تذكّر مثله في النوع الآخر ، وهذا كقوله تعالى : « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضّوا إليها » أي وإليه ،

وهي حال مقدرة على ظاهر قول النحويين لأنها مستقبلة عن الإنشاء . وعندى أن عامل الحال إذا كان ممّا يحصل معناه في أزمنة . وكانت الحال مقارنة لبعض أزمنة عاملها ، فهي جديرة بأن تكون مقارنة ، كما هنا .

« والأكل » - بضمّ الهمزة وسكون الكاف - لينافع وابن كثير ، و - بضمّهما - قرأه الباقر ، هو الشيء الذي يؤكل ، أي مختلفا ما يؤكل منه .

وعطف : « والزيتونَ والرمانَ » على : « جناتٍ والتخلّ والزرع » . والمراد شجر الزيتون وشجر الرمان . وتقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى : « وهو الذي أنزل من السماء ماء » الآية في هذه السورة .

إلا أنه قال هناك : « مُشْتَبِهًا » وقال هنا : « متشابهًا » وهما بمعنى واحد لأن التشابه حاصل من جانبيين فليست صيغة التفاعل للمبالغة ألا ترى أنهما استويا في قوله « وغير متشابه » في الآيتين .

﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [141]

غُيِّرَ أسلوبُ الحكاية عن أحوال المشركين فأُقبل على خطاب المؤمنين بهذه المنّة وهذا الحكم : فهذه الجمل معترضة وهي تعريض بتسفيه أحلام المشركين لتحريمهم على أنفسهم ما منّ الله به عليهم .

والثمر : - بفتح الثاء والميم - وبضمّهما - وقرئ بهما كما تقدّم بيانه في نظيرتها .

والأمر للإباحة بقريضة أن الأكل من حقّ الإنسان الذي لا يجب عليه

أن يفعله، فالقرينة ظاهرة . والمقصود الردّ على الذين حجّروا على أنفسهم بعض الحرث .

و (إذا) مفيدة للتوقيت لأنها ظرف ، أي : حين إثماره ، والمقصود من التقييد بهذا الظرف إباحة الأكل منه عند ظهوره وقبل حصاده تمهيدا لقوله : « وآتوا حقه يوم حصاده » أي : كلوا منه قبل أداء حقه . وهذه رخصة ومنّة ، لأنّ العزيمة أن لا يأكلوا إلاّ بعد إعطاء حقه كيلا يستأثروا بشيء منه على أصحاب الحقّ ، إلاّ أن الله رخص للناس في الأكل توسعة عليهم أن يأكلوا منه أخضر قبل يسه لأنّهم يستطيعونه كذلك ، ولذلك عقّبه بقوله « ولا تسرفوا » كما سيأتي .

وإفراد الضميرين في قوله : « من ثمره إذا أثمر » على اعتبار تأويل المعاد بالمذكور .

والأمر في قوله : « وآتوا حقه يوم حصاده » خطاب خاصّ بالمؤمنين كما تقدم . وهذا الأمر ظاهر في الوجوب بقرينة تسمية الأمور به حقّا . وأضيف الحقّ إلى ضمير المذكور لأدنى ملازمة ، أي الحقّ الكائن فيه .

وقد أُجمل الحقّ اعتمادا على ما يعرفونه ، وهو : حقّ الفقير ، والقريب ، والضعفاء ، والجيرة . فقد كان العرب ، إذا جدّوا ثمارهم ، أعطوا منها من يحضر من المساكين والقراة . وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : « فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين » . فلما جاء الإسلام أوجب على المسلمين هذا الحقّ وسمّاه حقّا كما في قوله تعالى : « والذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم » . وسمّاه الله زكاة في آيات كثيرة ولكنه أجمل مقداره وأجمل الأنواع التي فيها الحقّ ووكلمهم في ذلك إلى حرصهم على الخير ، وكان هذا قبل شرع نصيبها ومقاديرها . ثم شرعت الزكاة وبيّنت السنة نصيبها ومقاديرها .

والحِصَاد - بكسر الحاء وفتحها - قطع الثمر والحب من أصوله ، وهو مصدر على وزنِ الفِعال أو الفَعَال . قال سيبويه « جاءوا بالمصادر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال فِعال وذلك الصَّرام والجِرَاز والجِدَاد والْقِطَاع والحِصَاد ، وربما دخلتِ اللّغة في بعض هذا (أي اختلفت اللّغاتُ فقال بعض القبائل حَصَاد - بفتح الحاء - وقال بعضهم حصاد - بكسر الحاء -) فكان فيه فِعال وفَعَال فإذا أرادوا الفعل على فَعَلْتُ قَالُوا حَصَدْتُهُ حَصْدًا وَقَطَعْتُهُ قَطْعًا إِنَّمَا تريد العمل لا انتهاء الغاية » .

وقرأه نافع ، وابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف - بكسر الحاء - . وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، ويعقوب - بفتح الحاء - .

وقد فرضت الزكاة في ابتداء الإسلام مع فرض الصلّاة ، أو بعده بقليل ، لأنّ افتراضها ضروري لإقامة أود الفقراء من المسلمين وهم كثيرون في صدر الإسلام ، لأنّ الذين أسلموا قد نبذهم أهلودم ومواليهم ، ووجدوا حقوقهم ، واستباحوا أموالهم ، فكان من الضروري أن يسدّ أهل الجدة والقوّة من المسلمين خللتهم . وقد جاء ذكر الزكاة في آيات كثيرة ممّا نزل بمكة مثل سورة المزمّل وسورة البينة وهي من أوائل سور القرآن : فالزكاة قرينة الصلّاة . وقول بعض المفسرين : الزكاة فرضت بالمدينة ، يحمل على ضبط مقاديرها بآية « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها » وهي مدنيّة ، ثمّ تطرّقوا فمنعوا أن يكون المراد بالحقّ هنا الزكاة ، لأنّ هذه السورة مكّيّة بالاتفاق ، وإنّما تلك الآية مؤكّدة للوجوب بعد الحلول بالمدينة ، ولأنّ المراد منها أخذها من المنافقين أيضا ، وإنّما ضبطت الزكاة ، ببيان الأنواع المزكاة ومقدار النّصيب والمُخْرَج منه ، بالمدينة ، فلا ينافي ذلك أن أصل وجوبها في مكة ، وقد حملها مالك على الزكاة المميّنة المضبوطة في رواية ابن القاسم

وابن وهب عنه وهو قول ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وسعيد بن المسيب ، وجمع من التابعين كثير . ولعلهم يرون الزكاة فرضت ابتداء بتعيين النصب والمقادير ، وحملها ابن عمر ، وابن الحنفية ، وعلي بن الحسين ، وعطاء ، وحماد ، وابن جبير ، ومجاهد ، على غير الزكاة وجعلوا الأمر للندب ، وحملها السدي ، والحسن ، وعطية الموفى ، والنخعي ، وسعيد بن جبير ، في رواية عنه ، على صدقة واجبة ثم نسخها الزكاة .

وإنما أوجب الله الحق في الثمار والحب يوم الحصاد : لأن الحصاد إنما يراد للادخار وإنما يدخر المرء ما يريد للقت ، فالادخار هو مظنة الغنى الموجبة لإعطاء الزكاة ، والحصاد مبدأ تلك المظنة ، فالذي ليست له إلا شجرة أو شجرتان فإنما يأكل ثمرها مخضورا قبل أن ييبس ، فلذلك رخصت الشريعة لصاحب الثمرة أن يأكل من الثمر إذا أثمر ، ولم توجب عليه إعطاء حق الفقراء إلا عند الحصاد . ثم إن حصاد الثمار ، وهو جذاؤها ، هو قطعها لادخارها ، وأما حصاد الزرع فهو قطع السنبيل من جذور الزرع ثم يفرك الحب الذي في السنبيل ليدخر ، فاعتبر ذلك fark بقیة للحصاد . ويظهر من هذا أن الحق إنما وجب فيما يحصد من المذكورات مثل الزبيب والتمر والزرع والزيتون ، من زيتة أو من حبه ، بخلاف الرمان والفواكه .

وعلى القول المختار : فهذه الآية غير منسوخة ، ولكنها مخصصة ومبينة بآيات أخرى وبما بيّنه النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فلا يتعلق بإطلاقها ، وعن السدي أنها نسخت بآية الزكاة يعني : « خذ من أموالهم صدقة » وقد كان المتقدمون يسمون التخصيص نسخا .

وقوله : « ولا تُسرفوا » عطف على « كلوا » أي : كلوا غير مسرفين . والإسراف والسرف : تجاوز الكافي من إرضاء النفس بالشئ المشتهى . وتقدم

عند قوله تعالى : « ولا تأكلوها إسرافاً » في سورة النساء . وهذا إدماج للنهي عن الإسراف ، وهو نهى إرشاد وإصلاح ، أي : لا تسرفوا في الأكل وهذا كقوله : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

والإسراف إذا اعتاده المرء حملاً على التوسع في تحصيل المرغوبات ، فيرتكب لذلك مدمّات كثيرة ، ويتنقل من ملذّة إلى ملذّة فلا يقف عند حدّ .

وقيل عطف على : « وآتوا حقّه » أي ولا تسرفوا فيما بقي بعد إتيان حقّه فتنفقوا أكثر ممّا يجب ، وهذا لا يكون إلّا في الإنفاق والأكل ونحوه ، فأما بذله في الخير ونفع الناس فليس من السرف ، ولذلك يعدّ من خطأ التفسير : تفسيرها بالنهي عن الإسراف في الصدقة ، وبما ذكره أن ثابت بن قيس صرّم خمسمائة نخلة وفرّق ثمرها كله ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله ، وأن الآية نزلت بسبب ذلك .

وقوله : « إنّه لا يحبّ المسرفين » استئناف قصد به تعميم حكم النهي عن الإسراف . وأكد به (إنّ) لزيادة تقرير الحكم ، فبيّن أنّ الإسراف من الأعمال التي لا يحبّها ، فهو من الأخلاق التي يلزم الانتهاء عنها . ونفس المحبة مختلف المراتب ، فيعلم أنّ نفس المحبة يشتدّ بمقدار قوّة الإسراف ، وهذا حكم مجمل وهو ظاهر في التحريم ، وبيان هذا الإجمال هو في مطاوي أدلّة أخرى والإجمال مقصود .

ولغموض تأويل هذا النهي وقوله : « إنّه لا يحبّ المسرفين » تفرقت آراء المفسرين في تفسير معنى الإسراف المنهي عنه ، ليعينوه في إسراف حرام ، حتّى قال بعضهم : إنّها منسوخة ، وقد علمت المنجى من ذلك كله .

فوجه عدم محبة الله إياهم أن الإفراط في تناول اللذات والطيبات ، والإكثار من بذل المال في تحصيلها ، يفضي غالبا إلى استنزاف الأموال والشره إلى الاستكثار منها ، فإذا ضاقت على المسرف أمواله تطلب تحصيل المال من وجوه فاسدة ، ليحمد بذلك نهمته إلى اللذات ، فيكون ذلك دأبه ، فربما ضاق عليه ماله ، فشق عليه الإقلاع عن معتاده ، فعاش في كرب وضيق ، وربما تطلب المال من وجوه غير مشروعة ، فوقع فيما يؤخذ عليه في الدنيا أو في الآخرة ، ثم إن ذلك قد يعقب عياله خاصة وضمك معيشة . وينشأ عن ذلك ملام وتوبيخ وخصومات تقضي إلى ما لا يحمد في اختلال نظام العائلة . فأمّا كثرة الإنفاق في وجوه البر فإنها لا توقع في مثل هذا ، لأن المنفق لا يبلغ فيها مبلغ المنفق لمحبة لذاته ، لأن داعي الحكمة قابل للتأمل والتحديد بخلاف داعي الشهوة . ولذلك قيل في الكلام الذي يصح طردا وعكسا : « لا خير في السرف ، ولا سرف في الخير » وفي معنى هذه الآية قوله في سورة الأعراف : « وكأوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - « ويُسْكَرُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وكثرة السؤال وإضاعة المال » .

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ وَلَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ١٤٨

عُطِفَ : « حمولة » على : « جنات معروشات » أي : وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا ، فينسحب عليه القصر الذي في المعطوف عليه ، أي هو الذي أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا لا آلهة المشركين ، فكان المشركون ظالمين في جعلهم للأصنام حقاً في الأنعام .

و (مِنْ) في قوله : « ومن الأنعام » ابتدائية لأن الابتداء معنى يصلح

للمحمولة وللفرش لأنه أوسع معاني (مين). والمجرور : إمّا متعلّق بـ « أنشأ » ، وإمّا حال من «حمولة» أصلها صفة فلمّا قدمت تحوّلت .

وأبنا ما كان فتقديم المجرور على المفعول الذي هو أولى بالتقديم في ترتيب المتعلقات ، أو تقديم الصفة على الموصوف ، لقصد الاهتمام بأمر الأنعام ، لأنها المقصود الأصلي من سياق الكلام ، وهو إبطال تحريم بعضها ، وإبطال جعل نصيب منها للأصنام ، وأمّا الحمل والفرش فذلك امتنان أدمج في المقصود توفيراً للأغراض ، ولأنّ للامتنان بذلك أثراً واضحاً في إبطال تحريم بعضها الذي هو تضيق في المنّة ونبد للنعمة ، وليتمّ الإيجاز إذ يغني عن أن يقول : وأنشأ لكم الأنعام وأنشأ منها حمولة وفرشا ، كما سيأتي .

والأنعام : الإبل ، والبقر ، والشاء ، والمعز ، وقد تقدّم في صدر سورة العقود ، والحمولة - بفتح الحاء - ما يحمل عليه المتاع أو الناس يقال : حمل المتاع وحمل فلاناً ، قال تعالى : « إذا ما أتوك لتحملهم » ويلزمها التأنيت والإفراد مثل (صّرورة) للذي لم يحجّ يقال : امرأة صّرورة ورجل صّرورة .

والفرش : اختلف في تفسيره في هذه الآية ، ف قيل : الفرش ما لا يطبق الحمل من الإبل أي فهو يركب كما يُفرش الفرش ، وهذا قول الراغب . وقيل : الفرش الصغار من الإبل أو من الأنعام كلّها ، لأنها قريبة من الأرض فهي كالفرش . وقيل : الفرش ما يذبح لأنه يفرش على الأرض حين الذبح أو بعده ، أي فهو الضان والمعز والبقر لأنها تذبح . وفي اللسان عن أبي إسحاق : أجمع أهل اللغة على أنّ الفرش هو صغار الإبل .

زاد في الكشف : « أو الفرش : ما بُنْسَج من وبره وصوفه وشعره الفرش » يريد انه كما قال تعالى « ومن أصمّوافها وأوبارها وأشعارها

أثأثا ومتاعا إلى حين» ، وقال «والأنعام خلقها لكم فيها دِفءٌ ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم» الآية ، ولأنَّهم كانوا يفترون جلود الغنم والمعز للجلوس عليها.

ولفظ «فرشا» صالح لهذه المعاني كلّها ، ومحامله كلّها مناسبة للمقام ، فينبغي أن تكون مقصودة من الآية ، وكأنّ لفظ الفرش لا يوازنه غيره في جمع هذه المعاني ، وهذا من إعجاز القرآن من جانب فصاحته ، فالحمولة الإبل خاصّة ، والفرش يكون من الإبل والبقر والغنم على اختلاف معاني اسم الفرش الصالحة لكلّ نوع مع ضميمته الى كلمة (مين) الصالحة للابتداء .

فالمعنى: وأنشأ من الأنعام ما تحملون عليه وتركبونه ، وهو الإبل الكبيرة والإبل الصّغيرة ، وما تأكلونه وهو البقر والغنم ، وما هو فرش لكم وهو ما يُجزّ منها ، وجلودها . وقد علم السامع أن الله لما أنشأ حمولة وفرشا من الأنعام فقد أنشأ الأنعام أيضا ، وأول ما يتبادر للناس حين ذكر الأنعام أن يتذكروا أنَّهم يأكلون منها ، فحصل لإيجاز في الكلام ولذلك عقب بقوله : «كلوا ممّا رزقكم الله» .

وجملة : «كلوا ممّا رزقكم الله» معترضة مثل آية : «كلوا من ثمره إذا أثمر». ومناسبة الأمر بالأكل بعد ذكر الأنعام : أنّه لما كان قوله : «وفرشا» شيئا ملائما للذّبح ، كما تقدّم ، عقب بالإذن بأكل ما يصلح للأكل منها . واقتصر على الأمر بالأكل لأنّه المقصود من السياق لإبطالا لتحريم ما حرّموه على أنفسهم ، وتمهيدا لقوله : «ولا تتبعوا خطوات الشيطان» فالأمر بالأكل هنا مستعمل في النهي عن ضدّه وهو عدم الأكل من بعضها ، أي لا تحرّموا ما أحلّ لكم منها اتّباعا لتغريز الشيطان بالسوسة لزعماء المشركين الذين سنّوا لهم تلك السنن الباطلة ، وليس المراد بالأمر بالإباحة فقط .

وعدل عن الضمير بأن يقال : كلوا منها ، إلى الإتيان بالموصول :

« ممّا رزقكم الله » لما في صلة الموصول من الإيماء إلى تضليل الذين حرّموا على أنفسهم ، أو على بعضهم . الأكل من بعضها ، فعطّلوا على أنفسهم بعضا ممّا رزقهم الله .

ومعنى : « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » النهي عن شؤون الشرك فإنّ أول خطوات الشيطان في هذا الغرض هي تسويله لهم تحريم بعض ما رزقهم الله على أنفسهم .

وخطوات الشيطان تمثيل ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : « يأيتها الناس كلوا ممّا في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان » في سورة البقرة .

وجملة : « إنّّه لكم عدوّ مبين » تعليل للنهي ، وموقع (إنّ) فيه يغني عن فاء التفريع كما تقدّم غير مرّة ، وقد تقدّم بيانه في آية البقرة .

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّالِّينَ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ
الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ
نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ الْأَبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ
اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَیَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٤٤ ﴾

جملة : « ثمانية أزواج » حال من : « من الأنعام ». ذكر توطئة لتقسيم الأنعام إلى أربعة أصناف الذي هو توطئة للرد على المشركين لقوله : « قل الذكركرين حرم أم الأنثيين - إلى قوله - أم كنتم شهداء » أي أنشأ من الأنعام حمولة إلى آخره حالة كونها ثمانية أزواج .

والأزواج جمع زوج ، والزوج اسم لذات منضمة إلى غيرها على وجه الملازمة ، فالزوج ثان لواحد ، وكل من ذينك الاثنين يقال له : زوج ، باعتبار أنه مضموم ، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » في سورة البقرة . ويطلق الزوج غالبا على الذكر والأنثى من بني آدم المتلازمين بعقدة نكاح ، وتوسع في هذا الإطلاق فأطلق بالاستعارة على الذكر والأنثى من الحيوان الذي يتقارن ذكره وأنثاه مثل حمار الوحش وأنثاه ، وذكر الحمام وأنثاه ، لشبهها بالزوجين من الإنسان . ويطلق الزوج على الصنف من نوع كقوله تعالى : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » في سورة الرعد . وكلا الإطلاقين الأخيرين صالح للراداة هنا لأن الإبل والبقر والضأن والمعز أصناف للأنعام ، ولأن كل ذلك منه ذكر وأنثى . إذ المعنى أن الله خلق من الأنعام ذكرها وأنثاهما ، فالأزواج هنا أزواج الأصناف ، وليس المراد زوجا بعينه ، إذ لا تعرف بأعيانها ، فثمانية أزواج هي أربعة ذكور من أربعة أصناف وأربع إناث كذلك .

وقوله : « من الضأن اثنين ومن المعز اثنين » أٌبدل « اثنين » من قوله : « ثمانية أزواج » قوله : « اثنين » : بدل تفصيل ، والمراد : اثنين منها أي من الأزواج ، أي ذكر وأنثى كل واحد منهما زوج للآخر ، وفائدة هذا التفصيل التوصل لذكر أقسام الذكور والإناث توطئة للاستدلال الآتي في قوله : « قل الذكركرين حرم أم الأنثيين » الآية .

وسُلك في التفصيل طريق التوزيع تمييزا للأنواع المتقاربة ، فإن الضأن والمعز متقاربان ، وكلاهما يذبح ، والإبل والبقر متقاربة ، والإبل

تنحر ، والبقر تذبح وتُنحر أيضا . ومن البقر صنف له سنام فهو أشبه بالإبل ويوجد في بلاد فارس ودخل بلاد العرب وهو الجاموس ، والبقر العربي لا سنام له وثورها يسمى الفريش .

ولمّا كانوا قد حرّموا في الجاهليّة بعض الغنم ، ومنها ما يسمى بالوصيلة كما تقدّم ، وبعض الإبل كالبَحيرة والوصيلة أيضا ، ولم يحرموا بعض المعز ولا شيئا من البقر ، ناسب أن يؤتى بهذا التقسيم قبل الاستدلال تمهيدا لتحكمهم إذ حرّموا بعض أفراد من أنواع ، ولم يحرموا بعضا من أنواع أخرى ، وأسباب التحريم المزعومة تتأتى في كلّ نوع فهذا إبطال إجمالي لما شرعوه وأنه ليس من دين الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وهذا الاستدلال يسمى في علم المناظرة والبحث بالتحكم :

والضأن - بالهمز - اسم جمع للغنم لا واحد له من لفظه ، ومفرد الضأن شاة وجمعها شاء ، وقيل هو جمع ضائن . والضأن نوع من الأنعام ذوات الظلف له صوف . والمعز اسم جمع مفردة معز ، وهو نوع من الأنعام شبيه بالضأن من ذوات الظلف له شعر مستطيل . ويقال : معز - بسكون العين - ومعز - بفتح العين - وبالأول قرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف . وقرأ بالثاني الباقون .

وبعد أن تمّ ذكر المنّة والتّمهيد للحجّة ، غيّر أسلوب الكلام ، فابتدئ بخطاب الرّسول - عليه الصّلاة والسّلام - بأن يجادل المشركين ويظهر افتراءهم على الله فيما زعموه من تحريم ما ابتدعوا تحريمه من أنواع وأصناف الأنعام على من عيّنوه من النّاس بقوله : « قل الذّكرين حرم » الآيات . فهذا الكلام ردّ على المشركين ، لإبطال ما شرعوه بقرينة قوله : نبئوني بعلم إن كنتم صادقين - وقوله - أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا »

الآية. فقوله : « قل آلذكرين حرّم أم الأنثيين » إلى آخرها في الموضعين ،
اعتراض بعد قوله : « ومنّ المعز اثنين » وقوله : « ومن البقر اثنين » .
وضمير : « حرّم » عائد إلى اسم الله في قوله : « كلوا ممّا رزقكم الله » ،
أو في قوله : « وحرّموا ما رزقهم الله » الآية . وفي تكرير الاستفهام مرتين
تعميد بالتخطئة فالتوبيخ والتفريع الذي يعقبه التصريح به في قوله :
« إن كنتم صادقين » وقوله : « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم
ممن افترى على الله كذبا » الآية .

فلا تردّد في أن المقصود من قوله : « قل آلذكرين حرّم » في
الموضعين إبطال تحريم ما حرّم المشركون أكله ، ونفي نسبة ذلك التحريم
إلى الله تعالى . وإنّما النظر في طريق استفادة هذا المقصود من نظم الكلام .
وهو من المعضلات .

فقال الفخر : « أطبق المفسّرون على أن تفسير هذه الآية أن المشركين
كانوا يحرمون بعض الأنعام فاحتجّ الله على إبطال قولهم بأن ذكر الضأن
والمعز والإبل والبقر . وذكر من كل واحد من هذه الأربعة زوجين ذكرًا
وأُنثى ، ثمّ قال : إن كان حرّم منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها
حراما ، وإن كان حرّم الأنثى وجب أن يكون كل أنثائها حراما ، وأنّه
إن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين وجب تحريم الأولاد كلّها » .
حاصل المعنى نفى أن يكون الله حرّم شيئا ممّا زعموا تحريمه إياه بطريق
السّبر والتّقسيم وهو من طرق الجدل .

قلت : هذا ما عزاه الطّبري إلى قتادة ، ومجاهد ، والسّدي ، وهذا
لا يستقيم لأنّ السّبر غير تامّ إذ لا ينحصر سبب التحريم في النوعيّة بل الأكثر
أنّ سببه بعض أوصاف الممنوع وأحواله .

وقال البغوي : قالوا : « هذه أنعام وحرث حجر » وقالوا : « ما

في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا « وحرّموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى : فلمّا قام الإسلام جادّوا النّبيّ - - صلى الله عليه وسلّم - - وكان خطيبهم مالك بن عوف الجشمي قالوا : يا محمد بلغنا أنّك تحرّم أشياء ممّا كان آباؤنا يفعلونه . فقال لهم رسول الله - - صلى الله عليه وسلّم - - : إنّكم قد حرّمتُم أصنافا من النّعم على غير أصل : وإنّما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها ، فمن أين جاء هذا التّحريم أمّن قبّل الذّكر أم من قبّل الأنثى . فسكت مالك بن عوف وتحيّر آه (أي وذلك قبل أن يُسلم مالك بن عوف) ولم يعزه البغوي إلى قائل وهو قريب ممّا قاله قتادة والسّدّي ومجاهد فتيّن أنّ الحجاج كلّهُ في تحريم أكل بعض هذه الأنواع من الأنعام : وفي عدم التفرقة بين ما حرّموا أكله وما لم يحرّموه مع تماثل النّوع أو الصنف .

والذي يؤخذ من كلام أئمّة العربيّة في نظم الاستدلال على المشركين أنّ الاستفهام في قوله : « الذّكرين حرّم » في الموضوعين : استفهام إنكاري . قال في الكشف الهمزة في : « الذّكرين » للإنكار : والمعنى : إنكار أن يحرّم الله تعالى من جنسي الغنم شيئا من نوعي ذكورها وإناثها وما تحمل إناثها وكذلك في جنسي الإبل والبقر . وبينه صاحب المفتاح في باب الطلب بقوله : وإن أردت به (أي بالاستفهام) الإنكار فانسجه على منوال النّفي فقلّ (في إنكار نفس الضرب) أضربت زيدا . وقل (في إنكار أن يكون للمخاطب مضروب) أزيذا ضربت أم عمرا . فإنّك إذا أنكرت من يُردّد الضرب بينهما (أي بزعمه) تولّد منه (أي من الإنكار عليه) إنكار الضرب على وجه بُرهاني ومنه قوله تعالى : « الذّكرين حرّم أمّ الأنثيين » . قال شارحه القطب الشّيرازي : لاستلزام انتفاء محلّ التّحريم انتفاء التّحريم لأنّه عرض يمتنع وجوده : أي التّحريم ، دون محلّ يقوم به فإذا انتفى (أي محله) انتفى هو أي التّحريم آه .

أقول وجه الاستدلال : أن الله لو حرّم أكل بعض الذكور من أحد النوعين لحرّم البعض الآخر ، ولو حرّم أكل بعض الإناث لحرّم البعض الآخر . لأنّ شأن أحكام الله أن تكون مطردة في الأشياء المتّحدة بالنوع والصفة . ولو حرّم بعض ما في بطون الأنعام على النساء لحرّم ذلك على الرجال . وإذا لم يحرّم بعضها على بعض مع تماثل الأنواع والأحوال . أنتج أنّه لم يحرّم البعض المزعوم تحريمه ، لأنّ أحكام الله منوطة بالحكمة . فدلّ على أنّ ما حرّمه إنّما حرّمه من تلقاء أنفسهم تحكّماً واعتباطاً . وكان تحريمهم ما حرّمه افتراءً على الله ، ونهضت الحجة عليهم . الملجئة لهم . كما أشار إليه كلام النّبى - صلى الله عليه وسلم - لمالك بن عوف الجُشمي المذكور آنفاً ، ولذلك سجّل عليهم بقوله : « نبشّوني بعلم إن كنتم صادقين » فقوله : « الذكّرين حرّم » أي لو حرّم الله الذكّرين لسوّى في تحريمهما بين الرجال والنساء . وكذلك القول في الأنثيين . والاستفهام في قوله : « الذكّرين حرّم » في الموضوعين مُستعمل في التقرير والإنكار بقرينة قوله قبله « سيجزيهم وصفهم إنّهم حكيم عليم » . وقوله : « ولا تتبّعوا خطوات الشيطان » . ومعلوم أنّ استعمال الاستفهام في غير معنى طلب الفهم هو إما مجاز أو كناية .

ولذلك تعيّن أن تكون (أم) منقطعة بمعنى (بل) ومعناها الإضراب الانتقالي تعديدا لهم ويُقدّر بعدها استفهام . فالمفرد بعد (أم) مفعول لفعل محذوف ، والتقدير : أم أحرّم الأنثيين . وكذلك التقدير في قوله « أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين » . وكذلك التقدير في نظيره .

وقوله « من الضأن اثنين ومن المعز اثنين » مع قوله « ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين » من مسلك السبر والتقسيم المذكور في مسالك العلة من علم أصول الفقه .

وجملة : « نبشّوني بعلم إن كنتم صادقين » بدل اشتمال من جملة :

«الذكرين حرّم أم الأنثيين» لأنّ إنكار أن يكون الله حرّم شيئاً من ذكور وإناث ذينك الصنفين يقتضي تكذيبهم في زعمهم أنّ الله حرّم ما ذكروه فيلزم منه طلب الدليل على دعواهم . فموقع جملة «الذكرين» بمنزلة الاستفسار في علم آداب البحث . وموقع جملة : «نبئوني بعلم إن كنتم صادقين» بمنزلة المنع . وهذا تهكم لأنّه لا يطلب تلقّي علم منهم . وهذا التّهكم تابع لصورة الاستفهام وفرع عنها .

وهو هنا تجريد للسّجّاز أو للمعنى الملزوم المتقل منه في الكناية .
وتثنية الذكرين والأنثيين : باعتبار ذكور وإناث النوعين .

وتعدية فعل : «حرّم» إلى «الذكرين» و«الأنثيين» وما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، على تقدير مضاف معلوم من السياق ، أي : حرّم أكل الذكرين أم الأنثيين إلى آخره .

والتعريف في قوله : «الذكرين» وقوله : «أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين» تعريف الجنس كما في الكشف :

والباء في «بعلم» : يحتمل أن تكون لتعدية فعل الإنباء ، فالعلم بمعنى المعلوم . ويحتمل أن تكون للملابسة ، أي نبئوني إنباء ملابسا للعلم ، فالعلم ما قابل الجهل أي إنباء عالم . ولما كانوا عاجزين عن الإنباء دلّ ذلك على أنّهم حرّموا ما حرّموه بجهالة وسوء عقل لا بعلم ، وشأن من يتصدّى للتحريم والتحليل أن يكون ذا علم .

وقوله : «إن كنتم صادقين» أي في قولكم : إنّ الله حرّم ما ذكرتم أنّه محرّم ، لأنّهم لو كانوا صادقين في تحريم ذلك لاستطاعوا بيان ما حرّمه الله ، ولأبدوا حكمة تحريم ما حرّموه ونسبوا تحريمه إلى الله تعالى .

وقوله : «ومن الإبل اثنتين» — إلى قوله — أرحام الأنثيين «عطف على :

« ومن المعز اثنين » لأنه من تمام تفصيل عدد ثمانية أزواج . والقول فيه كالقول في سابقه : والمقصود إبطال تحريم البحيرة والسائبة والحامي وما في بطون البحائر والسوائب .

و(أم) في قوله : « أم كنتم شهداء » منقطعة للإضراب الانتقالي . فتؤذن باستفهام مقدّر بعدها حيثما وقعت : وهو إنكارى تقريرى أيضا بقرينة السياق .

والشهداء : الحاضرون جمعُ شهيد وهو الحاضر : أى شهداء حين وصاكم الله ، ف « إذ » ظرف لـ « شهداء » مضاف إلى جملة : « وصاكم » .

والإيضاء : الأمر بشيء يُفعل في غيبة الأمر فيؤكد على المأمور بفعله لأنّ شأن الغائب التأكيد . وأطلق الإيضاء على ما أمر الله به لأنّ الناس لم يشاهدوا الله حين فعلهم ما يأمرهم به ، فكان أمرُ الله مؤكداً فعبّر عنه بالإيضاء تنبيها لهم على الاحتراز من التفويت في أوامر الله ، ولذلك أطلق على أمر الله الإيضاء في مواضع كثيرة من القرآن ، كقوله : « يوصيكم الله في أولادكم » .

والإشارة في قوله « بهذا » إلى التحريم المأخوذ من قوله « حرّم » وذلك لأنّ في إنكار مجموع التحريم تضمّنا لإبطال تحريم معيّن ادّعوه ، وهم يعرفونه . فلذلك صحّت الإشارة إلى التحريم على الإجمال ، وخصّ بالإنكار حالة المشاهدة ، تهكّما بهم ، لأنّهم كانوا يكذبون الرسول - صلى الله عليه وسلم - فحالهم حال من يضع نفسه موضع من يحضر حضرة الله تعالى لسماع أوامره . أو لأنّ ذلك لما لم يكن من شرع إبراهيم ولا إسماعيل - عليهم السّلام - . ولم يأت به رسول من الله ، ولم يدّعوه ، فلم يبق إلّا أن يدّعوا أنّ الله خاطبهم به مباشرة .

وقوله : « فمن أظلم ممّن افترى على الله كذبا » مترتب على الإنكار في قوله « الذّكرين حرّم أمّ الأثنيين - إلى قوله - إذ وصاكم الله بهذا » ،

أي فترتب على ذلك الإبطال والإنكار أن يتوجه سؤال من المتكلم مشوب بإنكار. عمدت اتصف بزيادة ظلم الظالمين الذين كذبوا على الله ليضلوا الناس ، أي : لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا . فإذا ثبت أن هؤلاء المخاطبين قد افترى على الله كذبا ، ثبت أنهم من الفريق الذي هو أظلم الظالمين . والمشركون إما أن يكونوا ممن وضع الشرك وهم كبراء المشركين : مثل عمرو بن لحي . واضع عبادة الأصنام ، وأول من جعل البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى . ومن جاء بعده من طواغيت أهل الشرك الذين سنوا لهم جعل شيء من أموالهم لبيوت الأصنام وسدنتها ، فهؤلاء مُفترُونَ . وإما أن يكونوا ممن اتبع أولئك بعزم وتصلب وشاركوهم فهم اتبعوا أناسا ليسوا بأهل لأن يبلغوا عن الله تعالى . وكان حقهم أن يتوخَّوا من يتبعون ومن يظنون أنه مبلغ عن الله وهم الرسل . فمن ضلالهم أنهم لما جاءهم الرسول الحق - عليه الصلاة والسلام - كذبوه ، وقد صدقوا الكذبة وأيدوهم ونصروهم .

ويستفاد من الآية أن من الظلم أن يُقدم أحد على الإفتاء في الدين ما لم يكن قد غلب على ظنه أنه يفنى بالصواب الذي يرضى الله . وذلك إن كان مجتهدا فبالاستناد إلى الدليل الذي يغلب على ظنه مصادفته لمراد الله تعالى ، وإن كان مقلدا فبالاستناد إلى ما يغلب على ظنه أنه مذهب إمامه الذي قلَّده .

وقوله « بغير علم » تقدم القول في نظيره آنفا .

وقوله : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » يجوز أن يكون تعليلا لكونهم من أظلم الناس ، لأن معنى الزيادة في الظلم لا يتحقق إلا إذا كان ظلمهم لا إقلاعه عنه ، لأن الضلال يزداد رسوخا في النفس بتكرار أحواله ومظاهره ، لأنهم لما تعمدوا الإضلال أو اتبعوا متعمديه عن تصلب ، فهم بمعزل عن تطلب الهدى وإعادة النظر في حال أنفسهم ، وذلك بغريهم

بالازدياد والتملّي من تلك الأحوال ، حتّى تصير فيهم ملكة وسجيّة ، فيتعدّر إقلاعهم عنها ، فعلى هذا تكون (إنّ) مفيدة معنى التعليل .

ويجوز أن تكون الجملة تهديدا ووعيدا لهم ، إن لم يقلعوا عمّا هم فيه ، بأنّ الله يحرمهم التوفيق ويذرهم في غيّهم وعمهم ، فالله هدى كثيرا من المشركين هم الذين لم يكونوا بهذه المثابة في الشّرك ، أي لم يكونوا قادة ولا متصّلين في شركهم ، والذين كانوا بهذه المثابة هم الذين حرمهم الله الهدى ، مثل صناديد قريش أصحاب القليب يوم بدر ، فأما الذين اتّبعوا الإسلام بالقتال مثل معظم أهل مكّة يوم الفتح ، وكذلك هوازن ومن بعدها ، فهؤلاء أسلموا مدعّين ثمّ علموا أنّ آلهتهم لم تكن عنهم شيئا فحصل لهم الهدى بعد ذلك ، وكانوا من خيرة المسلمين ونصروا الله حقّ نصره . فالمراد من نفي الهدى عنهم : إمّا نفيه عن فريق من المشركين ، وهم الذين ماتوا على الشّرك ، وإمّا نفي الهدى المحض الدالّ على صفاء النفس ونور القلب ، دون الهدى الحاصل بعد الدخول في الإسلام ، فذلك هدى في الدرجة الثانية كما قال تعالى : « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » .

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ وَرَجَسٌ أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادَ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [145]

استئناف بياني نشأ عن إبطال تحريم ما حرّمه المشركون ، إذ يتوجه سؤال سائل من المسلمين عن المحرّمات الثابتة ، إذ أبطلت المحرّمات الباطلة ،

فلذلك خوطب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ببيان المحرمات في شريعة الإسلام بعد أن خوطب ببيان ما ليس بمحرم مما حرّمه المشركون في قوله « قل الذّكرين حرّم أم الأنثيين » الآيات .

وافْتُتِحَ الكلامُ المأمورُ بأن يقولَه بقوله : « لاَ أَجِدُ » إدماجاً للردّ على المشركين في خلال بيان ما حرّم على المسلمين ، وهذا الردّ جارٍ على طريقة كناية الإيماء بأن لم يُنفَ تحريم ما ادّعوا تحريمه صريحاً ، ولكنّه يقول لا أجده فيما أوحى إليّ . ويستفاد من ذلك أنّه ليس تحريمه من الله في شرعه ، لأنّه لا طريق إلى تحريم شيء ممّا يتناوله النّاس إلّا بإعلام من الله تعالى ، لأنّ الله هو الذي يُحلّ ما شاء ويحرّم ما شاء على وفق علمه وحكمته ، وذلك الإعلام لا يكون إلّا بطريق الوحي أو ما يُستنبط منه ، فإذا كان حكم غير موجود في الوحي ولا في فروعه فهو حكم غير حقّ ، فاستفيد بطلان تحريم ما زعموه بطريقة الإيماء ، وهي طريقة استدلالية لأنّ فيها نفى الشيء بنفي ملزومه .

و « أَجِدُ » بمعنى : أظفر . وهو الذي مصدره الوجد والوجدان ، وهو هنا مجاز في حصول الشيء وبلوغه . يقال : وجَدْتُ فلاناً ناصراً . أي حصلت عليه ، فشبه التحصيل للشيء بالظفر والنفاء المطلوب ، وهو متعدّ إلى مفعول واحد .

والمراد ، بـ « ما أوحى » ما أعلمه الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - - بوحى غير القرآن لأنّ القرآن النازل قبل هذه الآية ليس فيه تحريم الميتة والدّم ولحم الخنزير وإنّما نزل القرآن بتحريم ما ذكر في هذه الآية ثمّ في سورة المائدة .

والطعام : الآكلُ ، يقال : طَعِمَ كَعَلِمَ ، إذا أكل الطّعام ، ولا يقال ذلك للشّارب ، وأمّا طَعِمَ بمعنى ذاق فيستعمل في ذوق المطعومات والمشروبات ، وأكثر استعماله في النّفي . وتقدّم بيانه عند قوله تعالى :

« ومن لم يطعمه فإنه منّي » في سورة البقرة ، وبذلك تكون الآية قاصرة على بيان محرّم المأكولات .

وقوله : « يطعمه » صفة لطاعم، وهي صفة مؤكّدة مثل قوله : « ولا طائر يطير بجناحيه » .

والاستثناء من عموم الأكوأ التي دلّ عليها وقوع التكررة في سياق النفي . أي لا أجد كائنا محرّما إلاّ كونه ميتة الخ أي : إلاّ الكائن ميتة الخ ، فالاستثناء متّصل .

والحصر المستفاد من النفي والاستثناء حقيقي بحسب وقت نزول هذه الآية . فلم يكن يومئذ من محرّمات الأكل غير هذه المذكورات لأنّ الآية مكّيّة ثمّ نزلت سورة المائدة بالمدينة فزيد في المحرمات كما يأتي قريبا .

والمسفوح : المصبوب السائل ، وهو ما يخرج من المذبح والمنححر . أو من الفصد في بعض عروق الأعضاء فيسيل . وقد كان العرب يأكلون الدّم الذي يسيل من أوداج الذبيحة أو من منححر المنحورة ويجمعونه في مَصِير أو جِلْد ويَجفّفونه ثمّ يشوّونه ، وربّما فصدوا من قوائم الإبل مَقصدا فأخذوا ما يحتاجون من الدّم بدون أن يهلك البعير ، وربّما خلطوا الدّم بالوَبَر ويسمّونه (العِلْهَز) ، وذلك في المجاعات .

وتقييد الدّم بالمسفوح للتنبيه على العفو عن الدّم الذي ينزّ من عروق اللحم عند طبخه فإنّه لا يمكن الاحتراز عنه .

وقوله : « فإنه رجس » جملة معترضة بين المعطوفات ، والضّمير قيل : عائد إلى لحم الخنزير ، والأظهر أن يعود إلى جميع ما قبله ، وأنّ أفراد الضّمير على تأويله بالمذكور ، أي فإنّ المذكور رجس ، كما يفرد اسم الإشارة مثل قوله « ومن يفعل ذلك يلق أثاما » .

والرَّجَسُ : الخبيث والقذر . وقد مضى بيانه عند قوله تعالى : « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » في هذه السورة ؛ فإن كان الضمير عائداً إلى لحم الخنزير خاصة فوصفه برجس تنبيه على ذمّه . وهو ذمّ زائد على التحريم ، فوصفه به تحذير من تناوله . وتأنيس للمسلمين بتحريمه ، لأنّ معظم العرب كانوا يأكلون لحم الخنزير بخلاف الميتة والدمّ فما يأكلونها إلّا في الخصاصة .

وخبائثة الخنزير علمها الله تعالى الذي خلقه . وتبيّن أخيراً أنّ لحمه يشتمل على ذرات حيوانية مضرّة لآكله أثبتها علم الحيوان وعلم الطبّ . وقيل : أريد أنّه نجس لأنّه يأكل النجاسات وهذا لا يستقيم لأنّ بعض الدوابّ تأكل النجاسة وتُسمّى الجلالة وليست محرّمة الأكل في صحيح أقوال العلماء .

وإن كان الضمير عائداً إلى الثلاثة بتأويل المذكور كان قوله : « فإنّه رجس » تنبيهاً على علّة التحريم وأنّها لدفع مفسدة تحصل من أكل هذه الأشياء . وهي مفسدة بدنيّة . فأما الميتة فلما يتحوّل إليه جسم الحيوان بعد الموت من التعفّن . ولأنّ المرض الذي كان سبب موته قد ينتقل إلى آكله . وأما الدّم فلأنّ فيه أجزاء مضرّة . ولأنّ شربه يورث ضراوة .

والفسق : الخروج عن شيء . وهو حقيقة شرعية في الخروج عن الإيمان ، أو عن الطاعة الشرعية ، فلذلك يوصف به الفعل الحرام باعتبار كونه سبباً لفسق صاحبه عن الطاعة . وقد سمى القرآن ما أهلّ به لغير الله فسقا في الآية السالفة وفي هذه الآية . فصار وصفا مشهوراً لما أهلّ به لغير الله ، ولذلك أتبعه بقوله : « أهلّ لغير الله به » . فتكون جملة : « أهلّ لغير الله به » صفة أو بياناً لـ « فسقا » ، وفي هذا تنبيه على أنّ تحريم ما أهلّ لغير الله به ليس لأنّ لحمه مضرّ بل لأنّ ذلك كفر بالله .

وقد دلّت الآية على انحصار المحرّمات من الحيوان في هذه الأربعة ، وذلك الانحصار بحسب ما كان محرّماً يوم نزول هذه الآية ، فإنّه لم

يحرم بمكة غيرها من لحم الحيوان الذي يأكلونه ، وهذه السورة مكية كلها على الصحيح ، ثم حرم بالمدينة أشياء أخرى : وهي : المنخقة والموقودة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع بآية سورة العقود ، وحرم لحم الخمر الإنسانية بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - على اختلاف بين العلماء في أن تحريمه لذاته كالخنزير . أو لكونها يومئذ حمولة جيش خيبر . وفي أن تحريمه عند القائلين بأنه لذاته مستمر أو منسوخ ، والمسألة ليست من غرض التفسير فلا حاجة بنا إلى ما تكلفوه من تأويل حصر هذه الآية المحرمات في الأربعة . وكذلك مسألة تحريم لحم كل ذي ناب من السباع ولحم سباع الطير وقد بسطها القرطبي . وتقدم معنى : « أهل لغير الله به » في تفسير سورة المائدة .

وقرأ الجمهور : « إلا أن يكون » - بياء تحية ونصب مية وما عطف عليها - وقرأه ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة - بياء فوقية ونصب « مية » وما عطف عليه - عند من عدا ابن عامر . وقرأه ابن عامر وأبو جعفر - بياء فوقية ورفع « مية » - ويشكل على هذه القراءة أن المعطوف على مية منصوبات وهي : « أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به » . ولم يعرج عليها صاحب الكشاف ، وقد خرجت هذه القراءة على أن يكون : « أو دما مسفوحا » عطفًا على (أن) وصلتها لأنه محل نصب بالاستثناء فالتقدير : إلا وجود مية ، فلما عبر عن الوجود بفعل (يكون) التام ارتفع ما كان مضافا إليه .

وقوله : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد » تقدم القول في نظيره في سورة البقرة في قوله : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » .

وإنما جاء المسند إليه في جملة الجزاء وهو « ربك » معرفًا بالإضافة دون العلمية كما في آية سورة البقرة « إن الله غفور رحيم » لما يؤذن به لفظ الرب من الرأفة واللتطف بالمربوب والولاية ، تنبيهًا على أن الله جعل هذه الرخصة

للمسلمين الذين عبدوه ولم يشركوا به ، وأنه أعرض عن المشركين الذين أشركوا معه غيره لأن الإضافة تشعر بالاختصاص ، لأنها على تقدير لام الاختصاص ، فلما عبر عن الغفور تعالى بأنه رب النبي - عليه الصلاة والسلام - علم أنه رب الذين اتبعوه ، وأنه ليس رب المشركين باعتبار ما في معنى الرب من الولاية ، فهو في معنى قوله تعالى : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » أي لا مولى يعاملهم بآثار الولاية وشعارها ، ذلك لأن هذه الآية وقعت في سياق حجاج المشركين بخلاف آية البقرة فإنها مفتحة بقوله : « يأتها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » .

والإخبار بأنه غفور رحيم ، مع كون ذلك معلوما من مواضع كثيرة ، هو هنا كناية عن الإذن في تناول تلك المحرمات عند الاضطرار ورفع حرج التحريم عنها حيثذ فهو في معنى قوله في سورة البقرة : « فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » .

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [146]

جملة : « وعلى الذين هادوا حرمنا » عطف على جملة : « قل » عطف خبر على إنشاء ، أي بين لهم ما حرم في الإسلام ، واذكروا لهم ما حرمنا على الذين هادوا قبل الإسلام ، والمناسبة أن الله لما أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام - أن يبين ما حرم الله أكله من الحيوان ، وكان في خلال ذلك تنبيه على أن ما حرمه الله حيث بعضه لا يصلح أكله بالأجساد التي قال فيه « فإنه رجس » ، ومنه

ما لا يلاقى واجب شكر الخالق وهو الذي قال فيه : « أو فسقا أهل لغير الله به » أعقب ذلك بذكر ما حرّمه على بني إسرائيل تحريماً خاصاً لحكمة خاصة بأحوالهم ، وموقّعة إلى مجيء الشريعة الخاتمة . والمقصود من ذكر هذا الأخير : أن يظهر للمشركين أنّ ما حرّموه ليس من تشريع الله في الحال ولا فيما مضى ، فهو ضلال بحث .

وتقديم المجرور على متعلّقه في قوله : « وعلى الذين هادوا حرّمنا » لإفادة الاختصاص ، أي عليهم لا على غيرهم من الأمم .

والظفر : العظم الذي تحت الجلد في منتهى أصابع الإنسان والحيوان والمخالب ، وهو يقابل الحافر والظلف ويكون للإبل والسبع والكلب والهرّ والأرنب والوبّز ونحوها : فهذه محرّمة على اليهود بنصّ شريعة موسى - عليه السلام - ففي الإصحاح الرابع عشر من سفر التثنية : « الجمل والأرنب والوبّز فلا تأكلوها » .

والشّحوم : جمع شحم . وهو المادّة الدهنية التي تكون مع اللحم في جسد الحيوان ، وقد أباح الله لليهود أكل لحوم البقر والغنم وحرّم عليهم شحومهما إلّا ما كان في الظهر .

و« الحوايا » معطوف على « ظهورهما » . فالمقصود العطف على المباح لأنّ على المحرّم ، أي : أو ما حملت الحوايا ، وهي جمع حويّة ، وهي الأكياس الشّحميّة التي تحوي الأمعاء .

« أو ما اختلط بعظم » هو الشّحم الذي يكون ملتقاً على عظم الحيوان من السّمّن فهو معفو عنه لعسر تجريده عن عظمه .

والظاهر أنّ هذه الشّحوم كانت محرّمة عليهم بشريعة موسى - عليه السلام - ، فهي غير المحرّمات التي أجملتها آية سورة النساء بقوله

تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ، كما أشرنا إليه هنالك لأنّ الجرائم التي عدّت عليهم هنالك كلّها ممّا أحدثوه بعد موسى — عليه السّلام — . فقوله تعالى : « ذلك جزيناهم ببغيهم » يراد منه البغي الذي أحدثوه زمن موسى . في مدّة التّيه ، ممّا أخبر الله به عنهم : مثل قولهم : « لن نصبر على طعام واحد » وقولهم : « فاذهب أنت وربّك فقاتلا » وعبادتهم العجل . وقد عدّ عليهم كثير من ذلك في سورة البقرة .

ومناسبة تحريم هذه المحرّمات للكون جزاءً لبغيهم : أنّ بغيهم نشأ عن صلابة نفوسهم وتغلّب القوّة الحيوانيّة فيهم على القوّة المملّكيّة . فاعلّ الله حرّم عليهم هذه الأمور تخفيفاً من صلابتهم ، وفي ذلك إظهار منّة على المسلمين بإباحة جميع الحيوان لهم إلّا ما حرّمه القرآن وحرّمته السّنة ممّا لم يختلف فيه العلماء وما اختلفوا فيه .

ولم يذكر الله تحريم لحم الخنزير ، مع أنّه ممّا شمله نصّ التّوراة ، لأنّه إنّما ذكر هنا ما خُصّوا بتحريمه ممّا لم يحرم في الإسلام ، أي ما كان تحريمه موقّفاً .

وتقديم المجرور على عامله في قوله : « ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم » للاهتمام ببيان ذلك ، لأنّه ممّا يلتفت الذّهن إليه عند سماع تحريم كلّ ذي ظفّر فيترقّب الحكم بالنّسبة إليهما فتقديم المجرور بمنزلة الافتتاح بـ (أمّا) .

وجملة : « ذلك جزيناهم ببغيهم » تذييل يبيّن علة تحريم ما حرّم عليهم .

واسم الإشارة في قوله : « ذلك جزيناهم » مقصود به التّحريم المأخوذ من قوله : « حرّمنا » فهو في موضع مفعول ثان : لـ « جزيناهم » قدّم

على عامله ومنعوله الأول للاهتمام به والتثبيت على أن التحريم جزاء
لغيرهم .

وجملة : « وإِنَّا لصادقون » تذييل للجملة التي قبلها قصدا لتحقيق أن
الله حرّم عليهم ذلك ، وإبطالا لقولهم : إن الله لم يحرم علينا شيئا وإنّا
حرّمنا ذلك على أنفسنا اقتداء بيعقوب فيما حرّمه على نفسه لأن اليهود لما
انتبزوا بتحريم الله عليهم ما أحله لغيرهم مع أنّهم يزعمون أنّهم المقربون
عند الله دون جميع الأمم ، أنكروا أن يكون الله حرّم عليهم ذلك وأنّه عقوبة
لهم فكانوا يزعمون أنّ تلك المحرمات كان حرّمها يعقوب على نفسه
نذرا لله فاتّبعه أبناؤه اقتداء به . وليس قولهم بحق : لأن يعقوب إنّما حرّم
على نفسه لحوم الإبل وألبانها . كما ذكره المفسّرون وأشار إليه قوله تعالى :
« كلّ الطّعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلّا ما حرّم إسرائيل على نفسه من
قبل أن تنزل التّوراة » في سورة آل عمران . وتحريم ذلك على نفسه لنذر أو مصلحة
بدنية لا يسري إلى من عداه من ذريّته . وأنّ هذه الأشياء التي ذكر الله تحريمها
على بني إسرائيل مذكور تحريمها في التّوراة فكيف ينكرون تحريمها .

فالتأكيد للردّ على اليهود . ونظير قوله هنا : « وإِنَّا لصادقون » قوله في
سورة آل عمران . عقب قوله : « كلّ الطّعام كان حلالاً لبني إسرائيل » : « قل
فأتوا بالتّوراة فاتّلوها إن كنتم صادقين - إلى قوله - قل صدق الله » .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ
الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [147]

تفريع على الكلام السابق الذي أبطل تحريم ما حرّموه ، ابتداء من
قوله : « ثمانية أزواج » الآيات أي : فإن لم يرعوا بعد هذا البيان

وكذبوك في نفي تحريم الله ما زعموا أنه حرّمه فذكّرهم ببأس الله لعنّهم ينتهون عما زعموه ، وذكّرهم برحمته الواسعة لعنّهم يبادرون بطلب ما يخولّهم رحمته من اتباع هدي الإسلام ، فيعود ضمير : « كذبوك » إلى المشركين وهو المتبادر من سياق الكلام : سابقه ولاحقه ، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون في قوله : « فقل ربّكم ذو رحمة واسعة » تنبيه لهم بأن تأخير العذاب عنهم هو إهمال داخل في رحمة الله رحمة مؤقّته ، لعنّهم يسلمون . وعليه يكون معنى فعل : « كذبوك » الاستمرار ، أي إن استمروا على التكذيب بعد هذه الحجج .

ويجوز أن يعود الضمير إلى الذين هادوا ، تكملة للاستطراد وهو قول مجاهد والسدي : أن اليهود قالوا لم يحرم الله علينا شيئا وإنما حرّمنا ما حرّم إسرائيل على نفسه ، فيكون معنى الآية : فرّض تكذيبهم قوله : « وعلى الذين هادوا حرّمنا » إلخ ، لأن أقوالهم تخالف ذلك فهم بحيث يكذبون ما في هذه الآية ، ويشبهه عليهم الإهمال بالرّضى ، فقليل لهم : « ربكم ذو رحمة واسعة » . ومن رحمته إهماله المجرمين في الدنيا غالبا .

وقوله : « ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين » فيه إيجاز بحذف تقديره : وذو بأس ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين إذا أراد . وهذا وعيد وتوقع وهو تذييل ، لأن قوله : « عن القوم المجرمين » يعتمهم وغيرهم وهو يتضمّن أنهم مجرمون .

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [148]

استئناف رجع به الكلام إلى مجادلة المشركين بعد أن اعترض بينها بقوله : « قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه - إلى قوله - فإن ربك غفور رحيم » ، فلما قطع الله حجّتهم في شأن تحريم ما حرّموه ، وقسمة ما قسموه ، استقصى ما بقي لهم من حجّة وهي حجّة المحجوج المغلوب الذي أعيته المجادلة ولم تبق له حجّة ، إذ يتشبّث بالمعاذير الواهية لترويج ضلاله ، بأن يقول : هذا أمر قضي وقدّر .

فإن كان ضمير الرّفْع في قوله : « فإن كذبوك » عائداً إلى المشركين كان قوله تعالى هنا : « سيقول الذين أشركوا » إظهاراً في مقام الإضمار لزيادة تفضيع أقوالهم ، فإخبار الله عنهم بأنّهم سيقولون ذلك إن كان نزول هذه الآية قبل نزول آية سورة النحل : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء » وهو الأرجح ، فإنّ سورة النحل معدودة في النزول بعد سورة الأنعام . كان الإخبار بأنّهم سيقولونه اطلاعاً على ما تُكِنّه نفوسهم من تزوير هذه الحجّة : فهو معجزة من معجزات القرآن من نوع الإخبار بالغيب كقوله تعالى : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » . وإن كان نزول هذه الآية بعد نزول آية سورة النحل فالإخبار بأنّهم سيقولونه معناه أنّهم سيعيدون معذرتهم المألوفة .

وحاصل هذه الحجّة : أنّهم يحتجّون على النبيّ - صلى الله عليه وسلم - بأنّ ما هم عليه لو لم يكن برضى الله تعالى لصرفهم عنه ولما يسره لهم ، يقولون ذلك في معرض إفحام الرسول - عليه الصّلاة والسلام - وإبطال حكمه عليهم بالضلالة ، وهذه شبهة أهل العقول الأفيّة الذين لا يُفَرّقون بين تصرف الله تعالى بالخلق والتقدير وحفظ قوانين الوجود ، وهو التصرف الذي نسمّيه نحن بالمشيئة وبالإرادة ، وبين تصرفه بالأمر والنهي ، وهو الذي نسمّيه بالرضى وبالمحبّة : فالأوّل تصرف التكوين والثاني تصرف التكليف ، فهم يحسبون أنّ تمكّنهم من وضع قواعد الشّرك ومن التحريم

والتحليل ما هو إلا بأن خلق الله فيهم التمكن من ذلك : فيحسبون أنه حين لم يمسك عِنان أفعالهم كان قد رضى بما فعلوه : وأنه لو كان لا يرضى به لما عجز عن سلب تمكّنهم : يحسبون أن الله يُهمّة سوءُ تصرفهم فيما فطرهم عليه ، ولو كان كما يتوهّمون لكان الباطل والحق شيئا واحدا ، وهذا ما لا يفهمه عقل حَصِيف . فإنّ أهل العقول السخيفة حين يتوهّمون ذلك كانوا غير ملتفتين إلاّ إلى جانب نحلّتهم ومعرضين عن جانب مخالفهم : فإنّهم حين يقولون : « لو شاء الله ما أشركنا » غافلون عن أن يقال لهم . من جانب الرّسول : لو شاء الله ما قلتُ لكم أن فعلكم ضلال ، فيكون الله على حسب شبهتهم قد شاء الشيء ونقيضه إذ شاء أنّهم يشركون وشاء أن يقول لهم الرّسول لا تشركوا .

وسبب هذه الضلالة العارضة لأهل الضلال من الأمم ، التي تلوح في عقول بعض عوام المسلمين في معاذيرهم للمعاصي والجرائم أن يقولوا : أمرُ الله أو مَكْتُوبٌ عند الله أو نحو ذلك ، هو الجهل بأنّ حكمة الله تعالى في وضع نظام هذا العالم اقتضت أن يجعل حجابا بين تصرفه تعالى في أحوال المخلوقات ، وبين تصرفهم في أحوالهم بمقتضى إرادتهم ، وذلك الحجاب هو ناموس ارتباط المسبّبات بأسبابها ، وارتباط أحوال الموجودات في هذا العالم بعضها ببعض ، ومنه ما يسمّى بالكسب والاستطاعة عند جمهور الأشاعرة ، ويسمّى بالقدرة عند المعتزلة وبعض الأشاعرة ، وذلك هو مورد التكليف الدالّ على ما يرضاه الله وما لا يرضى به ، وأنّ الله وضع نظام هذا العالم بحكمة فجعل قوامه هو تدبير الأشياء أمورَها من ذواتها بحسب قوى أودعها في الموجودات لتسعى لما خلقت لأجله ، وزاد الإنسان مزية بأن وضع له عقلا يمكنه من تغيير أحواله على حسب احتياجه ، ووضع له في عقله وسائل الاهتداء إلى الخير والشر ، كما قيض له دعاة إلى الخير تنبّه إليه إن عرته غفلة ، أو حجبتة شهوة ، فإن هو لم يرعو عن غيّه ، فقد خانَ بساطَ عقله بطيئه .

وبهذا ظهر تخطيط أهل الضلالة بين مشيئة العباد ومشيئة الله ، فلذلك ردّ الله عليهم هنا قولهم : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا » لأنّهم جعلوا ما هو مشيئة لهم مشيئة لله تعالى ، ومع ذلك فهو قد أثبت مشيئته في قوله : « ولو شاء الله ما أشركوا » فهي مشيئة تكوين العقول وتكوين نظام الجماعة .

فهذه المشيئة التي اعتلوا بها مشيئة خفية لا تتوصّل إلى الاطلاع على كنهها عقول البشر ، فلذلك نعى الله عليهم استنادهم إليها على جهلهم بكنهها ، فقال : « كذلك كذب الذين من قبلهم » فشبه بتكذيبهم تكذيب المكذّبين الذين من قبلهم ، فكفى بذلك عن كون مقصد المشركين من هذه الحجة تكذيب النبيّ - صلى الله عليه وسلّم - . وقد سبق لنا بيان في هذا المعنى في هذه السورة عند قوله تعالى : « ولو شاء الله ما أشركوا » . وليس في هذه الآية ما ينهض حجة لنا على المعتزلة ، ولا للمعتزلة علينا ، وإن حاول كلا الفريقين ذلك لأنّ الفريقين متفقان على بطلان حجة المشركين . وفي الآية حجة على الجبرية .

وقوله تعالى : « كذلك كذب الذين من قبلهم » أي كذب الذين من قبلهم أنبياءهم مثل ما كذّبك هؤلاء . وهذا يدلّ على أنّ الذين أشركوا قصدوا بقولهم « لو شاء الله ما أشركنا » تكذيب النبيّ - صلى الله عليه وسلّم - إذ دعاهم إلى الإقلاع عمّا يعتقدون بحجة أنّ الله رضىه لهم وشاء منهم مشيئة رضى ، فكذلك الأمم قبلهم كذبوا رسلهم مستندين إلى هذه الشبهة فسمّى الله استدلالهم هذا تكديبا ، لأنّهم ساقوه مساق التكذيب والإفحام ، لأنّ مقتضاه لا يقول به الرسول - صلى الله عليه وسلّم - والمسلمون ، فإنّا نقول ذلك كما قال تعالى : « ولو شاء الله ما أشركوا » نريد به معنى صحيحا فكلامهم من باب كلام الحقّ الذي أريد به باطل ، ووقع في الكشف أنّه قرىء : « كذلك كذب الذين من قبلهم » - بتخفيف ذال كذب -

وقال الطيبي : هي قراءة موضوعة أو شاذة يعني شاذة شذوذا شديدا ولم يروها أحد عن أحد من أهل القراءات الشاذة ، ولعلها من وضع بعض المعتزلة في المناظرة كما يؤخذ من كلام الفخر .

وقوله : « حتى ذاقوا بأسنا » غاية للتكذيب مقصود منها دوامهم عليه إلى آخر أوقات وجودهم . فلما ذاقوا بأس الله هلكوا واضمحلتوا ، وليست الغاية هنا للتهنية : والرجوع . عن الفعل لظهور أنه لا يتصور الرجوع بعد استئصالهم .

والذوق مجاز في الإحساس والشعور ، فهو من استعمال المقيّد في المطلق ، وقد تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى : « ليزوق وبال أمره » في سورة العنكبوت .

وبالأس تقدّم الكلام عليه في سورة البقرة . وإضافته إلى ضمير الله تعالى لتعظيمه وتهويله .

وأمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالجواب عن مقالهم الواقع أو المتوقع بقوله : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » ، ففصل جملة : « قل » لأنها جارية مجرى المقابلة والمجابهة كما تقرر غير مرة ، وجاء بالاستفهام المقصود منه الإفحام والتهكم بما عُرِف من تشبّثهم بمثل هذا الاستدلال .

وجعل الاستفهام بـ (هل) لأنها تدلّ على طلب تحقيق الإسناد المسؤول عنه ، لأن أصل (هل) أنها حرف بمعنى (قد) لا اختصاصها بالأفعال ، وكثرة وقوعها بعد همزة الاستفهام ، فغلب عليها معنى الاستفهام ، فكثر حذف الهمزة معها حتى تنوسيت الهمزة في مشهور الكلام ولم تظهر معها إلا في النادر ، وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى : « فهل أنتم متتهون » في سورة العنكبوت . فدلّ بـ (هل) على أنه سائل عن أمر يريد أن يكون محققا كأنه يرغب في حصوله فيغيرهم بإظهاره حتى إذا عجزوا كان قطعاً لدعواهم .

والمقصود من هذا الاستفهام التهكم بهم في قولهم : « لو شاء الله ما أشركنا - إلى - ولا حرّمنا » ، فأظهر لهم من القول ما يظهره المعجب بكلامهم . وقرينة التهكم بادية لأنّه لا يظنّ بالرسول - عليه الصّلاة والسّلام - والمؤمنين أن يطلبوا العلم من المشركين ، كيف وهو يصارحهم بالتّجهيل والتّضليل صباح مساء .

والعلم : ما قابل الجهل ، وإخراجه الإعلام به ، شبهت إفادة المعلوم لمن يجهله بإخراج الشيء المخبوء ، وذلك مثل التشبيه في قول النبي - عليه الصّلاة والسّلام - « وعلم بثّه في صدور الرّجال » ولذلك كان للإتيان بـ « عندكم » موقع حسن ، لأنّ (عند) في الأصل تدلّ على المكان المختصّ بالذي أضيف إليه لفظها ، فهي ممّا يناسب الخفاء ، ولولا شيوع استعمالها في المعنى المجازي حتّى صارت كالحقيقة لقلّت : إنّ ذكر (عند) هنا ترشيح لاستعمارة الإخراج للإعلام .

وجعل إخراج العلم مرتّباً بفاء السّببيّة على العندية للدّلالة على أنّ السّؤال مقصود به ما يتسبّب عليه .

واللام في : « فتخرجوه لنا » للأجل والاختصاص ، فتؤذن بحاجة مجرورها لمعلّقها ، أي فتخرجوه لأجلنا : أي لنعنا ، والمعنى : لقد أبدعتم في هذا العلم الذي أبدعتموه في استفادتكم أنّ الله أمركم بالشّرك وتحريم ما حرّمتموه بدلالة مشيئة على ذلك إذ لو شاء لما فعلتم ذلك فزيدونا من هذا العلم .

وهذا الجواب يشبه المنع في اصطلاح أهل الجدل ، ولمّا كان هذا الاستفهام صورياً وكان المتكلّم جازماً بانتفاء ما استفهّم عنه أعقبه بالجواب بقوله : « إن تتّبعون إلّا الظنّ » .

وجملة : « إن تتّبعون إلّا الظنّ » مستأنفة لأنّها ابتداء كلام بإضراب

عن الكلام الذي قبله . فبعد أن تهكم بهم جداً في جوابهم ، فقال : « إن يتبعون إلا الظنَّ » أي : لا علم عندكم . وقصارى ما عندكم هو الظنُّ الباطل والخِصْص . وهذا يشبه سند المنع في عرف أهل الجدل . والمراد بالظنَّ الظنَّ الكاذب وهو إطلاق له شائع كما تقدم عند قوله تعالى : « إن يتبعون إلا الظنَّ وإن هم إلا يخرصون » في هذه السورة .

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [149]

جواب عن قولهم : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا » . تكملة للجواب السابق لأنه زيادة في إبطال قولهم . وهو يشبه المعارضة في اصطلاح أهل الجدل .

وأعيد فعل الأمر بالقول لاسترعاء الأسماع لما سيرد بعد فعل : « قُلْ » وقد كرّر ثلاث مرات متعاقبة بدون عطف ، والنكته ما تقدم من كون القول جارياً على طريقة المفاولة .

والفاء فصيحة تؤذن بكلام مقدّر هو شرط ، والتقدير : فإن كان قولكم لمجرد اتباع الظنَّ والخرص وسوء التأويل فلله الحجة البالغة .

وتقديم المجرور على المبتدأ لإفادة الاختصاص ، أي : لله لا لكم ، ففهم منه أن حجّتهم داحضة .

والحجة الأمر الذي يدلّ على صدق أحد في دعواه وعلى مصادفة المستدلّ وجه الحقّ ، وتقدم القول فيها عند قوله تعالى : « لئلا يكون للناس عليكم حجة » في سورة البقرة .

وبالغة هي الواصلة : أي الواصلة إلى ما قصّدت لأجله ، وهو غلب الخصم ، وإبطال حجّته ، كقوله تعالى : « حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ » ، فالبلوغ استعارة مشهورة لحصول المقصود من الشيء فلا حاجة إلى إجراء استعارة

مكنية في الحجة بأن تشبه بسائر إلى غاية ، وقرينتها لإثبات البلوغ ، ولا حاجة أيضا إلى جعل إسناد البلوغ إلى الحجة مجازا عقليا ، أي بالغها صاحبها قصده ، لأنه لا محيص من اعتبار الاستعارة في معنى البلوغ ، فالتفسير به من أول وهلة أولى ، والمعنى : لله الحجة الغالبة لكم ، أي وليس استدلالكم بحجة .

والفاء في قوله : « فلو شاء » فاء التفريع على ظهور حجة الله تعالى عليهم : تفرع على بطلان استدلالهم أن الله لو شاء لهداهم ، أي لو شاء هدايتهم بأكثر من إرسال الرسول - عليه الصلاة والسلام - بأن يغير عقولهم فتأتي على خلاف ما هيئت له لكان قد فعل ذلك بوجه عناية خاصة بهم أو خارق عادة لأجلهم ، إذ لا يعجزه شيء ، ولكن حكمته قضت أن لا يعمم عنايته بل يختص بها بعض خاصته ، وأن لا يعدل عن سنته في الهداية بوضع العقول وتنبهها إلى الحق بإرسال الرسل ونصب الأدلة والدعاء إلى سبيله بالحكمة والموعظة ، فالمشيئة المقصودة في قوله : « فلو شاء لهداكم » غير المشيئة المقصودة فيما حكى الله عنهم من قولهم : « لو شاء الله ما أشركنا » وإلا لكان ما أنكر عليهم قد أثبت نظيره عقب الإنكار فتناقض الحاجة ، لأن الهداية تساوي عدم الإشراك وعدم التحريم ، فلا يصدق جعل كليهما جوابا للو الامتناعية ، فالمشيئة المقصودة في الرد عليهم هي المشيئة الخفية المحجوبة ، وهي مشيئة التكوين ، والمشيئة المنكرة عليهم هي ما أرادوه من الاستدلال بالواقع على الرضى والمحبة . هذا وجه تفسير هذه الآية التي كللها من الإيجاز ما شئت أفهاما كثيرة في وجه تفسيرها لا يخفى بعدها عن مطالع التفاسير والموازنة بينها وبين ما هنا .

﴿ قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِشَايَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ ﴾ [١٥]

استئناف ابتدائي : للانتقال من طريقة الجدل والمناظرة في ابطال زعمهم ، إلى إبطاله بطريقة التبيين ، أي أحضروا من يشهدون أن الله حرم هذا ، تفصيلا لإبطال قولهم من سائر جهاته :

ولذلك أعيد أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن يقول لهم ما يظهر كذب دعواهم .

وإعادة فعل « قل » بدون عطف لاسترعاء الأسماع ولوقوعه على طريقة المحاورة كما قدمناه آنفا :

« وهلم » اسم فعل أمرٍ للحضور أو الإحضار ، فهي تكون قاصرة كقوله تعالى : « هلم إلينا » ومتعدية كما هنا ، وهو في لغة أهل الحجاز يلزم حالة واحدة فلا تلحقه علامات مناسبة للمخاطب ، فتقول : هلم يا زيد ، وهلم يا هند ، وهكذا ، وفي لغة أهل العالية - أعني بني تميم - تلحقه علامات مناسبة ، يقولون : هلمّي يا هند ، وهلمّا ، وهلمّوا ، وهلمّمّن ، وقد جاء في هذه الآية على الأفصح فقال : « هلمّ شهداءكم » .

والشهداء : جمع شهيد بمعنى شاهد ، والأمر للتعجيز إذ لا يلقون شهداء يشهدون أن الله حرم ما نسبوا إليه تحريمه من شؤون دينهم المتقدم ذكرها :

وأضيف الشهداء إلى ضمير المخاطبين لزيادة تعجيزهم ، لأنّ شأن المحقّ أن يكون له شهداء يعلمهم فيحضرهم إذا دُعي إلى إحقاق حقه ، كما يقال للرجل : اركب فرسك والحق فلانا ، لأنّ كلّ ذي بيت في العرب لا يعدم أن يكون له فرس ، نيقول ذلك له من لا يعلم له فرسا خاصا ولكن الشأن أن يكون له فرس ومنه قوله تعالى : « يُدّنين عليهم من جلايبهن » وقد لا يكون لإحداهن جلاب كما ورد في الحديث أنّه سئل : إذا لم يكن لإحدانا جلاب ، قال : لتلبسها أختها من جلابها .

ووصفهم بالموصول لزيادة تقرير معنى إعداد أمثالهم للشهادة ،
فالطالب ينزل نفسه منزلة من يظنهم لا يخلون عن شهداء بحقهم من شأنهم
أن يشهدوا لهم وذلك تمهيد لتعجيزهم البين إذا لم يحضروهم ، كما هو
الموثوق به منهم ألا ترى قوله : « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا »
فهو يعلم أن ليس ثمة شهداء .

وإشارة « هذا » تشير إلى معلوم من السياق ، وهو ما كان الكلام عليه
من أول الجدل من قوله : « ثمانية أزواج » الآيات ، وقد سبقت الإشارة
إليه أيضا بقوله : « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا » .

ثم فرع على فرض أن يحضروا شهداء يشهدون ، قوله « فإن شهدوا فلا
تشهد معهم » ، أي : إن فرض المستبعد فأحضروا لك شهداء يشهدون أن الله
حرم هذا الذي زعموه ، فكذبهم واعلم بأنهم شهود زور ، فقوله :
« فلا تشهد معهم » كناية عن تكذيبهم لأن الذي يصدق أحدا يوافقه في
قوله ، فاستعمل النهي عن موافقتهم في لازمه ، وهو التكذيب ، وإلا فإن
النهي عن الشهادة معهم لمن يعلم أنه لا يشهد معهم لأنه لا يصدق بذلك
فضلا على أن يكون شاهده من قبيل تحصيل الحاصل ، فقرينة الكناية ظاهرة .
وعُطف على النهي عن تصديقهم ، النهي عن اتباع هواهم بقوله :
« ولا تتبع أهواء الذين كذبوا » .

وأظهر في مقام الإضمار قوله : « الذين كذبوا بآياتنا » لأن في
هذه الصلة تذكيرا بأن المشركين يكذبون بآيات الله ، فهم ممن يتجنب
اتباعهم ، وقيل : أريد بالذين كذبوا اليهود بناء على ما تقدم من احتمال
أن يكونوا المراد من قوله : « فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة »
وسمى دينهم هوى لعدم استناده إلى مستند ولكنه إرضاء للهوى . والهوى
غلب لإطلاقه على محبة الملائم العاجل الذي عاقبته ضرر . وقد تقدم عند
قوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم » في سورة البقرة .

وقوله : « والتذين لا يؤمنون بالآخرة » عطف على : « التذين كذبوا » والمقصود عطف الصلة على الصلة لأن أصحاب الصلتين متحدون ، وهم المشركون ، فهذا كعطف الصفات في قول القائل ، أشده الفراء :

إلى الملك القرم وابن الهما م وليث الكتيبة في المزدحم

كان مقتضى الظاهر أن لا يعاد اسم الموصول لأن حرف العطف مغن عنه . ولكن أجرى الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لزيادة التشهير بهم ، كما هو بعض نكت الإظهار في مقام الإضمار . وقيل : أريد بالتذين كذبوا بالآيات : التذين كذبوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - والقرآن ، وهم أهل الكتابين ، وبالتذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون : المشركون . وقد تقدم معنى : « بربهم يعدلون » عند قوله تعالى : « ثم التذين كفروا بربهم يعدلون » في أول هذه السورة .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [151]

استئناف ابتدائي للانتقال من إبطال تحريم ما ادّعوا تحريمه من لحوم الأنعام ، إلى دعوتهم لمعرفة المحرمات ، التي علمها حق وهو أحق بأن يعلموه مما اختلقوا من افتراءهم وموهوا بجدلهم . والمناسبة لهذا الانتقال ظاهرة فالمقام مقام تعليم وإرشاد ، ولذلك ابتدئ بأمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بفعل القول استرعاء للأسماع كما تقدم آنفاً .

وعُقِبَ بفعل : « تعالوا » اهتماما بالغرض الممتثل إليه بأنه أجدى عليهم من تلك السفاسف التي اهتموا بها وهذا على أسلوب قوله تعالى : « ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر » الآيات . وقوله : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر » الآية ، ليعلموا البون بين ما يدعون إليه قومهم وبين ما يدعوهم إليه الإسلام ، من جلائل الأعمال ، فيعلموا أنهم قد أضاعوا أزمانهم وأذهانهم .

وافتاحه بطلب الحضور دليل على أن الخطاب للمشرّكين الذين كانوا في إعراض .

وقد تلا عليهم أحكاما قد كانوا جارّين على خلافها ممّا أفسد حالهم في جاهليتهم ، وفي ذلك تسجيل عليهم بسوء أعمالهم ممّا يؤخذ من النّهي عنها والأمر بضدّها .

وقد انقسمت الأحكام التي تضمّنتها هذه الجمل المتعاطفة في الآيات الثلاث المفتحة بقوله « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ » إلى ثلاثة أقسام :

الأوّل : أحكام بها لإصلاح الحالة الاجتماعية العامة بين النّاس وهو ما افتتح بقوله : « أَنْ لَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » .

الثاني : مابه حفظ نظام تعامل النّاس بعضهم مع بعض وهو المفتح بقوله « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ » .

الثالث : أصل كلي جامع لجميع الهدى وهو اتباع طريق الإسلام والتحرّز من الخروج عنه إلى سبيل الضلال وهو المفتح بقوله : « وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ » .

وقد ذيل كل قسم من هذه الأقسام بالوصاية به بقوله : « ذَلِكَمِ وصَاكُمْ بِهِ » ثلاث مرّات .

و (تعالَ) فعل أمر ، أصله يُؤمر به من يراد صعوده إلى مكان مرتفع فوق مكانه ، ولعلَّ ذلك لأنَّهم كانوا إذا نادوا إلى أمر مهم ارتقى المنادي على ربوة ليُسمع صوته ، ثمَّ شاع إطلاق (تعالَ) على طلب المجيء مجازا بعلاقة الإطلاق فهو مجاز شائع صار حقيقة عرفية ، فأصله فعل أمر لا محالة من التعالي وهو تكلف الاعتلاء ثمَّ نقل إلى طلب الإقبال مطلقا ، فقليل : هو اسم فعل أمر بمعنى (اقدَمْ) ، لأنَّهم وجدوه غير متصرف في الكلام إذ لا يقال : تعاليتُ بمعنى (قدِمت) ، ولا تعالَى إلَيَّ فلان بمعنى جاء ، وأيَّاما كان فقد لزمته علامات مناسبة لحال المخاطب به فيقال : تعالوا وتعالين. وبذلك رجَّح جمهور النحاة أنَّه فعل أمر وليس باسم فعل ، ولأنَّه لو كان اسم فعل لما لحقته العلامات ، ولكان مثل : هلُمَّ وهيئات .

و«أتلُ» جواب «تعالوا» ، والتلاوة القراءة ، والسرْدُ وحكاية اللفظ ، وقد تقدَّم عند قوله تعالى : «واتَّبِعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ على ملك سليمان» . و«أن لا تشركوا» تفسير للتلاوة لأنَّها في معنى القول .

وذكرت فيما حرَّم الله عليهم أشياء ليست من قبيل اللحوم إشارة إلى أنَّ الاهتمام بالمحرَّمات الفواحش أولى من العكوف على دراسة أحكام الأطعمة ، تعريضا بصرف المشركين همَّتهم إلى بيان الأطعمة وتضييعهم تزكية نفوسهم وكف المفساد عن النَّاس ، ونظيره قوله : «قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده - إلى قوله - إنَّما حرَّم ربِّي الفواحش ما ظهر منها» الآية .

وقد ذكرت المحرَّمات : بعضها بصيغة النِّهي ، وبعضها بصيغة الأمر الصَّريح أو المؤوَّل ، لأنَّ الأمر بالشَّيء يقتضي النِّهي عن ضده ، ونكتة الاختلاف في صيغة الطلب لهاته المعدودات سببها .

و (أن) تفسيرية لفعل : «أتلُ» لأنَّ التلاوة فيها معنى القول . فجملة : «ألا تشركوا» في موقع عطف بيان .

والابتداء بالنتهي عن الإشراك لأن إصلاح الاعتقاد هو مفتاح باب الإصلاح في العاجل ، والفلاح في الآجل .

وقوله : « وبالوالدين إحسانا » عطف على جملة : « أن لا تشركوا » . و « إحسانا » مصدر ناب مناب فعله ، أي وأحسنوا بالوالدين إحسانا ، وهو أمر بالإحسان إليهما فيفيد النهي عن ضده : وهو الإساءة إلى الوالدين ، وبذلك الاعتبار وقع هنا في عداد ما حرّم الله لأن المحرّم هو الإساءة للوالدين . وإنّما عدل عن النهي عن الإساءة إلى الأمر بالإحسان اعتناء بالوالدين ، لأنّ الله أراد برّهما ، والبرّ إحسان ، والأمر به يتضمّن النهي عن الإساءة إليهما بطريق فحوى الخطاب ، وقد كان كثير من العرب في جاهليتهم أهل جلافة ، فكان الأولاد لا يوقرون آباءهم إذا أضعفهم الكبر ، فلذلك كثرت وصاية القرآن بالإحسان بالوالدين .

وقوله : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » جملة عطف على الجملة قبلها أريد به النهي عن الوأد ، وقد تقدّم بيانه عند قوله تعالى في هذه السّورة : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم » .

و (من) تعليلية ، وأصلها الابتدائية فجعل المعلول كأنه مبتدئ من علته .

والإملاق : الفقر ، وكونه علّة لقتل الأولاد يقع على وجهين : أن يكون حاصلًا بالفعل ، وهو المراد هنا ، وهو الذي تقتضيه (من) التعليلية ، وأن يكون متوقّع الحصول كما قال تعالى ، في آية سورة الإسراء : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » لأنّهم كانوا يشدون بناتهم إمّا للعجز عن القيام بهنّ وإمّا لتوقع ذلك . قال إسحاق بن خلف : وهو إسلامي قديم :

إذا تذكرتُ بنتي حين تندبني فاضمت لعبرة بنتي عبرتي بدم
أحاذر الفقر يوما أن يلُمّ بها فيُكشف السرُّ عن لحم على وضم

وقد تقدّم عند قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم » في هذه السّورة .

وجملة : « نحن نرزقكم وإياهم » معترضة : مستأنفة : علّة للنّهْي عن قتلهم ، لإبطالاً لمعذرتهم : لأنّ الفقر قد جعلوه عذراً لقتل الأولاد ، ومع كون الفقر لا يصلح أن يكون داعياً لقتل النفس : فقد بين الله أنّه لما خلق الأولاد فقد قدر رزقهم ، فمن الحماقة أن يظنّ الأب أنّ عجزه عن رزقهم يخوله قتلهم ، وكان الأجدر به أن يكتسب لهم .

وعُدل عن طريق الغيبة الذي جرى عليه الكلام من قوله : « ما حرم ربكم » إلى طريق التكلّم بضمير : « نرزقكم » تذكيراً بالذي أمر بهذا القول كله ، حتّى كأنّ الله أقحم كلامه بنفسه في أثناء كلام رسوله الذي أمره به ، فكلّم الناس بنفسه ، وتأكّداً لتصديق الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وذكر الله رزقهم مع رزق آبائهم . وقدم رزق الآباء للإشارة إلى أنّه كما رزق الآباء ، فلم يموتوا جوعاً ، كذلك يرزق الأبناء . على أن الفقر إنّما اعتري الآباء فلم يُقتل لأجله الأبناء .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي . هنا لإفادة الاختصاص : أي نحن نرزقكم وإياهم لا أنتم ترزقون أنفسكم ولا ترزقون أبناءكم . وقد بينت أنّما أنّ قبائل كثيرة كانت تند البنات . فلذلك حذروا في هذه الآية .

وجملة : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » عطف على ما قبله . وهو نهْي عن اقتراف الآثام . وقد نهى عن القرب منها ، وهو أبلغ في التحذير من النهي عن ملابتها : لأنّ القرب من الشيء مظنة الوقوع فيه ، ولما لم يكن للإثم قرب وبعد كان القرب مراداً به الكناية عن ملابة الإثم أقلّ ملابة ، لأنّه من المتعارف أن يقال ذلك في الأمور المستترة

في الأمكنة إذا قيل لا تقرب منها فهم النهي عن القرب منها ليكون النهي عن ملابتها بالأحرى . فلما تعذر المعنى المطابق هنا تعينت إرادة المعنى الالتزامي بأبلغ وجه .

والفواحش: الآثام الكبيرة ، وهي المشتملة على مفسد ، وتقدم بيانها عند قوله تعالى : « إنما يأمركم بالسوء والفحشاء » في سورة البقرة .

و«ما ظهر منها» ما يظهرونه ولا يستخفون به ، مثل الغضب والقذف . «وما بطن» ما يستخفون به وأكثره الزنا والسرقه وكانا فاشيين في العرب .

ومن المنسرين من فسّر الفواحش بالزنا ، وجعل ما ظهر منها ما يفعله سنهائهم في الحوانيت وديار البغايا ، وبما بطن اتخذ الأخدان سراً ، وروي هذا عن السدي . وروي عن الضحاك وابن عباس : كان أهل الجاهلية يرون الزنا سراً حلالاً ، ويستقبحونه في العلانية ، فحرم الله الزنى في السر والعلانية . وعندى أن صيغة الجمع في الفواحش ترجح التفسير الأول كقوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللثم » . ولعلّ الذي حمل هؤلاء على تفسير الفواحش بالزنى قوله في سورة الإسراء في آيات عدّدت منهيّات كثيرة تشابه آيات هذه السورة وهي قوله : « ولا تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة وساء سبيلاً » ، وليس يلزم أن يكون المراد بالآيات المتماثلة واحداً . وتقدم القول في : « ما ظهر وما بطن » عند قوله تعالى : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » في هذه السورة .

وأعقب ذلك بالنهي عن قتل النفس ، وهو من الفواحش على تفسيرها بالأعم . تخصيصاً له بالذكر : لأنّه فساد عظيم ، ولأنّه كان متفشياً بين العرب .

والتعريف في النفس تعريف الجنس ، فيفيد الاستغراق .

ووصفت بـ «الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ» تأكيداً للتَّحْرِيمِ بأنَّه تحريم قديم :
 فإنَّ الله حَرَّمَ قتل النفس من عهد آدم ، وتعليق التَّحْرِيمِ بالنفس : هو
 على وجه دلالة الاقتضاء ، أي حَرَّمَ الله قتلها على ما هو المعروف في تعليق
 التَّحْرِيمِ والتَّحْلِيلِ بأعيان الذَّوَاتِ أنَّه يراد تعليقه بالمعنى الَّذِي تستعمل
 تلك الذَّات فيه كقوله : «أَحَلَّتْ لَكُمْ بهيمة الأنعام» أي، أكلها ،
 ويجوز أن يكون معنى : «حَرَّمَ اللَّهُ» جعلها الله حَرَّماً أي شيئاً محترماً لا
 يعتدى عليه، كقوله تعالى : «إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي
 حَرَّمَهَا». وفي الحديث : «وإِنِّي أَحَرَّمُ ما بينَ لَابَتَيْهَا» .

وقوله : «إِلَّا بِالْحَقِّ» استثناء مفرَّغ من عموم أحوال ملابسة القتل .
 أي لا تقتلوهما في أيَّة حالة أو بأي سبب تتحلونه إلاَّ بسبب الحق ،
 فالبراء للملابسة أو السبيَّة .

والحقَّ ضدَّ الباطل ، وهو الأمر الَّذِي حَقَّ، أي ثبت أنَّه غير باطل في
 حكم الشريعة وعند أهل العقول السليمة البريئة من هوى أو شهوة خاصَّة ،
 فيكونُ الأمرُ الَّذِي اتَّفَقَت العقول على قبوله ، وهو ما اتَّفَقَت عليه الشرائع ،
 أو الَّذِي اصطاح أهل نزعة خاصَّة على أنَّه يحقَّ وقوعه وهو ما اصطاحت
 عليه شريعة خاصَّة بأمة أو زمنٍ .

فالتعريف في : «الحقَّ» للجنس ، والمراد به ما يتحقق فيه ماهية
 الحقَّ المتقدم شرحها، وحيثما أطلق في الإسلام فالمراد به ماهيته في نظر
 الإسلام ، وقد فصل الإسلام حقَّ قتل النفس بالقرآن والسنة ، وهو قتل
 المحارب والقصاص ، وهذان بنصَّ القرآن ، وقتل المرتدَّ عن الإسلام بعد
 استنابته ، وقتل الزَّاني المحصن ، وقتل الممتنع من أداء الصَّلَاة بعد إنظاره
 حتَّى يخرج وقتها ، وهذه الثلاثة وردت بها أحاديث عن النَّبيِّ - صَلَّى اللهُ
 عليه وسلَّم - ، ومنه القتل النَّاشِئ عن إكراه ودفاعٍ مأذونٍ فيه شرعاً .
 وذلك قتل من يُقتل من البغاة وهو بنصَّ القرآن ، وقتل من يُقتل من مانعي

الزكاة وهو بإجماع الصحابة ، وأما الجهاد فغير داخل في قوله : «إلا بالحق» ، ولكن قتل الأسير في الجهاد إذا كان لمصلحة كان حقاً ، وقد فصلنا الكلام على نظير هذه الآية في سورة الإسراء .

والإشارة بقوله : « ذلكم وصّاكم به » إلى مجموع ما ذكر ، ولذلك أفرد اسم الإشارة باعتبار المذكور ، ولو أتى بإشارة الجمع لكان ذلك فصيحاً ، ومنه : « كل أولئك كان عنه مسؤولاً » .

وتقدّم معنى الوصاية عند قوله : « أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا أنفا » .

وقوله : « لعلكم تعقلون » رجاء أن يعقلوا ، أي يصيروا ذوي عقول لأنّ ملابسة بعض هذه المحرمات ينبيء عن خسارة عقل ، بحيث ينزل ملابسوها منزلة من لا يعقل ، فلذلك رُجّي أن يعقلوا .

وقوله : « ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون » تذييل جعل نهاية للآية ، فأوماً إلى تنهية نوع من المحرمات وهو المحرمات الراجع تحريمها إلى إصلاح الحالة الاجتماعية للأمة ، بإصلاح الاعتقاد ، وحفظ نظام العائلة والانكفاف عن المفساد ، وحفظ النوع بترك التقاتل .

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾

عطف جملة : « ولا تقربوا » على الجملة التي فسّرت فعل : « أتئل » عطف محرمات ترجع إلى حفظ قواعد التعامل بين الناس لإقامة قواعد الجامعه الإسلامية ومدنيتها وتحقيق ثقة الناس بعضهم ببعض .

وابتدأها بحفظ حقّ الضّعيف الذي لا يستطيع الدّفع عن حقّه في ماله ، وهو اليتيم ، فقال : « ولا تقرّبوا مال اليتيم إلّا بالتّي هي أحسن » والقربان كناية عن ملاسة مال اليتيم . والتصرّف فيه كما تقدّم آنفا في قوله : « ولا تقرّبوا الفواحش » . ولمّا اقتضى هذا تحريم التصرف في مال اليتيم ، ولو بالخزن والحفظ ، وذلك يعرّض ماله للتلف ، استثنى منه قوله : « إلّا بالتّي هي أحسن » أي إلّا بالحالة التي هي أحسن ، فاسم الموصول صفة لموصوف محذوف يقدرّ مناسباً للموصول الذي هو اسم للمؤنث ، فيقدر بالحالة أو الخصلة .

والباء للملابسة ، أي إلّا ملاسين للخصلة أو الحالة التي هي أحسن حالات القرب ، ولك أن تقدّره بالمرّة من : « تقرّبوا » أي إلّا بالقربة التي هي أحسن . وقد التزم حذف الموصوف في مثل هذا التركيب واعتباره مؤنثاً يجري مجرى المثل ، ومنه قوله تعالى : « ادفع بالتّي هي أحسن السيئة » أي بالخصلة الحسنة ادفع السيئة ، ومن هذا القبيل أنّهم أتوا بالموصول مؤنثاً وصفاً لمحذوف ملتزم الحذف وحذفوا صلته أيضاً في قولهم في المثل : « بعد اللّتيّ والتّي » ، أي بعد الداهية الحقيرة والداهية الجلييلة كما قال سلّمى بن ربيعة الضبّي :

ولقد رأبتُ ثأى العشيرة بينها وكفيتُ جانبها اللّتيّ والتّي

و « أحسن » اسم تفضيل مسلوب المفاضلة ، أي الحسنة ، وهي النافعة التي لا ضرّ فيها لليتيم ولا لِماله . وإنّما قال هنا : « ولا تقرّبوا » تحذيراً من أخذ ماله ولو بأقلّ أحوال الأخذ لأنّه لا يدفع عن نفسه ، ولذلك لم يقل هنا : « ولا تأكلوا » كما قال في سورة البقرة : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

والأشدّ : اسم يدلّ على قوّة الإنسان ، وهو مشتقّ من الشدّ وهو التوثق ،

والمراد به في هذه الآية ونظائرها ، ممّا الكلام فيه على اليتيم ، بلوغه القوة التي يخرج بها من ضعف الصبّا ، وتلك هي البلوغ مع صحّة العقل ، لأنّ المقصود بلوغه أهليّة التصرف في ماله . وما منع الصبي من التصرف في المال إلّا لضعف في عقله بخلاف المراد منه في أوصاف الرجال فإنّه يُعنى به بلوغ الرجل منتهى حدّ القوة في الرجال وهو الأربعون سنة إلى الخمسين قال تعالى : « حتّى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة » وقال سُحيم بن وثيل :

أخو خمسين مُجتمع أشدّي وتَجَدّني مداورة الشُّون

والبلوغ : الوصول ، وهو هنا مجاز في التدرّج في أطوار القوة المخرجة من وهن الصبّا .

و (حتّى) غاية للمستثنى : وهو القربان بالتّي هي أحسن ، أي التصرف فيه إلى أن يبلغ صاحبه أشده أي فيسلم إليه ، كما قال تعالى في الآية الأخرى « فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » الآية .

ووجه تخصيص حقّ اليتيم في ماله بالحفظ : أنّ ذلك الحقّ مظنة الاعتداء عليه من الولي ، وهو مظنة انعدام المدافع عنه ، لأنّه ما من ضعيف عندهم إلّا وله من الأقارب والموالي من يدفع عنه إذا استجاره أو استنجدّه ، فأما اليتيم فإنّ الاعتداء عليه إنّما يكون من أقرب النّاس إليه ، وهو وليّه ، لأنّه لم يكن يلي اليتيم عندهم إلّا أقرب النّاس إليه ، وكان الأولياء يتوسّعون في أموال أيتامهم ، ويعتدّون عليها ، ويضيعون الأيتام لكيلا ينشأوا نشأة يعرفون بها حقوقهم ، ولذلك قال تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى » لأنّ اليتيم مظنة الإضاعة فلذلك لم يوص الله تعالى بمال غير اليتيم ، لأنّ صاحبه يدفع عن نفسه ، أو يستدفع بأوليائه ومنجديه .

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾

عطف الأمر بإيفاء الكيل والميزان ، وذلك في التبائع ، فقد كانوا يبيعون التمر والزبيب كيلا ، وكانوا يتوازنون الذهب والفضة ، فكانوا يُطَقِّفون حرصا على الربح ، فلذلك أمرهم بالوفاء . وعدل عن أن يأتي فيه بالنهي عن التطفيف كما في قول شعيب : « ولا تَنَقِّصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ » إشارة إلى أنهم مأمورون بالحد الذي يتحقق فيه العدل وافيًا ، وعدم النقص يساوي الوفاء ، ولكن في اختيار الأمر بالإيفاء اهتماما به لتكون النفوس ملتفتة إلى جانب الوفاء لا إلى جانب ترك التنقيص ، وفيه تذكير لهم بالسخاء الذي يتمادحون به كأنه قيل لهم : أين سخاؤكم الذي تنافسون فيه فهلا تظهرونه إذا كِلْتُم أو وزنتم فتزيدوا على العدل بأن توفروا للمكْتال كرما بله أن تسرقوه حقه . وهذا تنبيه لهم على اختلال أخلاقهم وعدم توازنها .

والباء في قوله : « بالقسط » للملاسة والقسط العدل ، وتقدم عند قوله تعالى : « قائما بالقسط » في سورة آل عمران ، أي أوفوا متلبسين بالعدل بأن لا تظلموا المكْتال حقه .

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

ظاهر تعقيب جملة : « وأوفوا الكيل » إلخ بجملة : « لا نكلف نفسا إلا وسعها » أنها متعلقة بالتي وليتها فتكون احتراسا ، أي لا نكلفكم تمام القسط في الكيل والميزان بالحبة والذرة ولكننا نكلفكم ما تظنون أنه عدل ووفاء . والمقصود من هذا الاحتراس أن لا يترك الناس التعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة ، فيفضي ذلك إلى تعطيل منافع جمّة . وقد عدل في هذا الاحتراس عن طريق الغيبة الذي بُني عليه المقول ابتداء من قوله : « مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » لما في

هذا الاحتراس من الامتنان ، فتولّى الله خطاب النّاس فيه بطريق التكلّم مباشرة زيادة في المنّة ، وتصديقا للمبلغ ، فالوصاية بإيفاء الكيل والميزان راجعة إلى حفظ مال المشتري في مظنة الإضاعة ، لأنّ حالة الكيل والوزن حالة غفلة المشتري ، إذ البائع هو الذي بيده المكيال أو الميزان ، ولأنّ المشتري لرغبته في تحصيل المكيل أو الموزون قد يتحمّل التطفيف ، فأوصي البائع بإيفاء الكيل والميزان . وهذا الأمر يدلّ بفحوى الخطاب على وجوب حفظ المال فيما هو أشدّ من التطفيف ، فإنّ التطفيف إن هو إلّا مخالسة قدّر يسير من المبيع ، وهو الذي لا يظهر حين التقدير فأكل ما هو أكثر من ذلك من المال أولى بالحفظ ، وتجنّب الاعتداء عليه .

ويجوز أن تكون جملة : « لا نكلّف نفسا إلّا وسعها » تذييلا للجميل التي قبلها ، تسجيلا عليهم بأنّ جميع ما دُعوا إليه هو في طاقتهم ومكتهم .

وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى : « لا يكلّف الله نفسا إلّا وسعها » في آخر سورة البقرة .

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾

هذا جامع كلّ المعاملات بين النّاس بواسطة الكلام وهي الشهادة ، والقضاء ، والتعديل ، والتجريح ، والمشاورة ، والصلح بين النّاس ، والأخبار المخبرة عن صفات الأشياء في المعاملات : من صفات المبيعات ، والمؤاجرات ، والعيوب ؛ وفي الوعود ، والوصايا ، والأيمان ؛ وكذلك المدائح والشتائم كالقذف ، فكلّ ذلك داخل فيما يصدر عن القول .

والعدل في ذلك أن لا يكون في القول شيء من الاعتداء على الحقوق :

بإبطالها ، أو إخفائها ، مثل كتمان عيوب المبيع ، وادّعاء العيوب في الأشياء السليمة ، والكذب في الأثمان ، كأن يقول التاجر : أُعْطيت في هذه السلعة كذا ، لئن لم يُعْطَ ، أو أن هذه السلعة قامت علي بكذا . ومنه التزام الصدق في التعديل والتجريح وإبداء النصيحة في المشاورة ، وقول الحق في الصلح . وأمّا الشهادة والقضاء فأمر العدل فيهما ظاهر ، وإذا وعد القائل لا يُخلف ، وإذا أوصى لا يظلم أصحاب حقوق الميراث ، ولا يحلف على الباطل ، وإذا مدح أحدا مدحه بما فيه . وأمّا الشتم فالإمساك عنه واجب ولو كان حقا فذلك الإمساك هو العدل لأن الله أمر به .

وفي التعليق بأداة الشرط في قوله : « وإذا قلت » إشارة إلى أن المرء في سعة من السكوت إن خشي قول العدل . وأمّا أن يقول الجور والظلم والباطل فليس له سبيل إلى ذلك ، والكذب كله من القول بغير العدل ، على أن من السكوت ما هو واجب . وفي الموطأ أن رجلا خطب إلى رجل أخته فذكر الأخ أنها قد كانت أحدثت فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فضربه أو كاد يضربه ثم قال : « مَالِكَ وَلِلْخَبَرِ » .

والواو في قوله : « ولو كان » واو الحال ، ولو وصلية تفيد المبالغة في الحال التي من شأنها أن يظن السامع عدم شمول الحكم لآثارها لاختصاصها من بين بقية الأحوال التي يشملها الحكم ، وقد تقدّم بيانها عند قوله تعالى : « فلن يُقْبَلَ من أحدهم مِلءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به » في سورة آل عمران ، فإن حالة قرابة المقول لأجله القول قد تحمل القائل على أن يقول غير العدل ، لنفع قريبه أو مصانته ، فنبهوا على وجوب التزام العدل في القول في تلك الحالة ، فالضمير المستتر في (كان) عائد الى شيء معلوم من الكلام : أي ولو كان الذي تعلق به القول ذا قربي .

والقربى : القرابة ويُعلم أنه ذو قرابة من القائل ، أي إذا قلتم قولاً لأجله أو عليه فاعدلوا ولا تقولوا غير الحق ، لا لدفع ضرره بأن تغمصوا الحق الذي عليه ، ولا لنفعه بأن تختلقوا له حقاً على غيره أو تبرؤوه مما صدر منه على غيره ، وقد قال الله تعالى في العدل في الشهادة والقضاء : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

وقد جاء طلب الحق في القول بصيغة الأمر بالعدل ، دون النهي عن الظلم أو الباطل : لأنه قيده بأداة الشرط المقتضي لصدور القول : فالقول إذا صدر لا يخلو عن أن يكون حقاً أو باطلاً ، والأمر بأن يكون حقاً أوفى بمقصد الشارع لوجهين : أحدهما أن الله يحب إظهار الحق بالقول ففي الأمر بأن يكون عدلاً أمر بإظهاره ونهي عن السكوت بدون موجب . الثاني أن النهي عن قول الباطل أو الزور يصدق بالكلام الموجه الذي ظاهره ليس بحق ، وذلك مذموم إلا عند الخوف أو الملاينة ، أو فيما لا يرجع إلى إظهار حق ، وتلك هي المعارض التي ورد فيها حديث : « إن في المعارض لمندوحة عن الكذب » (1) .

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾

ختم هذه المتلوات بالأمر بإيفاء العهد بقوله : « وبعهد الله أوفوا » . وعهد الله الأمور بالإيفاء به هو كل عهد فيه معنى الانتساب إلى الله الذي

(1) رواه البيهقي في سننه وابن عدي في الكامل عن عمران بن حصين . قيل : هو مرفوع والأصح موقوف

اقتضته الإضافة ، إذ الإضافة هنا يصح أن تكون إضافة المصدر إلى الفاعل ، أي ما عهد الله به إليكم من الشرائع ، ويصح أن تكون إضافة المصدر إلى مفعوله ، أي ما عاهدتم الله أن تفعلوه ، والتزمتوه وتقلدتموه ، ويصح أن تكون الإضافة لأدنى ملابسة ، أي العهد الذي أمر الله بحفظه ، وحذر من ختره ، وهو العهود التي تنعقد بين الناس بعضهم مع بعض سواء كان بين القبائل أم كان بين الآحاد . ولأجل مراعاة هذه المعاني الناشئة عن صلاحية الإضافة لإفادتها عدل إلى طريق إسناد اسم العهد إلى اسم الجلالة بطريق الإضافة دون طريق الفعل ، بأن يقال : وبما عاهدتم الله عليه ، أو نحو ذلك ما لا يحتمل إلا معنى واحدا . وإذا كان الخطاب بقوله : « تَعَالَوْا » للمشركين تعين أن يكون العهد شيئا قد تقررت معرفته بينهم ، وهو العهود التي يعقدونها بالموالاة والصلح أو نحو ذلك فهو يدعوهم إلى الوفاء بما عاقدوا عليه . وأضيف إلى الله لأنهم كانوا يتحالفون عند التعاقد ولذلك يسمون العهد حلفا قال الحارث بن حلزة :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قُدم فيه العهود والكفلاء

وقال عمرو بن كلثوم :

وَنُوجِدْ نَحْنُ أَمْنَعَهُمْ ذِمَارًا وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَقَدُوا يَمِينًا

فالآية آمرة لهم بالوفاء ، وكان العرب يتمادحون به . ومن العهود المقررة بينهم : حلف الفضول ، وحلف المطيبين ، وكلاهما كان في الجاهلية على نقي الظلم والجور عن القاطنين بمكة ، وذلك تحقيق لعهد الله لإبراهيم - عليه السلام - أن يجعل مكة بلدا آمنا ومن دخله كان آمنا ، وقد اعتدى المشركون على ضعفاء المؤمنين وظلموهم مثل عمار ، وبلال ، وعامر بن فهيرة ، ونحوهم ، فهو يقول لهم فيما يتلو عليهم أن خفر عهد الله بأمان مكة ، وخفر عهودكم بذلك ، أولى بأن تحرّموه

من مزاعمكم الكاذبة فيما حرّمتم وفصلتم ، فهذا هو الوجه في تفسير قوله :
« وبعهد الله أوفوا » .

وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بأمر العهد وصرف ذهن السامع
عند ، ليتقرر في ذهنه ما يرد بعده من الأمر بالوفاء ، أي إن كنتم ترون
الوفاء بالعهد مدحة فعهد الله أولى بالوفاء وأنتم قد اخترتموه ، فهذا
كقوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه
كبير - ثم قال - وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج
أهله منه أكبر عند الله » .

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [152]

تكرار لقوله المماثل له قبله ، وقد علمت أن هذا التذييل ختم
به صنف من أصناف الأحكام .

وجاء مع هذه الوصية بقوله : « لعلكم تذكرون » لأن هذه المطالب
الأربعة عرف بين العرب أنها محامد ، فالأمر بها ، والتحريض عليها
تذكير بما عرفوه في شأنها ولكنهم تناسوه بغلبة الهوى وغشاة الشرك
على قلوبهم .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم في
رواية أبي بكر ، وأبو جعفر ، ويعقوب : تذكرون - بتشديد الذال لإدغام
التاء الثانية في الذال بعد قلبها - ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم في
رواية حفص ، وخلف - بتخفيف الذال على حذف التاء الثانية تخفيفاً - .

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [153]

الواو عاطفة على جملة : « أن لا تشركوا به شيئا » لتماثل المعطوفات في أغراض الخطاب وترتيبه ، وفي تخلل التذييلات التي عقيبت تلك الأغراض بقوله : « لعلكم تعقلون - لعلكم تذكرون - لعلكم تتقون » . وهذا كلام جامع لاتباع ما يجيء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الوحي في القرآن .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وأبو جعفر : « أن » - بفتح الهمزة وتشديد النون - .

وعن الفراء والكسائي أنه معطوف على : « ما حرّم ربكم » ، فهو في موضع نصب بفعل : « أثل » والتقدير : وأثّل عليكم أن هذا صراطي مستقيما .

وعن أبي عليّ الفارسي : أن قياس قول سيويه أن تحمل (أن) ، أي تعلق على قوله : « فاتبعوه » ، والتقدير : ولأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، على قياس قول سيويه في قوله تعالى : « لإيلاف قريش » . وقال في قوائمه تعالى : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » المعنى : ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا آه .

ف (أن) مدخولة للام التعليل محذوفة على ما هو المعروف من حذفها مع (أن) و (أن). وتقدير النظم : واتبعوا صراطي لأنه صراط مستقيم ، فوقع تحويل في النظم بتقدير التعليل على الفعل الذي حقه أن يكون معطوفا ، فصار التعليل معطوفا لتقديمه ليفيد تقديمه تفرّع المعلل وتسببه ، فيكون التعليل بمنزلة الشرط بسبب هذا التقديم ، كأنه قيل : لما كان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « وإن » - بكسر الهمزة وتشديد النون - فلا تحويل في نظم الكلام ، ويكون قوله : « فاتبعوه » تفريعا على إثبات الخبر بأن صراطه مستقيم . وقرأ ابن عامر ، ويعقوب : « وأن »

— بفتح الهمزة وسكون النون — على أنَّها مخففة من الثقلية واسمها ضمير شأن مُقدر والجملة بعده خبره ، والأحسن تخريجها بكون (أن) تفسيرية معطوفة على : « أن لا تشركوا » . ووجه إعادة (أن) اختلاف أسلوب الكلام عما قبله .

والإشارة إلى الإسلام : أي وأن الإسلام صراطي ؛ فالإشارة إلى حاضر في أذهان المخاطبين من أثر تكرر نزول القرآن وسماع أقوال الرسول — عليه الصلاة والسلام — ، بحيث عرفه الناس وتبينوه ، فنزل منزلة المشاهد ، فاستعمل فيه اسم الإشارة الموضوع لتعيين ذات بطريق المشاهدة مع الإشارة ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع التشريعات والمواظ التي تقدمت في هذه السورة ، لأنها صارت كالشيء الحاضر المشاهد ، كقوله تعالى : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » .

والصراط : الطريق الجادة الواسعة ، وقد مرّ في قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » والمراد الإسلام كما دلّ عليه قوله في آخر السورة : « قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم » دينا قيما « لأن المقصود منها تحصيل الصلاح في الدنيا والآخرة فشبهت بالطريق الموصل السائر فيه إلى غرضه ومقصده .

ولما شبه الإسلام بالصراط وجعل كالشيء المشاهد صار كالطريق الواضحة البينة فادّعى أنه مستقيم ، أي لا اعوجاج فيه لأن الطريق المستقيم أيسر سلوكا على السائر وأسرع وصولا به .

والياء المضاف إليها (صراط) تعود على الله ، كما بينه قوله : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله » على إحدى طريقتين في حكاية القول إذا كان في المقول ضمير القائل أو ضمير الأمر بالقول ، كما تقدم عند قوله تعالى : « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم » في سورة العنود . وقد عدل عن طريقة الغيبة ، التي جرى عليها الكلام من

قوله : « ما حرّم ربكم » لغرض الإيماء إلى عصمة هذا الصراط من الزلل ، لأنّ كونه صراط الله يكفي في إفادة أنّه موصل إلى النّجاح ، فلذلك صحّ تفريع الأمر باتّباعه على مجرد كونه صراط الله . ويجوز عود الباء إلى النّبيّ المأمور بالقول ، إلّا أنّ هذا يستدعي بناء التفريع بالأمر باتّباعه على ادّعاء أنّه واضح الاستقامة ، وإلّا فإنّ كونه طريق النّبيّ لا يقتضي تسبّب الأمر باتّباعه عنه بالنسبة إلى المخاطبين المكذّبين .

وقوله : « مستقيما » حال من اسم الإشارة ، وحسن وقوعه حالا أنّ الإشارة بنيت على ادّعاء أنّه مشاهد ، فيقتضي أنّه مستحضر في الذّهن بمجمل كليّاته وما جربوه منه وعرفوه ، وأنّ ذلك يريهم أنّه في حال الاستقامة كأنّه أمر محسوس ، ولذلك كثر مجيء الحال من اسم الإشارة نحو : « وهذا بعليّ شيخا » ولم يأتوا به خبرا .

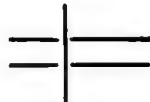
والسُّبُل : الطُّرُق ، ووقوعها هنا في مقابلة الصّراط المستقيم يدلّ على صفة محذوفة ، أي السُّبُل المتفرّقة غير المستقيمة ، وهي التي يسمّونها : بُنيّات الطُّريق ، وهي طرق تشعبت من السبيل الجادة ذاهبة ، يسلكها بعض المارة فرادى إلى بيوتهم أو مراعيهم فلا تبلغ إلى بلد ولا إلى حيّ ، ولا يستطيع السّير فيها إلّا من عقّلها واعتادها ، فلذلك سبب عن النّهي قوله : « فتفرّق بكم عن سبيله » ، أي فإنّها طرق متفرّقة فهي تجعل سالكها متفرّقا عن السبيل الجادة ، وليس ذلك لأنّ السبيل اسم للطريق الضيقة غير الموصلة ، فإنّ السبيل يرادف الصّراط ألا ترى إلى قوله : « قل هذه سبيلي » ، بل لأنّ المقابلة والإخبار عنها بالتفرّق دلّ على أنّ المراد سبُل خاصة موصوفة بغير الاستقامة .

والباء في قوله : « بكم » للمصاحبة : أي فتفرّق السبُل مصاحبة لكم ، أي تفرّقون مع تفرّقها ، وهذه المصاحبة المجازية تجعل الباء بمنزلة

همزة التعدية كما قاله النحاة ، في نحو : ذَهَبْتُ بزيد ، أنه بمعنى أذهبته ، فيكون المعنى فتَفَرَّقَكُم عن سبيله ، أي لا تلاقون سبيله .

والضمير المضاف إليه في : « سبيله » يعود إلى الله تعالى بقرينة المقام ، فإذا كان ضمير المتكلم في قوله : « صراطي » عائداً لله كان في ضمير «سبيل» التفاتاً عن سبيلي .

روى النسائي في سننه ، وأحمد ، والدارمي في مسنديهما ، والحاكم في المستدرک ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : خطَّ لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً خطاً ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله (أي عن يمين الخط المخطوط أولاً وعن شماله) ثم قال : « هذه سُبُل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها ثم قرأ : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . وروى أحمد ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله قال : كنّا عند النبيء - صلى الله عليه وسلم - فخطَّ خطاً وخطَّ خطين عن يمينه وخطَّ خطين عن يساره ثم وضع يده في الخط الأوسط (أي الذي بين الخطوط الأخرى) فقال : هذه سبيل الله ، ثم تلا هذه الآية : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . وما وقع في الرواية الأولى (وخطَّ خطوطاً) هو باعتبار مجموع ما على اليمين والشمال . وهذا رسمه على سبيل التقريب :



وقوله : « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » تذييل تكرير لمثليته السابقين ، فالإشارة بـ«ذلكم» إلى الصراط ، والوصاية به معناها الوصاية بما يحتوي عليه .

وجعل الرجاء للتقوى لأن هذه السبيل تحتوي على ترك المحرمات ، وتزيد بما تحتوي عليه من فعل الصالحات ، فإذا اتبعها السالك فقد

صار من المتقين أي الذين اتصفوا بالتقوى بمعناها الشرعي كقوله تعالى :
« هدى للمتقين » .

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا
لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [154]

(ثُمَّ) هنا عاطفة على جملة : « قل تعالوا » فليست عاطفة للمفردات ،
فلا يَتَوَهَّمُ أَنَّهَا لتراخي الزمان ، بل تنسلخ عنه حين تعطف الجمل فتدل
على التراخي في الرتبة ، وهو مهلة مجازية ، وتلك دلالة (ثُمَّ) إذا عطفت
الجُمْلَ . وقد استصعب على بعض المفسرين مسلك (ثُمَّ) في هذه الآية لأنَّ
إتيان موسى - عليه السلام - الكتاب ليس برتبة أهم من رتبة تلاوة ما
حرّمه الله من المحرّمات وما فرضه من اتباع صراط الإسلام . وتعددت
آراء المفسرين في محمل (ثُمَّ) هنا إلى آراء : للفراء ، والزجاج ، والزمخشري ،
وأبي مسلم ، وغيرهم ، كل يروم التخلص من هذا المضيق .

والوجه عندي : أن (ثُمَّ) ما فارقت المعروف من إفادة التراخي
الرتبي ، وأن تراخي رتبة إتياء موسى - عليه السلام - الكتاب عن تلاوة
ما حرّم الله في القرآن ، وما أمر به من ملازمة صراط الإسلام ، إنّما يظهر
بعد النظر إلى المقصود من نظم الكلام ، فإن المقصود من ذكر إتياء موسى
- عليه السلام - الكتاب ليس لذاته بل هو التمهيد لقوله : « وهذا كتاب
أنزلناه مبارك » ليرتب عليه قوله : « أن تقولوا إنّما أنزل الكتاب على
طائفتين من قبلنا - إلى قوله - هدى ورحمة » ، فمعنى الكلام : وفوق ذلك
فهذا كتاب أنزلناه مبارك جمع فيه ما أوتيّه موسى - عليه السلام -
(وهو أعظم ما أوتيّه الأنبياء من قبله) وما في القرآن : الذي هو مصدق لما
بين يديه ومهيمن عليه ؛ إن اتبعتموه واتقيتم رحمتناكم ولا معذرة لكم

أن تقولوا لو أنزل لنا كتاب لكتنا أفضل اهتداءً من أهل الكتابين ، فهذا غرض أهمّ جمعا لاتّباع جميع ما اشتمل عليه القرآن ، وأدخل في إقناع المخاطبين بمزية أخذهم بهذا الكتاب .

ومناسبة هذا الانتقال : ما ذكر من صراط الله الذي هو الإسلام ، فإنّ المشركين لما كذبوا دعوة الإسلام ذكرهم الله بأنّه آتى موسى - عليه السلام - الكتاب كما اشتهر بينهم حسبما بيّناه عند قوله تعالى : « وما قدروا الله حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى » الآية ، في هذه السّورة ، لينتقل إلى ذكر القرآن والتحريض على اتّباعه فيكون التذكير بكتاب موسى - عليه السلام - تمهيدا لذلك الغرض .

« والكتاب » هو المعهود ، أي التّوراة ، و« تماما » حال من الكتاب ، والتّمام الكمال ، أي كان ذلك الكتاب كاملا لما في بني إسرائيل من الصّلاح الذي هو بقية ممّا تلقّوه عن أسلافهم : من صلاح إبراهيم ، وما كان عليه إسحاق ويعقوب والأسباط - عليهم السلام - ، فكانت التّوراة مكتملة لصلاحهم ، ومزيلة لما اعتراهم من الفساد ، وأنّ إزالة النّسาด تكملة للصلاح . ووصف التّوراة بالتّمام مبالغة في معنى المتّيم .

والموصول في قوله : « على الذي أحسن » مراد به الجنس ، فلذلك استوى مفردة وجمعه . والمراد به هنا الفريق المحسن ، أي تماما لإحسان المحسنين من بني إسرائيل ، فالفعل منزل منزلة اللازم ، أي الذي اتّصف بالإحسان .

والتفصيل : التبيين ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : « وكذلك نفصل الآيات » في هذه السّورة .

و«كلّ شيء» مراد به أعظم الأشياء ، أي المهمّات المحتاج إلى بيان أحكامها في أحوال الدّين . فتكون (كلّ) مستعملة في معنى الكثرة كما تقدّم في قوله تعالى : «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ما تبعوا قبلتك» في سورة البقرة . أو في معنى العظيم من الأشياء كأنّه جمع الأشياء كلّها .

أو يراد بالشيء : الشيء المهمّ ، فيكون من حذف الصّفة، كقوله : «ياخذ كلّ سفينة غصّبا»، أي كلّ سفينة صالحة ، ومثله قوله تعالى : «ما فرطنا في الكتاب من شيء» .

وقوله : «لعلّهم بلقاء ربّهم يؤمنون» رجاء أن يؤمنوا بلقاء ربّهم ، والضمير عائد إلى معلوم من المقام وهم بنو إسرائيل ، إذ قد علم من إيتاء موسى - عليه السّلام - الكتاب أنّ المتنفّعين به هم قومه بنو إسرائيل ، ومعنى ذلك : لعلّهم إنّ تحرّوا في أعمالهم ، على ما يناسب الإيمان بلقاء ربّهم ، فإنّ بني إسرائيل كانوا مؤمنين بلقاء الله من قبل نزول التّوراة ، ولكنّهم طرأ عليهم من أزمنة طويلة : من أطوار مجاورة القبط ، وما لحقهم من المذلّة والتغرّب والخصاصة والاستعباد ، ما رفع منهم العلم ، وأذوّى الأخلاق الفاضلة ، فنسوا مراقبة الله تعالى ، وأفسدوا ، حتّى كان حالهم كحال من لا يؤمن بأنّه يلقي الله ، فأراد الله إصلاحهم ببعثة موسى - عليه السّلام - ، ليرجعوا إلى ما كان عليه سلفهم الصّالح من مراقبة الله تعالى وخشية لقائه ، والرّغبة في أن يلقوه وهو راض عنهم . وهذا تعريض بأهل مكة ومن إليهم من العرب ، فكذلك كان سلفهم على هدى وصلاح ، فدخل فيهم من أضلّهم ولقنهم الشّرك وإنكار البعث ، فأرسل الله إليهم محمدا - صلّى الله عليه وسلّم - ليردّهم إلى الهدى ويؤمنوا بلقاء ربّهم .

وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بأمر البعث والجزاء .

«وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»¹⁵⁵ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ¹⁵⁶ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ»^[157]

جملة : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » عطف على جملة : « ثم آتينا موسى الكتاب ». والمعنى : آتينا موسى الكتاب وأنزلنا هذا الكتاب كما تقدم عند قوله تعالى : « ثم آتينا موسى الكتاب » إلخ ...

وافتح الجملة باسم الإشارة ، وبناءً الفعل عليه ، وجعل الكتاب الذي حقه أن يكون مفعولاً : « أنزلناه » : مبتدأ ، كل ذلك للاهتمام بالكتاب والتنويه به ، وقد تقدم نظيره : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه » في هذه السورة .

وتفريع الأمر باتباعه على كونه منزلاً من الله ، وكونه مباركاً ، ظاهر : لأن ما كان كذلك لا يتردد أحد في اتباعه .

والاتباع أطلق على العمل بما فيه على سبيل المجاز . وقد مضى الكلام فيه عند قوله تعالى : « إن أتبع إلا ما يوحى إليّ » - وقوله - أتبع ما أوحى إليك من ربك » في هذه السورة .

والخطاب في قوله : « فاتَّبِعُوهُ » للمشركين ، بقرينة قوله : « أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا » .

وجملة : « أنزلناه » في محلّ الصّفة لـ « كتاب » ، و (مبارك) صفة ثانية ، وهما المقصد من الإخبار ، لأنّ كونه كتابا لا مِرْيَة فيه ، وإنّما امْتَرَوْا في كونه منزلا من عند الله ، وفي كونه مباركا . وحسن عطف : « مبارك » على : « أنزلناه » لأنّ اسم المفعول - لاشتقاقه - هو في قوّة الفعل . ومعنى : « اتَّقُوا » كونوا متّصّفين بالتّقوى وهي الأخذ بدين الحقّ والعملُ به . وفي قوله : « لعلّكم ترحمون » وعد على اتّباعه وتعريض بالوعيد بعذاب الدّنيا والآخرة إن لم يتَّبِعُوهُ .

وقوله : « أن تقولوا » في موضع التعليل لفعل « أنزلناه » على تقدير لام التعليل محذوفة على ما هو معروف من حذفها مع (أن) . والتقدير : لأن تقولوا ، أي لقولكم ذلك في المستقبل ، أي لملاحظة قولكم وتوقع وقوعه ، فالقول باعث على إنزال الكتاب .

والمقام يدلّ على أنّ هذا القول كان باعثا على إنزال هذا الكتاب ، والعلّة الباعثة على شيء لا يلزم أن تكون علّة غائية ، فهذا المعنى في اللام عكس معنى لام العاقبة ، ويؤول المعنى إلى أنّ إنزال الكتاب فيه حكم منها حكمة قطع معذرتهم بأنّهم لم ينزل إليهم كتاب ، أو كراهية أن يقولوا ذلك ، أو لتجنّب أن يقولوه ، وذلك بمعونة المقام لإثارة للإيجاز فلذلك يقدّر مضاف مثل : كراهية أو تجنّب . وعلى هذا التقدير جرى نحاة البصرة . وذهب نحاة الكوفة إلى أنّه على تقدير (لا) النافية ، فالتقدير عندهم : أن لا تقولوا ، والمآل واحد ونظائر هذا في القرآن كثيرة كقوله : « بيّن الله لكم أن فضلوا - وقوله - واتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتى

على ما فرطتُ في جنب الله - وقوله - وألقى في الأرض رواسي أن تُميد
بكم « أي لتجنب مبيدتها بكم ، وقول عمرو بن كلثوم :
فَعَجَّلْنَا الْقِرَى أَنْ تَشْتُمُونَا

وهذا القول يجوز أن يكون قد صدر عنهم من قبل ، فقد جاء في آية
سورة القصص : « فلمّا جاءهم الحقّ من عندنا قالوا لولا أوتى مثل
ما أوتى موسى » ، ويجوز أن يكون متوقعا ثم قالوه من بعد ، وأيّا
ما كان فإنّه متوقع أن يكرّروه ويعيدوه قولاً موافقاً للحال في نفس الأمر ،
فكان متوقعا صدوره عند ما يتوجّه الملام عليهم في انحطاطهم عن
مجاوريتهم من اليهود والنصارى من حيث استكمال الفضائل وحسن السير
وكمال التدبّر ، وعند سؤالهم في الآخرة عن اتباع ضلالهم ، وعندما
يشاهدون ما يناله أهل الملل الصالحة من النعيم ورفع الدرجات في
ثواب الله فيتطلعون إلى حظّة من ذلك ويتعلّلون بأنّهم حرّموا الإرشاد في
الدنيا .

وقد كان اليهود والنصارى في بلاد العرب على حالة أكمل من أحوال
أهل الجاهليّة ، ألا ترى إلى قول النابغة يمدح آل النعمان بن الحارث ،
وكانوا نصارى :

مَجَلَّتْهُمْ ذَاتُ الْإِلَهِ وَدِينُهُمْ قَوِيمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ الْعَوَاقِبِ
وَلَا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرَّ بَعْدَهُ وَلَا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَازِبِ

والطائفة : الجماعة من الناس الكثيرة ، وقد تقدّم عند قوله تعالى :
« فأتقم طائفة منهم معك » في سورة النساء ، والمراد بالطائفتين هنا اليهود
والنصارى .

والكتاب مراد به الجنس المنحصر في التوراة والإنجيل والزبور . ومعنى
إنزال الكتاب عليهم أنّهم خوطبوا بالكتب السماوية التي أنزلت على

أنبيائهم فلم يكن العرب مخاطبين بما أنزل على غيرهم ، فهذا تعلل أول منهم ، وثمة اعتلال آخر عن الزّهادة في التخلّق بالفضائل والأعمال الصالحة : وهو قولهم : « وإن كُنّا عن دراستهم لغافلين » ، أي وأنّا كنّا غافلين عن اتباع رشدكم لأنّا لم نتعلم ، فالدراسة مراد بها التعليم .

والدراسة : القراءة بمعاودة للحفظ أو للتأمل ، فليس سرد الكتاب بدراسة . وقد تقدّم قوله تعالى : « وليقولوا درست » في هذه السّورة ، وتقدّم تفصيله عند قوله تعالى : « وبما كنتم تدرسون » من سورة آل عمران .

والغفلة : السّهو الحاصل من عدم التّفطن ، أي لم نهتمّ بما احتوت عليه كتبهم فنقتدي بهديها ، فكان مجيء القرآن منبها لهم للهدى الكامل ومغنياً عن دراسة كتبهم .

وقوله : « أو تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » تدرّج في الاعتلال جاء على ما تكنه نفوس العرب من شفوهم بأنفسهم على بقية الأمم ، وتطلّعهم إلى معالي الأمور ، وإدلالهم بفطنتهم وفصاحة ألسنتهم وحيدة أذهانهم وسرعة تلقّيهم ، وهم أخلقاء بذلك كله .

وفي الإعراب عن هذا الاعتلال منهم تلقين لهم ، وإيقاظ لأفهامهم أن يقتبطوا بالقرآن ، ويفهموا ما يعود عليهم به من الفضل والشرف بين الأمم ، كقوله تعالى : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون » . وقد كان الذين اتّبعوا القرآن أهدى من اليهود والنصارى ببون بعيد الدّرجات .

ولقد نهياً المقام بعد هذا التنبيه العجيب لفاء الفصيحة في قوله : « فقد جاءكم بينة من ربكم » وتقديرها : فإذا كنتم تقولون ذلك ويهجم في نفوسكم فقد جاءكم بيان من ربكم يعني القرآن ، يدفع عنكم ما تستشعرون من الانحطاط عن أهل الكتاب .

والبيّنة ما به البيان وظهور الحق . فالقرآن بيّنة على أنّه من عند الله لإعجازه بلغاء العرب ، وهو هدي بما اشتمل عليه من الإرشاد إلى طرق الخير ، وهو رحمة بما جاء به من شريعة سمحة لا حرج فيها ، فهي مقيمة لصالح الأمة مع التيسير . وهذا من أعجب التشريع وهو أدلّ على أنّه من أمر العليم بكلّ شيء .

وتفرّع عن هذا الإعذار لهم الإخبار عنهم بأنّهم لا أظلم منهم ، لأنّهم كذبوا وأعرضوا . فالفاء في قوله : « فمن أظلم » للتفريع . والاستفهام إنكاري ، أي لا أحد أظلم من الذين كذبوا بآيات الله .

و (مَن) في « ممّن كذب بآيات الله » موصولة وماصدقها المخاطبون من قوله : « أن تقولوا إنّما أنزل الكتاب على طائفتين » .

والظلم هنا يشمل ظلم نفوسهم ، إذ زجّوا بها إلى العذاب في الآخرة وخسران الدّنيا ، وظلم الرّسول - صلّى الله عليه وسلّم - إذ كذبوه ، وما هو بأهل التّكذيب ، وظلم الله إذ كذبوا بآياته وأنكروا نعمته ، وظلموا النّاس بصدّهم عن الإسلام بالقول والفعل .

وقد جيء باسم الموصول لتدلّ الصّلة على تعليل الحكم ووجه بناء الخبر ، لأنّ من ثبت له مضمون تلك الصّلة كان حقيقاً بأنّه لا أظلم منه .

ومعنى : « صدّف » أعرض هو ، ويطلق بمعنى صرّف غيره كما في القاموس . وأصله التّعدية إلى مفعول بنفسه وإلى الثّاني بـ (عن) يقال : صدفت فلانا عن كذا ، كما يقال : صرّفته ، وقد شاع تنزيله منزلة اللاّزم حتّى غلب عدم ظهور المفعول به ، يقال : صدّف عن كذا بمعنى أعرض وقد تقدّم عند قوله تعالى : « أنظر كيف نصرف الآيات ثمّ هم يصدفون » في هذه السّورة ، وقدّره في الكشف هنا متعدّياً لأنّه أنسب بكونهم أظلم النّاس تكثيراً في وجوه اعتدائهم ، ولم أر ذلك لغيره نظراً لقوله تعالى :

« سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب » إذ يناسبه معنى المتعدّي لأنّ الجزاء على أعراضهم وعلى صدّهم النَّاس عن الآيات ، فإنّ تكذيبهم بالآيات يتضمّن إعراضهم عنها فناسب أن يكون صدّهم هو صرفهم النَّاس .

و«سوء العذاب» من إضافة الصّفة إلى الموصوف ، وسوء أشدّه وأقواه ، وقد بيّن ذلك قوله تعالى : « الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون » . فقله : « عذابا فوق العذاب » هو مضاعفة العذاب ، أي شدّته . ويحتمل أنّه أريد به عذاب الدّنيا بالقتل والذلّ ، وعذاب الآخرة ، وإنّما كان ذلك جزاءهم لأنّهم لم يكذبوا تكذيبا عن دعوة مجرّدة ، بل كذبوا بعد أن جاءتهم الآيات البينات . و (ما) مصدرية : أي بصدفهم وإعراضهم عن الآيات إعراضا مستمرا لم يدعوا راغبه ف(كان) هنا مفيدة للاستمرار مثل : « وكان الله غفورا رحيما » .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [458]

استئناف بياني نشأ عن قوله : « فمن أظلم ممّن كذب بآيات الله » الآية ، وهو يحتمل الوعيد ويحتمل التهكم ، كما سيأتي . فإن كان هذا وعيدا وتهديدا فهو ناشئ عن جملة : « سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا » لإثارته سؤال سائل يقول : متى يكون جزاؤهم ، وإن كان تهكما بهم على صدفهم عن الآيات التي جاءتهم ، وتطلّعهم إلى آيات أعظم منها في اعتقادهم ، فهو ناشئ عن جملة : « فمن أظلم ممّن كذب بآيات الله »

وصدّف عنها» لأنّه يثير سؤال سائل يقول : ماذا كانوا يترقّبون من الآيات فوق الآيات التي جاءتهم .

و (هل) للاستفهام الإنكاري ، وهي ترد له كما ترد له الهمزة على التحقيق ، ولذلك جاء بعده الاستثناء .

و«ينظرون» مضارع نظَرَ بمعنى انتظر، وهو مشترك مع نظر بمعنى رأى في الماضي والمضارع والمصدر ، ويخالفه في التعدية ، ففعل نظَرَ العين متعدّ بالي ، وفعل الانتظار متعدّ بنفسه ، ويخالفه أيضا في أنّ له اسم مصدر وهو النظيرة - بكسر الظاء - ولا يقال ذلك في النظر بالعين .

والضمير عائد للذين يصدفون عن الآيات .

ثمّ إنّ كان الانتظار واقعا منهم على أنّه انتظار آيات ، كما يقترحون ، فمعنى الحصر: أنّهم ما ينتظرون بعد الآيات التي جاءتهم ولم يقتنعوا بها إلاّ الآيات التي اقترحوها وسألوها وشرطوا أن لا يؤمنوا حتّى يجاءوا بها ، وهي ما حكاه الله عنهم بقوله : « وقالوا لن نؤمن لك حتّى تفجّر لنا من الأرض ينبوعا - إلى قوله - أو تأتي بالله والملائكة قبيلا - وقوله - وقالوا لولا أنزل عليه ملك » فهم ينتظرون بعض ذلك بجِدٍّ من عامّتهم ، فالانتظار حقيقة ، وبسخرية من قادتهم ومضليلهم ، فالانتظار مجاز بالصورة ، لأنّهم أظهرُوا أنفسهم في مظهر المنتظرين، كقوله تعالى : « يحذّر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبّئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا » الآية . والمراد ببعض آيات ربّك : ما يشمل ما حكى عنهم بقوله : « حتّى تفجّر لنا من الأرض ينبوعا - إلى قوله - حتّى تنزل علينا كتابا نقرؤه » . وفي قوله : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك - إلى قوله - فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » فالكلام تهكّم بهم وبعائدهم .

وإن كان الانتظار غير واقع بجدّ ولا بسخرية فمعناه أنّهم ما يترقّبون شيئا من الآيات يأتيهم أعظم ممّا أتاهم ، فلا انتظار لهم ، ولكنّهم صمّموا على الكفر واستبطنوا العناد ، فإن فرض لهم انتظار فلنّما هو انتظار ما سيحلّ بهم من عذاب الآخرة أو عذاب الدّنيا أو ما هو برزخ بينهما ، فيكون الاستثناء تأكيدا للشّيء بما يشبه ضده . والمراد: أنّهم لا ينتظرون شيئا ولكن سيجيئهم ما لا يتظرونه ، وهو إتيان الملائكة ، إلى آخره ، فالكلام وعيد وتهديد .

والقصر على الاحتمالين إضافي ، أي بالنسبة لما ينتظر من الآيات ، والاستفهام الخبري مستعمل في التهكّم بهم على الاحتمالين ، لأنّهم لا ينتظرون آية ، فلنّهم جازمون بتكذيب الرّسول - صلّى الله عليه وسلّم - ، ولكنّهم يسألون الآيات إفحاما في ظنّهم . ولا ينتظرون حسابا لأنّهم مكذّبون بالبعث والحشر .

والإتيان بالنسبة إلى الملائكة حقيقة ، والمراد بهم : ملائكة العذاب ، مثل الذين نزلوا يوم بدر (إذ يوحى ربّك إلى الملائكة أنّي معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان) . وأمّا المسند إلى الربّ فهو مجاز ، والمراد به : إتيان عذابه العظيم ، فهو لعظم هوله جعل إتيانه مسندا إلى الأمر به أمرا جازما ليعرف مقدار عظمته ، بحسب عظيم قدرة فاعله وأمره ، فالإسناد مجازي من باب : بنى الأمير المدينة ، وهذا مجاز وارد مثله في القرآن، كقبوله تعالى : « فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » وقوله : « ووجد الله عنده فوقاه حسابه » . ويجوز أن يكون المراد بقوله : « أو يأتي ربّك » إتيان أمره بحساب النّاس يوم القيامة ، كقوله : « وجاء ربّك والملك صفّا صفّا » ، أي لا ينتظرون إلّا عذاب الدّنيا أو عذاب الآخرة .

وعلى الاحتمالات كلها يجوز أن يكون وقوع ذلك يوم القيامة .
ويجوز أن يكون في الدنيا .

وجملة : « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها » مستأنفة استئنافا بيانيا تذكيرا لهم بأن الانتظار والتريث عن الإيمان وخيم العقابة ، لأنه مهدد بما يمنع من التدارك عند الندامة ، فإما أن يعقبه الموت والحساب ، وإما أن يعقبه مجيء آية من آيات الله ، وهي آية عذاب خارق للعادة يختص بهم فيعلموا أنه عقوبة على تكذيبهم وصدفهم ، وحين ينزل ذلك العذاب لا تبقى فسحة لتدارك ما فات لأن الله إذا أنزل عذابه على المكذبين لم ينفع عنده توبة ، كما قال تعالى : « فلو كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين - وقال تعالى - ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين - وقال - ولو أنزلنا ما مكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون » .

ومن جملة آيات الله الآيات التي جعلها الله عامة للناس ، وهي أشراط الساعة : والتي منها طلوع الشمس من مغربها حين تؤذن بانقراض نظام العالم الدنيوي . روى البخاري ، ومسلم ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل » ثم قرأ هذه الآية .

والنفع المنفي هو النفع في الآخرة ، بالنجاة من العذاب ، لأن نفع الدنيا بكشف العذاب عند مجيء الآيات لا ينفع النفوس المؤمنة ولا الكافرة ، لقوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » وقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ثم يحشرون على نياتهم » .

والمراد بالنفس : كل نفس ، لوقوعه في سياق النقي .

وجملة : « لم تكن آمنت من قبل » صفة « نفسا » ، وهي صفة مخصصة لعموم : « نفسا » ، أي : النفس التي لم تكن آمنت من قبل إتيان بعض الآيات لا ينفعها إيمانها إذا آمنت عند نزول العذاب ، فعلم منه أن النفس التي كانت آمنت من قبل نزول العذاب ينفعها إيمانها في الآخرة . وتقديم المفعول في قوله : « نفسا إيمانها » لئتم الإيجاز في عود الضمير .

وقوله : « أو كسبت في إيمانها خيرا » عطف على « آمنت » ، أي أو لم تكن كسبت في إيمانها خيرا .

و (في) للظرفية ، وإنما يصلح للظرفية مدة الإيمان ، لا الإيمان ، أي أو كسبت في مدة إيمانها خيرا .

والخير هو الأعمال الصالحة والطاعات .

و (أو) للتقسيم في صفات النفس فيستلزم تقسيم النفوس التي خصصتها الصفتان إلى قسمين : نفوس كافرة لم تكن آمنت من قبل ، فلا ينفعها إيمانها يوم يأتي بعض آيات الله ، ونفوس آمنت ولم تكسب خيرا في مدة إيمانها ، فهي نفوس مؤمنة ، فلا ينفعها ما تكسبه من خير يوم يأتي بعض آيات ربك . وهذا القسم الثاني ذو مراتب متفاوتة ، لأن التقصير في اكتساب الخير متفاوت ، فمنه إضاعة لأعمال الخير كلها ، ومنه إضاعة لبعضها ، ومنه تقريط في الإكثار منها . وظاهر الآية يقتضي أن المراد نفوس لم تكسب في إيمانها شيئا من الخير أي اقتصر على الإيمان وفرطت في جميع أعمال الخير .

وقد علم من التقسيم أن هذه النفوس لا ينفعها اكتساب الخير من بعد مجيء الآيات ، ولا ما يقوم مقام اكتساب الخير عند الله ، وهو ما من به

على هذه الأمة من غفران السيئات عند التوبة ، فالعزم على الخير هو التوبة ، أي العزم على اكتساب الخير . فوقع في الكلام إيجازٌ حذف اعتماداً على القرينة الواضحة . والتقدير : لا ينفع نفساً غير مؤمنة إيمانها أو نفساً لم تكن كسبت خيراً في إيمانها من قبل كسبها ، يعني أو ما يقوم مقام كسب الخير ، مثل التوبة فإنها بعض اكتساب الخير ، وليس المراد أنه لا ينفع نفساً مؤمنة إيمانها إذا لم تكن قد كسبت خيراً بحيث يضيع الإيمان إذا لم يقع اكتساب الخير ، لأنه لو أريد ذلك لما كانت فائدة للتقسيم ، ولكفى أن يقال لا ينفع نفساً إيمانها لم تكسب خيراً ، ولأن الأدلة القطعية ناهضة على أن الإيمان الواقع قبل مجيء الآيات لا يدحض إذا فرط صاحبه في شيء من الأعمال الصالحة ، ولأنه لو كان كذلك وسلمناه لما اقتضى أكثر من أن الذي لم يفعل شيئاً من الخير عدا أنه آمن لا ينفعه إيمانه ، وذلك إيجاد قسم لم يقل به أحد من علماء الإسلام .

وبذلك تعلم أن الآية لا تنهض حجة للمعتزلة ولا الخوارج الذين أوجبوا خلود مرتكب الكبيرة غير التائب في النار ، والتسوية بينه وبين الكافر ، وإن كان ظاهرهما قبل التأمل يودهم أنها حجة لهم ، ولأنه لو كان الأمر كما قالوا لصار الدخول في الإيمان مع ارتكاب كبيرة واحدة عبثاً لا يرضاه عاقل لنفسه ، لأنه يدخل في كلفة كثير من الأعمال بدون جدوى عليه منها ، ولكان أهون الأحوال على مرتكب الكبيرة أن يخلع ربقة الإيمان إلى أن يتوب من الأمرين جميعاً . وسخافة هذا اللازم لأصحاب هذا المذهب سخافة لا يرضاه من له نظر ثاقب . والاشتغال بتبيين ما يستفاد من نظم الآية من ضبط الحد الذي ينتهي عنده الانتفاع بتحصيل الإيمان وتحصيل أعمال الخير ، أجدى من الخوض في لوازم معانيها من اعتبار الأعمال جزءاً من الإيمان ، لا سيما مع ما في أصل المعنى من الاحتمال المسقط للاستدلال .

فصفة : « لم تكن آمنت من قبل » تحذير للمشركين من التريث عن الإيمان خشية أن يغتهم يوم ظهور الآيات ، وهم المقصود من السياق .
وصفة « أو كسبت في إيمانها خيرا » إدماج في أثناء المقصود لتحذير المؤمنين من الإعراض عن الأعمال الصالحة .

ثم إن أقوال المفسرين السالفين ، في تصوير هذين القسمين ، تفرقت تفرقا يؤذن باستصعاب استخلاص مقصود الآية من ألفاظها ، فلم تقارب الإفصاح بعبارة بيّنة ، ويجمع ذلك ثلاثة أقوال :

الأول : عن السدي ، والضحاك : أن معنى « كسبت في إيمانها خيرا » : كسبت في تصديقها ، أي معه أو في مدته ، عملا صالحا ، قالوا : وهؤلاء أهل القبلة ، فإن كانت مُصدّقة ولم تعمل قبل ذلك ، أي إتيان بعض آيات الله ، فعملت بعد أن رأت الآية لم يُقبل منها ، وإن عملت قبل الآية خيرا ثم عملت بعد الآية خيرا قبل منها .

الثاني : أن لفظ القرآن جرى على طريقة التغليب ، لأن الأكثر ممن يتنفع بإيمانه ساعثه هو من كسب في إيمانه خيرا .

الثالث : أن الكلام إبهام في أحد الأمرين ، فالمعنى : لا ينفع يومئذ إيمان من لم يكن آمن قبل ذلك اليوم أو ضمّ إلى إيمانه فعل الخير ، أي لا ينفع إيمان من يؤمن من الكفار ولا طاعة من يطيع من المؤمنين . وأمّا من آمن قبل فإِنَّه ينفعه إيمانه ، وكذلك من أطاع قبلُ نفعته طاعته .

وقد كان قوله : « يوم يأتي بعض آيات ربك » بعد قوله : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك » ، مقتصرًا على ما يأتي من آيات الله في اليوم المؤجل له ، إعراضًا عن التعرّض لما يكون يوم تأتي الملائكة أو يأتي ربك ، لأن إتيان الملائكة ، والمعطوف عليه غير محتمل الوقوع وإنّما جرى ذكره إبطالا لقولهم :

« أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا » ونحوه من تهكماتهم ، وإنما الذي يكون مما انتظروه هو أن يأتي بعض آيات الله ، فهو محل الموعظة والتحذير ، وآيات القرآن في هذا كثيرة منها قوله تعالى : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » .

وآيات الله منها ما يختص بالمشركين وهو ما هدّدهم الله به من نزول العذاب بهم في الدنيا ، كما نزل بالأمم من قبلهم ، ومنها آيات عامة للناس أجمعين ، وهو ما يُعرف بأشراط الساعة ، أي الأشرار الكبرى .

وقد جاء تفسير هذه الآية في السنة بطلوع الشمس من مغربها . ففي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل . ثم قرأ هذه الآية ، أي قوله تعالى : « يوم يأتي بعض آيات ربك - إلى قوله - خيرا » . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه . وفي جامع الترمذي ، عن صفوان بن عسال المرادي قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : باب من قبل المغرب مفتوح مسيرة عَرْضه أربعين سنة (كذا) مفتوح للتوبة لا يُغلق حتى تطلع الشمس من مغربها ، قال الترمذي : حديث صحيح .

واعلم أن هذه الآية لا تعارض آية سورة النساء : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار » : لأن محمل تلك الآية على تعيين وقت فوات التوبة بالنسبة للأحوال الخاصة بأحاد الناس ، وذلك ما فُسِّر في حديث ابن عمر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر » رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد . (ومعنى يغرغر أن تبلغ روحه - أي أنفاسه - رأس حلقه) . ومحمل الآية

التي نتكلّم فيها تعيين وقت فوات التوبة بالنسبة إلى الناس كافة، وهي حالة يأس الناس كلّهم من البقاء .

وجاء الاستئناف بقوله : « قل انظروا إنّنا منتظرون » أمرا للرّسول - صلى الله عليه وسلّم - بأن يهدّدهم ويتوعّدهم على الانتظار ، إن كان واقعا منهم ، أو على التريث والتأخّر عن الدخول في الإسلام الذي هو شبيه بالانتظار إن كان الانتظار إدعائيا ، بأن يأمرهم بالدوام على حالهم التي عبّر عنها بالانتظار أمر تهديد ، ويخبرهم بأن المسلمين ينتظرون نصر الله ونزول العقاب بأعدائهم ، أي : دوموا على انتظاركم فنحن منتظرون .

وفي مفهوم الصّفتين دلالة على أنّ النفس التي آمنت قبل مجيء الحساب ، وكسبت في إيمانها خيرا ، ينفعها إيمانها وعملها : فاشتملت الآية بمنطوقها ومفهومها على وعيد ووعد مجملين تبيّنهما دلائل الكتاب والسنة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ
إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [159]

استئناف جاء عقب الوعيد كالنتيجة والفضلّة ، لأنّ الله لما قال لرسوله - صلى الله عليه وسلّم - : « قل انظروا إنّنا منتظرون » أعقب ذلك بأنّ الفريقين متباينان متجايفان في مدّة الانتظار .

وجيء بالموصوليّة لتعريف المسند إليه لإفادة تحقّق معنى الصّلة فيهم ، لأنّها تناسب التفسير من الاتصال بهم ، لأنّ شأن الدّين أن يكون عقيدة واحدة وأعمالا واحدة ، والتفرّق في أصوله ينافي وحدته ، ولذلك لم يزل علماء الإسلام يبذلون وسعهم لاستنباط مراد الله من الأمة ، ويعلمون

أَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ وَأَنَّ اللَّهَ كَلَّفَ الْعُلَمَاءَ بِإِصَابَتِهِ وَجَعَلَ لِلْمُصِيبِ أَجْرَيْنَ وَلَمْ يَأْخِطْهُ مَعَ اسْتِفْرَاغِ الْوَسْعِ أَجْرًا وَاحِدًا ، وَذَلِكَ أَجْرٌ عَلَى بَذْلِ الْوَسْعِ فِي طَلْبِهِ فَإِنَّ بَذْلَ الْوَسْعِ فِي ذَلِكَ يُوْشِكُ أَنْ يُبْلَغَ الْحَقْصُودُ ، فَالْمُرَادُ بِـ « الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ » قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُمُ الْمُشْرِكُونَ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّفَقُوا عَلَى صُورَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الدِّينِ ، فَقَدْ عَبَدَتِ الْقَبَائِلُ أَصْنَامًا مُخْتَلِفَةً ، وَكَانَ بَعْضُ الْعَرَبِ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ ، وَبَعْضُهُمْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ ، وَبَعْضُهُمْ يَعْبُدُ الْقَمَرَ ، وَكَانُوا يَجْعَلُونَ لِكُلِّ صَنَمٍ عِبَادَةً تَخَالِفُ عِبَادَةَ غَيْرِهِ .

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ : أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَنِيفِيَّةِ ، وَهِيَ دِينُ التَّوْحِيدِ لِجَمِيعِهِمْ ، فَفَرَّقُوا وَجَعَلُوا آلِهَةً عِبَادَاتِهَا مُخْتَلِفَةٌ الصُّورِ . وَأَمَّا كَوْنُهُمْ كَانُوا شِيعًا فَلِأَنَّ كُلَّ قَبِيلَةٍ كَانَتْ تَنْتَصِرُ لِصَنَمِهَا ، وَتَزْعُمُ أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ عَلَى عِبَادِ غَيْرِهِ كَمَا قَالَ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ الْفَهْرِيُّ :

وَفَرَّتْ ثَقِيفٌ إِلَى لَاتِهَا بِمَنْقَابِ الْخَائِبِ الْخَاسِرِ

وَمَعْنَى : « لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » أَنَّكَ لَا صِلَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ . فَحَرْفُ (مِنْ) اتِّصَالِيَّةٌ . وَأَصْلُهَا (مِنْ) الْإِبْتِدَائِيَّةُ .

و« شَيْءٌ » اسْمُ جِنْسٍ بِمَعْنَى مَوْجُودٍ فَنَفِيهِ يَفِيدُ نَفْيَ جَمِيعِ مَا يَوْجَدُ مِنَ الْإِتِّصَالِ ، وَتَقْدَمُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ » فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، وَقَوْلِهِ : « لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ » فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ .

وَلَمَّا دَلَّتْ عَلَى التَّبَرُّيِّ مِنْهُمْ وَعَدَمِ مُخَالَطَتِهِمْ ، كَانَ الْكَلَامُ مِثَارَ سُؤَالٍ سَائِلٍ يَقُولُ : أَعْلَى الرَّسُولِ أَنْ يَتَوَلَّى جَزَاءَهُمْ عَلَى سُوءِ عَمَلِهِمْ ، فَلِذَلِكَ جَاءَ الْاسْتِثْنَاءُ بِقَوْلِهِ : « إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ » فَهُوَ اسْتِثْنَاءُ بَيَانِي ، وَصِغَةُ الْقَصْرِ لِقَبْلِ اعْتِقَادِ السَّائِلِ الْمُرْتَدِّدِ ، أَيِ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى الرَّسُولِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَلَا إِلَى غَيْرِهِ ، وَهَذَا إِذْ نَارِ شَدِيدٍ . وَالْمُرَادُ بِأَمْرِهِمْ : عَمَلُهُمُ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ الْجَزَاءَ وَالْعُقُوبَةَ . وَ (إِلَى) مُسْتَعْمَلٌ فِي الْإِنْتِهَاءِ

المجازي : شبه أمرهم بالضالة التي تركها الناس فسارت حتى انتهت إلى مراحها ، فإنّ الخلق كلهم عبيد الله وإليه يرجعون ، والله يمهّلهم ثم يأخذهم بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين حين يأذن لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بقتالهم كما قال تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنّنا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولّوا عنه وقالوا معلّم مجنون إنّنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنّنا منتقمون » . والبطشة الكبرى هي بطشة يوم بدر .

وقوله : « ثمّ ينبّئهم بما كانوا يفعلون » (ثمّ) فيه للترتيب الرئبي مع إفادة المهلة ، أي يبقى أمرهم إلى الله مدة . وذلك هو الإمهال والإملاء لهم ، ثمّ يعاقبهم ، فأطلق الإنباء على العقاب ، لأنّه إن كان العقاب عقاب الآخرة فهو يتقدّمه الحساب ، وفيه إنباء الجاني بجنايته وبأنّه مأخوذ بها ، فإطلاق الإنباء عليه حقيقة مراد معها لازمه على وجه الكناية ، وإن كان العقاب عقاب الدّنيا فإطلاق الإنباء عليه مجاز ، لأنّه إذا نزل بهم العذاب بعد الوعيد علّموا أنّ العقاب الموعود به ، فكان حصول ذلك العلم لهم عند وقوعه شبيها بحصول العلم الحاصل عن الإخبار فأطلق عليه الإنباء ، فيكون قوله : « ينبّئهم » بمعنى يعاقبهم بما كانوا يفعلون .

ووصف المشركين بأنّهم فرّقوا دينهم وكانوا شيعا : يؤذن بأنّه وصف شنيع ، إذ ما وصفهم الله به إلّا في سياق الذم ، فيؤذن ذلك بأنّ الله يحذّر المسلمين من أن يكونوا في دينهم كما كان المشركون في دينهم ، ولذلك قال تعالى : « شرّع لكم من الدّين ما وصّى به نوحا والّذي أوحينا إليك - إلى قوله - أن أقيموا الدّين ولا تفرّقوا فيه » .

وتفريق دين الإسلام هو تفريق أصوله بعد اجتماعها ، كما فعل بعض العرب من منعهم الزّكاة بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال

أبو بكر - رضي الله عنه - : لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .
وأما تفريق الآراء في التعليلات والتبيينات فلا بأس به ، وهو من النظر
في الدين : مثل الاختلاف في أدلة الصفات ، وفي تحقيق معانيها ، مع
الاتفاق على إثباتها . وكذلك تفريق الفروع : كتفريق فروع الفقه
بالخلاف بين الفقهاء ، مع الاتفاق على صفة العمل وعلى ما به صحة
الأعمال وفسادها . كالاختلاف في حقيقة الفرض والواجب . والحاصل
أن كل تفريق لا يكفر به بعض الفرق بعضا ، ولا يفضي إلى قتال وفتن ،
فهو تفريق نظر واستدلال وتطلب للحق بقدر الطاقة : وكل تفريق
يفضي بأصحابه إلى تكفير بعضهم بعضا ، ومقاتلة بعضهم بعضا في أمر
الدين ، فهو مما حذر الله منه ، وأما ما كان بين المسلمين نزاعا على الملك
والدنيا فليس تفريقا في الدين ، ولكنه من الأحوال التي لا تسلم منها
الجماعات .

وقرأه الجمهور : « فرّقوا » - بتشديد الراء - وقرأه حمزة ، والكسائي :
« فآرقوا » - بالفاء بعد الفاء - أي تركوا دينهم ، أي تركوا ما كان
دينا لهم ، أي لجميع العرب ، وهو الحنيفية فنبذوها وجعلوها عدة نحل .
ومآل القراءتين واحد .

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [46]

من عادة القرآن أنه إذا أنذر أعقب الإنذار ببشارة لمن لا يحق عليه
ذلك الإنذار ، وإذا بشر أعقب البشارة بنذارة لمن يتصف بضد ما بشر عليه ،
وقد جرى على ذلك ههنا : فإنه لما أنذر المؤمنين وحذرهم من التريث
في اكتساب الخير ، قبل أن يأتي بعض آيات الله القاهرة ، بقوله : « لا »

يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا «
فَحَدَّثَ لَهُمْ بِذَلِكَ حَدًّا هُوَ مِنْ مَظْهَرِ عَدْلِهِ ، أَعْقَبَ ذَلِكَ بِبُشْرَى مِنْ مَظَاهِرِ
فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ . وَهِيَ الْجِزَاءُ عَلَى الْحَسَنَةِ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَالْجِزَاءُ عَلَى السَّيِّئَةِ
بِمِثْلِهَا ، فَقَوْلُهُ : « مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » إِلَى آخِرِهِ اسْتِثْنَاءٌ ابْتِدَائِيٌّ جَرَى عَلَى
عَرَفِ الْقُرْآنِ فِي الْإِنْتِقَالِ بَيْنَ الْأَغْرَاضِ .

فَالْكَلَامُ تَذْيِيلٌ جَامِعٌ لِأَحْوَالِ الْفَرِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ اقْتَضَاهُمَا قَوْلُهُ :
« لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » .
وَهَذَا بَيَانٌ لِبَعْضِ الْإِجْمَالِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ : « لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا » الْآيَةُ ،
كَمَا تَقَدَّمَ أَنْفَاءً .

و « جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » مَعْنَاهُ عَمَلُ الْحَسَنَةِ : شَبَّهَ عَمَلَهُ الْحَسَنَةَ بِحَالِ
الْمَكْتَسَبِ ، إِذْ يَخْرُجُ يَطْلُبُ رِزْقًا مِنْ وَجْهِهِ أَوْ احْتِطَابًا أَوْ صَيْدَ فَيَجِيءُ
أَهْلَهُ بِشَيْءٍ . وَهَذَا كَمَا اسْتَعِيرَ لَهُ اسْمُ التَّجَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَمَا
رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ » .

فَالْبَاءُ لِلْمَصَاحِبَةِ ، وَالْكَلَامُ تَمْثِيلٌ ، وَيَجُوزُ حَمْلُ الْمَجِيءِ عَلَى حَقِيقَتِهِ ،
أَيَّ مَجِيءٍ إِلَى الْحِسَابِ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْحَسَنَةِ أَنْ يَجِيءَ بِكِتَابَتِهَا فِي صَحِيفَةِ
أَعْمَالِهِ .

وَأَمْثَالُ الْحَسَنَةِ ثَوَابُ أَمْثَالِهَا ، فَالْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ بِقَرِينَةٍ قَوْلُهُ :
« فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا » ، أَوْ مَعْنَاهُ تَحَسُّبٌ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ مِثْلَ التِّي جَاءَ
بِهَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ : « كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ » وَيَعْرِفُ مِنْ
ذَلِكَ أَنَّ الثَّوَابَ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ الْحِسَابِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ « فَلَا يُجْزَى
إِلَّا مِثْلُهَا » .

وَالْأَمْثَالُ : جَمْعُ مِثْلٍ وَهُوَ الْمِمَاطِلُ الْمَسَاوِي ، وَجِيءَ لَهُ بِاسْمِ عَدَدِ الْمُؤَنَّثِ
وَهُوَ عَشْرٌ اعْتِبَارًا بِأَنَّ الْأَمْثَالَ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مُحَذَّوْفٍ دَلَّ عَلَيْهِ الْحَسَنَةُ

أي فله عشر حسنات أمثالها ، فروعي في اسم العدد معنى مميّزه دون لفظه وهو أمثال . والجزاء على الحسنة بعشرة أضعاف فضل من الله ، وهو جزاء غالب الحسنات . وقد زاد الله في بعض الحسنات أن ضاعفها سبعمائة ضعف كما في قوله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنبَلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ » فذلك خاصّ بالإتفاق في الجهاد . وفي الحديث : « من همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة » .

وقرأ الجمهور : « عَشْرُ أمثالها » بإضافة « عشر » إلى « أمثالها » . وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، وقرأه يعقوب - بتنوين « عشر » ورفع « أمثالها » ، على أنه صفة لعشر ، أي فله عشر حسنات مماثلة للحسنة التي جاء بها .

ومماثلة الجزاء للحسنة موكلول إلى علم الله تعالى وفضله .

وإنّما قال في جانب السيئة فلا يُجزى إلاّ مثلها بصيغة الحصر لأجل ما في صيغته من تقديم جانب النقي ، اهتماما به ، لإظهار العدل الإلهي ، فالحصر حقيقي ، وليس في الحصر الحقيقي ردّ اعتقاد بل هو إخبار عما في نفس الأمر ، ولذلك كان يساويه أن يقال : ومن جاء بالسيئة فيُجزى مثلها ، لولا الاهتمام بجانب نفي الزيادة على المماثلة . ونظيره قول النبي - صلى الله عليه وسلم - حين سأله هند بنت عتبة فقالت : إنّ أبا سفيان رجل مسيّك فهل عليّ حرج أن أُطعم من الذي له عيالنا ، فقال لها : « لا إلاّ بالمعروف » ولم يقل لها : أطعمهم بالمعروف . وقد جاء على هذا المعنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة ؛ فأكدّها بواحدة تحقيقا لعدم الزيادة في جزاء السيئة .

ولذلك أعقبه بقوله : « وهم لا يظلمون » والضمير يعود إلى من جاء بالسيئة، إظهاراً للعدل ، فلذلك سجل الله عليهم بأنّ هذا لا ظلم فيه لينصّفوا من أنفسهم . وأمّا عدّ عود الضّامين إلى الفريقين فلا يناسب فريق أصحاب الحسنات ، لأنّه لا يحسن أن يقال للذي أُكرم وأفيض عليه الخير إنّه غير مظلوم .

﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [161]

استئناف ابتدائي للانتقال من مجادلة المشركين ، وما تخلّلها ، إلى فذلّكة ما أُمّر به الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - في هذا الشّأن ، غلقاً لباب المجادلة مع المعارضين ، وإعلاناً بأنّه قد تقلّد لنفسه ما كان يجادلهم فيه ليتقلّدوه وأنّه ثابت على ما جاءهم به ، وأنّ إعراضهم لا يزلزله عن الحقّ .

وفيه إيذان بانتهاء السّورة لأنّ الواعظ والمناظر إذا أشبع الكلام في غرضه ، ثمّ أخذ يبين ما رَضِيه لنفسه وما قرّر عليه قراره ، علم السّامع أنّه قد أخذ يطوي سجّل المحاجة ، ولذلك غير الأسلوب . فأمر الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - بأن يقول أشياء يعلن بها أصول دينه ، وتكرّر الأمر بالقول ثلاث مرّات تنويعاً بالمقول .

وقوله : « إِنِّي هَدَانِي رَبِّي » متّصل بقوله : « وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه » الذي بيّنه بقوله : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » فزاده بياناً بقوله هذا : « قل إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ، ليبين أنّ هذا الدّين إنّما جاء به الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - بهدي

من الله ، وأَنَّهُ يجعله ديناً قِيَمًا على قواعد مِلَّة إبراهيم — عليه السَّلام — ،
إِلَّا أَنَّهُ زائد عليه بما تَضَمَّنَه من نعمة الله عليه إذ هداه إلى ذلك الصَّراط
الَّذي هو سبيل النِّجاة .

وافْتُتِحَ الخبر بحرف التَّأْكِيد لَأَنَّ الخطاب للمُشْرِكِينَ المَكْذَبِينَ .

وتعريف المسند إليه بالإضافة للاعتزاز بمربوبية الرُّسُول — صَلَّى
الله عليه وسلَّم — لله تعالى ، وتعريضاً بالمشركين الذين أضلَّهم أربابهم ،
ولو وحدوا ربَّ الحقيق بالعبادة لهداهم .

وقوله : « هداني ربِّي إلى صراط مستقيم » تمثيلية : شبَّهت هيئة
الإرشاد إلى الحقِّ المبلَّغ إلى النِّجاة بهيئة من يدلُّ السَّائر على الطَّرِيق المبلَّغة
للمقصود .

والمُناسبة بين الهداية وبين الصَّراط تامَّة ، لَأَنَّ حقيقة الهداية التعريف
بالطَّرِيق ، يقال : هو هادٍ خَرِيتَ ، وحقيقة الصَّراط الطَّرِيق الواسعة . وقد
صحَّ أن تستعار الهداية للإرشاد والتعليم ، والصَّراطُ للدين القويم ، فكان
تشبيهاً مركَّباً قابلاً للتفكيك وهو أكمل أحوال التَّمثيلية .

ووصف الصَّراط بالمستقيم ، أي الَّذي لا خطأ فيه ولا فساد ، وقد تقدَّم
عند قوله تعالى : « وَأَنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعُوهُ » ، والمقصود إتمام
هيئة التشبيه بأنَّه دين لا يتطرق متبعه شكٌّ في نفعه كما لا يتردَّد صالك
الطَّرِيق الواسعة التي لا انعطاف فيها ولا يتحير في أمره .

وفي قوله : « دِينًا » تجريد للاستعارة مؤذن بالمشبه ، وانتصب
على الحال من : « صراط » لَأَنَّهُ نكرة موصوفة .

والدين تقدَّم عند قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عند الله الإسلام » وهو
السَّيرة التي يتَّبعها النَّاسُ .

والقيِّم - بفتح القاف وتشديد الياء - كما قرأه نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، ويعقوب : وصف مبالغة قائم بمعنى معتدل غير معوج ، وإطلاق القيام على الاعتدال والاستقامة مجاز ، لأنَّ المرء إذا قام اعتدلت قامته ، فيلزم الاعتدال القيام . والأحسن أن نجعل القيِّم للمبالغة في القيام بالأمر ، وهو مرادف القيِّوم ، فيستعار القيام للكفاية بما يحتاج إليه والوفاء بما فيه صلاح المقوم عليه ، فالإسلام قيِّم بالأمة وحاجتها ، يقال : فلان قيِّم على كذا ، بمعنى مدبِّر له ومصلح ، ومنه وصف الله تعالى بالقيِّوم ، وهذا أحسن لأنَّ فيه زيادة على مفاد مستقيم الذي أخذ جزءاً من التمثيلية ، فلا تكون إعادة لبعض التشبيه .

وقرأ عاصم ، وحزمة ، وابن عامر ، والكسائي ، وخلف : « قيِّما » - بكسر القاف وفتح الياء مخففة - وهو من صيغ مصادر قام ، فهو وصف للدين بمصدر القيام المقصود به كفاية المصلحة للمبالغة ، وهذه زنة قليلة في المصادر ، وقلْبُ واوه ياء بعد الكسرة على غير الغالب : لأنَّ الغالب فيه تصحيح لامه لأنَّها مفتوحة ، فسواء في خفتها وقوعها على الواو أو على الياء ، مثل عَوْض وحوَل ، وهذا كشذوذ جباد جمع جواد ، وانتصب « قيِّما » على الوصف لـ « ديننا » .

وقوله : « ملَّة إبراهيم » حال من : « ديننا » أو من : « صراط مستقيم » أو عطف بيان من : « ديننا » .

والملَّة ، الدين : فهي مرادفة الدين ، فالتعبير بها هنا للتفنن ألا ترى إلى قوله تعالى : « وأوصى بها إبراهيم بنه ويعقوب يا بني إنَّ الله اصطفى لكم الدين » .

و « ملَّة » فعلة بمعنى المفعول ، أي المملول ، من أملت الكتاب إذا لقنت الكاتب ما يكتب ، وكان حقها أن لا تقترن بهاء التأنيث لأنَّ زنة (فِعْل) بمعنى المفعول تلزم التذكير ، كالذبَّح ، إلَّا أنَّهم

قرنوها بهاء التأنيث لما صيروها اسما للدين ، ولذلك قال الراغب :
 الملة كالدّين ، ثم قال : « والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا
 إلى النبي الذي تسند إليه نحو ملة إبراهيم ، ملة آبائي ، ولا توجد مضافة
 إلى الله ولا إلى آحاد الأمة ، ولا تستعمل إلا في جملة الشريعة دون آحادها
 لا يقال الصلاة ملة الله » أي ويقال : الصلاة دين الله ذلك أنه يراعى في لفظ
 الملة أنها مملول من الله فهي تضاف للذي أُملت عليه .

ومعنى كون الإسلام ملة إبراهيم : أنه جاء بالأصول التي هي شريعة
 إبراهيم وهي : التوحيد ، ومسيرة الفطرة ، والشكر ، والسماحة ، وإعلان
 الحق ، وقد بينت ذلك عند قوله تعالى : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا
 نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً » في سورة آل عمران .

والحنيف : المجانب للباطل ، فهو بمعنى المهتدي ، وقد تقدم عند
 قوله تعالى : « قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » في
 سورة البقرة . وهو منصوب على الحال .

وجملة « وما كان من المشركين » عطف على الحال من « إبراهيم » - عليه
 السلام - المضاف إليه ، لأن المضاف هنا كالجزاء من المضاف إليه ، وقد
 تقدم في آية سورة البقرة .

﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، [162]
 لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [163]

استئناف ، أيضا ، ينزل منزلة التفريع عن الأول ، إلا أنه استأنف
 للإشارة إلى أنه غرض مستقل مهم في ذاته ، وإن كان متفرعا عن غيره ،
 وحاصل ما تضمنه هو الإخلاص لله في العبادة ، وهو متفرع عن التوحيد ،

ولذلك قيل : الرياءُ الشُّركُ الأصغر . علّم الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقوله عقب ما علّمه بما ذكر قبله لأنّ المذكور هنا يتضمّن معنى الشكر لله على نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم ، فإنّه هداه ثمّ ألهمه الشكر على الهداية بأن يجعل جميع طاعته وعبادته لله تعالى . وأعيد الأمر بالقول لما علمت آنفا .

وافتحت جملة المقول بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر ولتحقيقه ، أو لأنّ المشركين كانوا يزعمون أنّ الرسول - عليه الصّلاة والسّلام - كان يرأى بصلاته ، فقد قال بعض المشركين لمّا رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصليّ عند الكعبة : « ألاّ تنظرون إلى هذا المرأى أيّكم يقوم إلى جزور بني فلان فيعمد إلى قرثها وسلاها فإذا سجد وضعه بين كتفيه » . فتكون (إنّ) على هذا لردّ الشكّ .

واللام في « لله » يجوز أن تكون للملك، أي هي بتيسير الله فيكون بيانا لقوله « إنني هدّاني ربي إلى صراط مستقيم » . ويجوز أن تكون اللام للتعليل أي لأجل الله .

وجعل صلاته لله دون غيره تعريضا بالمشركين إذ كانوا يسجدون للأصنام . ولذلك أردف بجملة « لا شريك له » .

والنّسك حقيقة العبادة ومنه يسمى العابد الناسك .

والمحيّا والممات يستعملان مصدرين ميميّين ، ويستعملان اسمي زمانٍ ، من حيي ومات ، والمعنيان محتملان فلذا كان المراد من المحيّا والممات المعنى المصدرى كان المعنى على حذف مضاف تقديره : أعمال المحيّا وأعمال الممات ، أي الأعمال التي من شأنها أن يتلبّس بها المرء مع حياته ، ومع وقت مماته . وإذا كان المراد منهما المعنى الزمنى كان المعنى ما يعتريه في الحياة وبعد الممات .

ثم إن أعمال الحياة كثيرة وفيرة ، وأمّا الأعمال عند الموت فهي ما كان عليه في مدة الحياة وثباته عليه ، لأنّ حالة الموت أو مدّته هي الحالة أو المدة التي تنقلب فيها أحوال الجسم إلى صفة تؤذن بقرب انتهاء مدة الحياة وتلك حالة الاحتضار ، وتلك الحالة قد تؤثر انقلاباً في الفكر أو استعجالاً بما لم يكن يستعجل به الحي ، فربّما صدرت عن صاحبها أعمال لم يكن يصدرها في مدة الصحة ، اتقاء أو حياء أو جلباً لنفع ، فيرى أنّه قد يش ممّا كان يُراعيه ، فيفعل ما لم يكن يفعل ، وأيضاً لتلك الحالة شؤون خاصة تقع عندها في العادة مثل الوصيّة ، وهذه كلّها من أحوال آخر الحياة ، ولكنها تضاف إلى الموت لوقوعها بقربه ، وبهذا يكون ذكر الممات مقصوداً منه استيعاب جميع مدة الحياة حتّى زمن الإشراف على الموت .

ويجوز أن يكون المراد من الممات ما يحصل للرسول - عليه الصّلاة والسّلام - بعد وفاته من توجهاته الرّوحية نحو أمّته بالدّعاء لهم والتّسليم على من سلّم عليه منهم والظهور لخاصّة أمّته في المنام فإنّ للرسول بعد مماته أحكام الحياة الرّوحية الكاملة كما ورد في الحديث : « إذا سلّم عليّ أحد من أمّتي ردّ الله عليّ رويّ فرددتُ عليه السّلام » وكذلك أعماله في الحشر من الشّفاعاة العامّة والسّجود لله في عرصات القيامة فتلك أعمال خاصة به - صلّى الله عليه وسلّم - وهي كلّها لله تعالى لأنّها لنفع عبّيده أو لنفع أتباع دينه الذي ارتضاه لهم ، فيكون قوله : « ومماتي » هنا ناظراً إلى قوله في الحديث : « حياتي خير لكم ومماتي خير لكم » .

ويجوز أن يكون معنى مماته لله الشّهادة في سبيل الله فإنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سمّته اليهودية بخيبر في لحم شاة أطعموه إياه حصل بعض منه في إمعائه . ففي الحديث (1) « ما زالت أكلة خيبر تعادني »

(1) رواه أبو نعيم في كتاب الطب النبوي بسند حسن .

كل عام حتى كان هذا أوان قطع أبْهَرَيَّ» (2) .

وبقوله : « ومحيّاي ومماتي لله ربّ العالمين » تحقّق معنى الإسلام الذي أصله الإلقاء بالنفس إلى المُسلم له ، وهو المعنى الذي اقتضاه قوله : « فقلّ أسلمت وجهي لله ومن اتّبعني » كما تقدّم في سورة آل عمران ، وهو معنى الحنيفية الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم - عليه السلام - في قوله : « إذ قال له ربّه أسلم » قال أسلمتُ لربّ العالمين » كما في سورة البقرة :

وقوله : « ربّ العالمين » صفة تشير إلى سبب استحقاقه أن يكون عمل مخلوقاته له لا لغيره ، لأنّ غيره ليس له عليهم نعمة الإيجاد ، كما أشار إليه قوله في أوّل السّورة : « الحمد لله الذي خلق السّماوات والأرض وجعل الظّلمات والنّور ثمّ الذين كفروا بربّهم يعدلون » .

وجملة : « لا شريك له » حال من اسم الجلالة مصرّحة بما أفاده جمع التّوكيد مع لام الملك من إفادة القصر . والمقصود من الصّفة والحال الردّ على المشركين بأنّهم ما أخلصوا عملهم للذي خلقهم ، وبأنّهم أشركوا معه غيره في الإلهيّة .

وقرأ نافع : « ومحيّايُ » - بسكون الياء الثّانية - إجراء للوصل مجرى الوقف وهو نادر في النّثر ، والرّواية عن نافع أثبتته في هذه الآية ، ومعلوم أنّ النّدرة لا تُناكد الفصاحة ولا يريبك ما ذكره ابن عطية عن أبي عليّ الفارسي : « أنّها شاذّة عن القياس لأنّها جمعت بين ساكنين لأنّ سكّون الألف قبل حرف ساكن ليس ممّا يثقل في النّطق نحو عصاي ورؤيائي . ووجه إجراء الوصل مجزئ الوقف هنا إرادة التّخفيف لأنّ توالي يائين مفتوحتين

(2) . الابهر - بفتح الهمزة وسكون الباء وفتح الهاء عرق في القلب .

فيه ثقل، والألف الناشئة عن الفتحة الأولى لا تعدّ حاجزا فعديل عن فتح الياء الثانية إلى إسكانها». وقرأه البقيّة - بفتح الياء - وروي ذلك عن ورش، وقال بعض أهل القراءة أنّ نافعا رجع عن الإسكان إلى الفتح.

وجملة «وبذلك أمرت» عطف على جملة «إنّ صلاتي» الخ. فهذا ممّا أمر بأن يقوله، وحرف العطف ليس من المقول.

والإشارة في قوله: «وبذلك» إلى المذكور من قوله: «إنّ صلاتي ونُسكِي» ط الخ، أي أنّ ذلك كان لله بهدي من الله وأمر منه، فرجع إلى قوله: «إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم» يعني أنّه كما هداه أمره بما هو شكر على تلك الهداية، وإنّما أعيد هنا لأنّه لما أضاف الصلّة وما عطف عليها لنفسه وجعلها لله تعالى أعقبها بأنّه هدّني من الله تعالى، وهذا كقوله تعالى: «قل إنّي أُمرْتُ أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أوّل المسلمين».

وتقديم الجار والمجرور للاهتمام بالمشار إليه.

وقوله: «وأنا أوّل المسلمين» مثل قوله «وبذلك أمرت» خبر مستعمل في معناه الكناثي، وهو لازم معناه، يعني قبول الإسلام والثبات عليه والاعتباط به، لأنّ من أحبّ شيئا أسرع إليه فجاءه أوّل الناس، وهذا بمنزلة فعل سبق إذ يطلق في كلامهم على التمكن والترجّح، كما قال النابغة:

سَبَقْتُ الرِّجَالَ الْبَاهِشِينَ إِلَى الْعَلَا كَسَبَقَ الْجَوَادُ اصْطَادَ قَبْلَ الطَّوَارِدِ
لا يريد أنّه كان في المعالي أقدم من غيره لأنّ في أهل المعالي من هو أكبر منه سنّا، ومن نال العلا قبل أن يولد الممدوح، ولكنّه أراد أنّه تمكّن من نوال العلا وأصبح الحائز له والثابت عليه.

وفي الحديث: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة». وهذا المعنى تأييس للمشركين من الطمع في التنازل لهم في دينهم ولو أقلّ تنازل. ومن استعمال (أوّل)

في مثل هذا قوله تعالى: «ولا تكونوا أول كافر به»، كما تقدّم في سورة البقرة. وليس المراد معناه الصريح لقلة جدوى الخبر بذلك ، لأنّ كلّ داع إلى شيء فهو أول أصحابه لا محالة ، فماذا يفيد ذلك الأعداء والأتباع ، فإن أريد بالمسلمين الذين اتّبعوا حقيقة الإسلام بمعنى إسلام الوجه إلى الله تعالى لم يستقم ، لأنّ إبراهيم - عليه السلام - كان مسلماً وكان بنوه مسلمين ، كما حكى الله عنهم إذ قال إبراهيم - عليه السلام - : « فلا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون » وكذلك أبناء يعقوب كانوا مسلمين إذ قالوا : « ونحن له مسلمون » .

وقرأ نافع وأبو جعفر - بإثبات ألف «أنا» إذا وقعت بعدها همزة ويجري مدّها على قاعدة المدّ ، وحذفها الباقيون قبل الهمزة ، واتفق الجميع على حذفها قبل غير الهمزة تخفيفاً جرى عليه العرب في الفصح من كلامهم نحو : «أنا يوسف» واختلفوا فيه قبل الهمزة نحو أنا أفعل ، وأحسب أنّ الأفصح إثباتها مع الهمز للتمكّن من المدّ .

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾

استئناف ثالث ، مفتتح بالأمر بالقول ، يتنزّل منزلة النتيجة لما قبله ، لأنّه لمّا علّم أنّ الله هداه إلى صراط مستقيم ، وأنقذه من الشرك ، وأمره بأن يحضّ عبادته وطاقته لربه تعالى ، شكرا على الهداية ، أتبع ذلك بأن يشكر أنّ يعبد غير الله تعالى لأنّ واهب النعم هو مستحقّ الشكر ، والعبادة جماع مراتب الشكر ، وفي هذا رجوع إلى بيان ضلالهم إذ عبدوا غيره . وإعادة الأمر بالقول تقدّم بيان وجهه .

والاستفهام إنكار عليهم لأنهم يرغبون أن يعترف بربوبية أصنامهم ، وقد حاولوا منه ذلك غير مرة سواء كانوا حاولوا ذلك منه بقرب نزول هذه الآية أم لم يحاولوه ، فهم دائمون على الرغبة في موافقتهم على دينهم ، حكى ابن عطية عن النقاش أن الكفار قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : « ارجع إلى ديننا واعبد آلِهتنا ونحن نتكفل لك بكل تباعة تنوقعها في دنياك وآخرتك » وأن هذه الآية نزلت في ذلك .

وقدّم المفعول على فعله لأنه المقصود من الاستفهام الإنكاري ، لأن محلّ الإنكار هو أن يكون غير الله يُبتغى له ربّاً ، ولأن ذلك هو المقصود من الجواب إذا صحّ أن المشركين دعوا النبي - صلى الله عليه وسلم - لعبادة آلِهتهم فيكون تقديمه على الفعل للاهتمام لموجب أو لموجبين ، كما تقدّم في قوله تعالى : « قل أغير الله أتخذ وليّاً » في هذه السورة .

وجملة : « وهو ربّ كلّ شيء » في موضع الحال ، وهو حال معلّل للإنكار ، أي أن الله خالق كلّ شيء وذلك باعترافهم ، لأنهم لا يدعون أن الأصنام خالقة لشيء ، كما قال تعالى : « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » فلما كان الله خالق كلّ شيء وربّه فلا حقّ لغيره في أن يعبد الخلائق ، وعبادة غيره ظلم عظيم ، وكفر بنعمة الربوبية . وبقطع النظر عن كون الخلق نعمة ، لأنّ الخلق إيجاد والوجود أفضل من العدم ، فإنّ مجرد الخلق موجب للعبادة لأجل العبودية .

ولأنّما قيل « وهو ربّ كلّ شيء » ، ولم يقل : وهو ربّي ، لإثبات أنّه ربّه بطريق الاستدلال لكونه إثبات حكم عام يشمل المقصود الخاص ، وإفادة أن أربابهم غير حقيقة بالربوبية لأنّها مربوبة أيضاً لله تعالى .

وقوله : « ولا تكسب كلّ نفس إلاّ عليها » من القول بالمأمور به ، مفيد متاركة للمشركين ومقتاً لهم بأنّ عنادهم لا يضرّه ، فإنّ ما اقترفوه من

الشَّرْكَ لا يَنَالُهُ مِنْهُ شَيْءٌ فَإِنَّمَا كَسَبَ كُلَّ نَفْسٍ عَلَيْهَا ، وَهُمْ مِنْ جُمْلَةِ
الْأَنْفُسِ فَكَسَبَهُمْ عَلَيْهِمْ لَا يَتَجَاوَزُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ . فَالتَّعْمِيمُ فِي الْحُكْمِ
الْوَاقِعِ فِي قَوْلِهِ : « كُلَّ نَفْسٍ » فَائِدَتُهُ مِثْلُ فَائِدَةِ التَّعْمِيمِ الْوَاقِعِ فِي
قَوْلِهِ : « وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ » .

وَدَلَّتْ كَلِمَةُ (عَلَى) عَلَى أَنَّ مَفْعُولَ الْكَسْبِ الْمَحْذُوفُ تَقْدِيرُهُ : شَرًّا ،
أَوْ إِثْمًا ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ، لِأَنَّ شَأْنَ الْمُخَاطَبِينَ هُوَ اكْتِسَابُ الشَّرِّ وَالْإِثْمِ كَقَوْلِهِ :
« مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ فِي الْكَلَامِ احْتِسَابًا
تَقْدِيرُهُ : وَلَا تَكْسِبُ كُلَّ نَفْسٍ إِلَّا لَهَا وَلَا تَكْتَسِبُ إِلَّا عَلَيْهَا فَحُذِفَ مِنَ الْأَوَّلِ
لِلدَّلَالَةِ الثَّانِي وَبِالْعَكْسِ إِذَا جَرِيَتْ عَلَى أَنْ (كَسَبَ) يَغْلِبُ فِي تَحْصِيلِ الْخَيْرِ ،
وَأَنَّ (اِكْتَسَبَ) يَغْلِبُ فِي تَحْصِيلِ الشَّرِّ ، سَوَاءٌ اجْتَمَعَ الْفِعْلَانِ أَمْ لَمْ يَجْتَمِعَا . وَلَا
أَحْسَبُ بَيْنَ الْفَعْلَيْنِ فَرْقًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » . وَالْمَعْنَى : أَنَّ مَا يَكْتَسِبُهُ الْمَرْءُ أَوْ يَكْسِبُهُ لَا يَتَعَدَّى مِنْهُ
شَيْءٌ إِلَى غَيْرِهِ .

وقوله : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » تَكْمِلَةُ لِمَعْنَى قَوْلِهِ : « وَلَا
تَكْسِبُ كُلَّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا » فَكَمَا أَنَّ مَا تَكْسِبُهُ نَفْسٌ لَا يَتَعَدَّى مِنْهُ شَيْءٌ
إِلَى غَيْرِهَا ، كَذَلِكَ لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَالْمَعْنَى : وَلَا أَحْمِلُ
أَوْزَارَكُمْ .

فقوله : « وَازِرَةٌ » صِفَةُ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ : نَفْسٌ ، دَلَّ
عَلَيْهِ قَوْلُهُ : « وَلَا تَكْسِبُ كُلَّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا » ، أَيِ لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ حَامِلَةً
حِمْلَ أُخْرَى .

وَالْوِزْرُ : الْحِمْلُ ، وَهُوَ مَا يَحْمِلُهُ الْمَرْءُ عَلَى ظَهْرِهِ ، قَالَ تَعَالَى :
« وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ » ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَهُمْ

يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون . وأما تسمية الإثم وزرا فلأنه يتخيل ثقيلًا على نفس المؤمن . فمعنى «لا تزر وازرة لا» تحمل حاملة، أي لا تحمل نفس حين تحمل حمل أي نفس أخرى غيرها ، فالمعنى لا تغني نفس عن نفس شيئا تحمله عنها . أي كل نفس تزر وزر نفسها ، فيفيد أن وزر كل أحد عليه وأنه لا يحمل غيره عنه شيئا من وزره الذي وزره وأنه لا تبعه على أحد من وزر غيره من قريب أو صديق ، فلا تغني نفس عن نفس شيئا ، ولا تتبع نفس بإثم غيرها، فهي إن حملت لا تحمل حمل غيرها . وهذا إتمام لمعنى المتاركة .

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَّوْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [164]

(ثم) للترتيب الرتبي . وهذا الكلام يحتمل أن يكون من جملة القول المأمور به فيكون تعقيبا للمتاركة بما فيه تهديدهم ووعيدهم ، فكان موقع (ثم) لأن هذا الخبر أهم . فالخطاب في قوله : «إلى ربكم مرجعكم» خطاب للمشركين وكذلك الضميران في قوله : «بما كنتم فيه تختلفون» والمعنى : بما كنتم فيه تختلفون مع المسلمين ، لأن الاختلاف واقع بينهم وبين المسلمين ، وليس بين المشركين في أنفسهم اختلاف ، فأدمج الوعيد بالوعيد . وقد جعلوا هذه الجملة مع التي قبلها آية واحدة في المصاحف .

ويحتمل أن يكون المقول قد انتهى عند قوله : «وزر أخرى» فيكون قوله : «ثم إلى ربكم مرجعكم» استئناف كلام من الله تعالى خطابا للنبيء - صلى الله عليه وسلم - وللمعاندين له . و (ثم) صالحة للاستئناف لأن الاستئناف ملائم للترتيب الرتبي ، والكلام وعيد ووعد أيضا . ولا ينافي ذلك أن تكون مع التي قبلها آية واحدة .

والتنبئة : الإخبار ، والمراد بها إظهار آثار الإيمان والكفر واضحة يوم الحساب ، فيعلموا أنهم كانوا ضالّين ، فشبّه ذلك العلم بأنّ الله أخبرهم بذلك يومئذ وإلاّ فإنّ الله نبأهم بما اختلفوا فيه من زمن الحياة الدنّيا ، أو المراد ينبتكم مباشرة بدون واسطة الرّسل لإنباء لا يستطيع الكافر أن يقول : هذا كذب على الله ، كما ورد في حديث الحشر : « فيسمعهم الدّاعي ليس بينهم وبين الله حجاب » .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [165]

يَظهر أنّ هذا دليل على إمكان البعث ، وعلى وقوعه : لأنّ الذي جعل بعض الأجيال خلائف لِمَا سَبَقَها ، فعمّروا الأرض جيلا بعد جيل ، لا يُعجزه أن يحشرها جميعا بعد انقضاء عالم حياتها الأولى . ثمّ إنّ الذي دبّر ذلك وأتقنه لا يليق به أن لا يقيم بينهم ميزان الجزاء على ما صنعوا في الحياة الأولى لئلاّ يذهب المعتدون والظّالمون فائزين بما جنوا ، وإذا كان يقيم ميزان الجزاء على الظّالمين فكيف يترك إثابة المحسنين ، وقد أشار إلى الشقّ الأول قوله : « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض » ، وأشار إلى الشقّ الثاني قوله : « ورفع بعضكم فوق بعض درجات لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتاكم » ، ولذلك أعقبه بتذييله : « إنّ ربّك سريع العقاب وإنّهُ لغفور رحيم » .

فالخطابُ موجّه إلى المشركين الذين أمر الرّسولُ — عليه الصلاة والسلام — بأن يقول لهم : « غير الله أبغي ربّا » ؛ وذلك يذكّر بأنّهم سيصيرون إلى ما صار إليه أولئك .

فموقع هذه عقب قوله : « ثم إلى ربكم مرجعكم » تذكير بالنعمة ، بعد الإنذار بسلبها ، وتحريض على تدارك ما فات ، وهو يفتح أعينهم للنظر في عواقب الأمم وانقراضها وبقائها .

ويجوز أن يكون الخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - والأمة الإسلامية ، وتكون الإضافة على معنى اللام ، أي جعلكم خلائف الأمم التي ملكت الأرض فأنتم خلائف للأرض ، فتكون بشارة للأمة بأنها آخر الأمم المجمعولة من الله لتعمير الأرض . والمراد : الأمم ذوات الشرائع الإلهية وأياً ما كان فهو تذكير بعظيم صنع الله ومنته لاستدعاء الشكر والتحذير من الكفر .

والخلائف : جمع خليفة ، والخليفة : اسم لما يُخلف به شيء ، أي يجعل خلفاً عنه ، أي عوضه ، يقال : خليفة وخليفة ، فهو فَعِيل بمعنى مفعول ، وظهرت فيه التاء لأنهم لما صيروهم اسماً قطعوه عن موصوفه .

وإضافته إلى الأرض على معنى (في) على الوجه الأول ، وهو كون الخطاب للمشركين ، أي خلائف فيها ، أي خلف بكم أمما مضت قبلكم كما قال تعالى حكاية عن الرسل في مخاطبة أقوامهم : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح - واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد - عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » . والإضافة على معنى اللام على الوجه الثاني وهو كون الخطاب للمسلمين .

وفي هذا أيضاً تذكير بنعمة تتضمن عبرة وموعظة : وذلك أنه لما جعلهم خلائف غيرهم فقد أنشأهم وأوجدهم على حين أعدم غيرهم ، فهذه نعمة ، لأنه لو قدر بقاء الأمم التي قبلهم لما وجد هؤلاء .

وعظف قوله : « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » يجري على الاحتمالين في المخاطب بقوله : « جعلكم خلائف الأرض » فهو أيضا عبرة وعِظة ، لعدم الاغترار بالقوة والرفعة ، ولجعل ذلك وسيلة لشكر تلك النعمة والسعي في زيادة الفضل لمن قصر عنها والرفق بالضعيف وإنصاف المظلوم .

ولذلك عقبه بقوله : « ليلوكم فيما آتاكم » أي ليخبركم فيما أنعم به عليكم من درجات النعم حتى يظهر للناس كيف يضع أهل النعمة أنفسهم في مواضعها اللائقة بها وهي المعبر عنها بالدرجات .

والدرجات مستعارة لتفاوت النعم . وهي استعارة مبنية على تشبيه المعقول بالمحسوس لتقريبه .

والإيتاء مستعار لتكوين الرفعة في أربابها تشبيها للتكوين بإعطاء المعطي شيئا لغيره .

والبلو : الاختبار ، وقد تقدم عند قوله تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع » . والمزاد به ظهور موازين العقول في الانتفاع والنفع بمواهب الله فيها وما يسهل لها من الملائمات والمساعدات ، فالله يعلم مراتب الناس ، ولكن سمى ذلك بلكوى لأنها لا تظهر للعيان إلا بعد العمل ، أي ليعلمه الله علم الواقعات بعد أن كان يعلمه علم المقدرات ، فهذا موقع لام التعليل ، وقريب منه قول إياس بن قبيصة الطائي :

وأقبلت والخطي يخطر بيننا لأعلم من جبانها من شجاعها

وجملة : « إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » تذييل للكلام وإيدان بأن المقصود منه العمل والامتثال فلذلك جمع هنا بين صفة « سريع العقاب » وصفه « الغفور » ليناسب جميع ما حوته هذه السورة .

واستعيرت السرعة لعدم التردد ولتمام المقدرة على العقاب ، لأنّ شأن المتردّد أو العاجز أن يتريّث وأن يخشى غائلة المعاقب ، فالمراد سريع العقاب في يوم العقاب ، وليس المراد سريعه من الآن حتى يؤوّل بمعنى: كلّ آت قريب، إذ لا موقع له هنا .

ومن لطائف القرآن الاقتصار في وصف (سريع العقاب) على مؤكّد واحد ، وتعزيز وصف (الغفور الرحيم) بمؤكدات ثلاثة وهي إنّ ، ولام الابتداء ، والتوكيد اللفظي؛ لأنّ (الرحيم) يؤكّد معنى (الغفور) : ليُطمئنّ أهل العمل الصّالح إلى مغفرة الله ورحمته ، وليستدعي أهل الإعراض والصدوف ، إلى الإقلاع عمّا هم فيه .

فهرس

- ولو اننا نزلنا إليهم الملائكة ٠٠٠ - إلى - ولكن أكثرهم يجهلون ٥٠٠٠ 5
- وكذلك جعلنا لكل نبيء عدوا ٠٠٠ - إلى - وما يفترون ٥٠٠٠٠٠ 8
- ولتصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون ٠٠٠ - إلى - ما هم مقترفون ٥٠٠ 11
- أفغير الله ابتغى حكما ٠٠٠ - إلى - الممترين ٥٠٠٠٠٠٠٠ 13
- وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ٠٠٠ - إلى - وهو السميع العليم ٥٠ 17
- وإن تطع أكثر من فى الأرض ٠٠٠ - إلى - الا يخرصون ٥٠٠٠٠٠٠ 22
- إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ٥٠٠٠٠٠٠٠ 28
- فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ 30
- وما لكم الا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه - إلى - ما اضطررتم إليه ٥٠ 33
- وإن كثيرا ليضلون باهوائهم ٠٠٠ - إلى - أعلم بالمعتدين ٥٠٠٠٠٠٠ 35
- وذروا ظاهر الاثم وباطنه ٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ 37
- إن الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يفترون ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ 38
- ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ٠٠٠ - إلى - إنكم لمشركون ٥٠ 38
- أو من كان ميتا فأحييناه ٠٠٠ - إلى - ما كانوا يعملون ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ 43
- وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ٠٠٠ - إلى - وما يشعورون 46
- وإذا جاءتهم آية قانوا لن تؤمن ٠٠٠ - إلى - ما أوتى رسل الله ٥٠٠٠ 51
- الله أعلم حيث يجعل رسالاته ٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ 53
- سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله - إلى - بما كانوا يمكرون ٥٠ 55
- فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ٠٠٠ - إلى - الذين
- لا يؤمنون ٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ 57
- وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ٥٠٠٠٠٠٠٠ 62
- لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ 63
- ويوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن ٠٠٠ - إلى - إن ربك حكيم عليم 65

- وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون 73
- يا معشر الجن والانس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسَلٌ ۚ ۞ ۞ - إلى - كانوا كافرين .. 75
- ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون 80
- ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون 82
- وربك الغنى ذو الرحمة 84
- إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ۚ ۞ ۞ - إلى - قوم آخرين 86
- إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين 88
- قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ۚ ۞ ۞ - إلى - إنه لا يفلح الظالمون 89
- وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث ۚ ۞ ۞ - إلى - ساء ما يحكمون 94
- وكذلك زين لكثير من المشركين ۚ ۞ ۞ - إلى - وما يفترون 98
- وقالوا هذه أنعام وحرث حجر ۚ ۞ ۞ - إلى - بما كانوا يفترون 105
- وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة ۚ ۞ ۞ - إلى - إنه حكيم عليم . 109
- قد خسر الذين قتلوا أولادهم ۚ ۞ ۞ - إلى - وما كانوا مهتدين 113
- وهو الذى أنشأ جنات معروشات ۚ ۞ ۞ - إلى - وغير متشابه 116
- كلوا من ثمره إذا أثمر ۚ ۞ ۞ - إلى - إنه لا يحب المسرفين 119
- ومن الأنعام حمولة وفرشا ۚ ۞ ۞ - إلى - إنه لكم عدو مبين 124
- ثمانية أزواج من الضأن اثنين ۚ ۞ ۞ - إلى - القوم الظالمين 127
- قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرما ۚ ۞ ۞ - إلى - فإن ربك غفور رحيم . 136
- وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ۚ ۞ ۞ - إلى - وإنا لصادقون .. 141
- فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ۚ ۞ ۞ - إلى - القوم المجرمين 144
- سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ۚ ۞ ۞ - إلى - ألا تخرصون 145
- قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين 151
- قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ۚ ۞ ۞ - إلى - وهم برهم يعدلون .. 152
- قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ۚ ۞ ۞ - إلى - لعلمكم تعقلون 155
- ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده 162
- وأوفوا الكيل والميزان بالقسط 164
- لا تكلف نفسا إلا وسعها 165
- وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى 166
- وبعهد الله أوفوا 168

- ذلکم وصاکم به لعلم تذکرون 170
- وان هذا صراطی مستقیما ۰۰۰ - إلى قوله - لعلمکم تتقون 170
- ثم آتینا موسى الکتب تماما ۰۰۰ - إلى قوله - يؤمنون 175
- وهذا کتاب أنزلناه مبارک فأتبعوه ۰۰۰ - إلى - بما كانوا یصدفون 178
- هل ینظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ۰۰۰ - إلى - إنا منتظرون 183
- إن الذین فرقوا دینهم وكانوا شیعا ۰۰۰ - إلى - بما كانوا یفعلون 191
- من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ۰۰۰ - إلى - وهم لا یظلمون 194
- قل إننی هدائی ربی ۰۰۰ - إلى - من المشرکین 197
- قل إن صلاتی ونسکی 200
- قل أغیر الله أبغی ربا ۰۰۰ - إلى - وزر أخرى 205
- ثم إلى ربکم مرجعکم ۰۰۰ - إلى - فیه تختلفون 208
- وهو الذی جعلکم خلائف الأرض ۰۰۰ - إلى - وإنه لغفور رحیم 209